مراد حائد

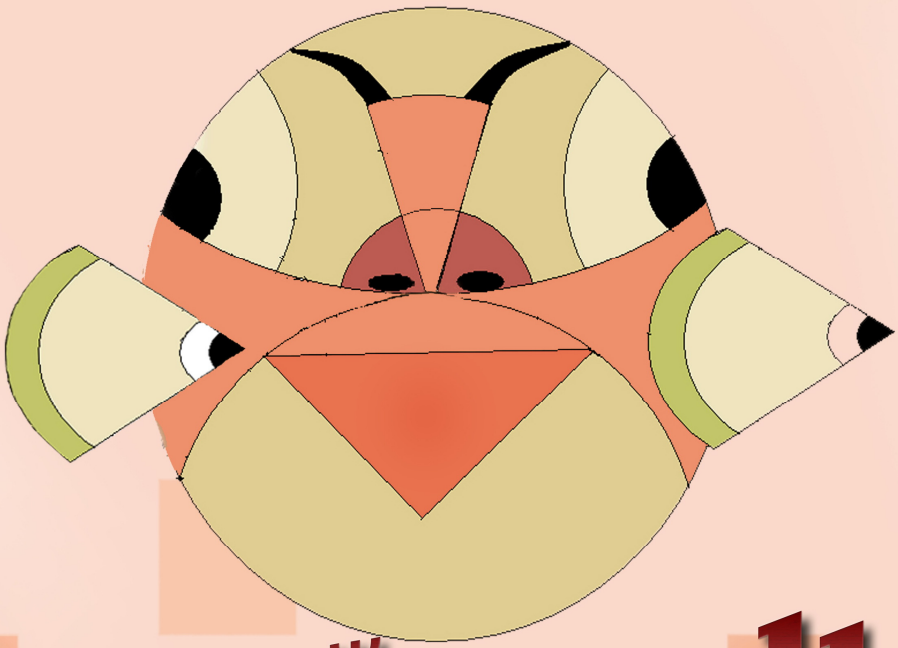

المتهوّرون

رواية

مراد داؤد

المتهوّرون

رواية

تدقيق لغوي:
أ . د . موفق السراج

تصميم الغلاف :
سامر مراد داؤد

إهداء .....

إلى رفيقة العمر الحبيبة

إلى أولادي الأعزاء

إلى رفاق دربي من أخوة وأصدقاء

الفصل الأول

" في المشفى "

– ١ –

الوقت عصراً، إذ تشتد الحرارة كعادتها في مثل هذه الأوقات من العام، كون الربيع قد شارف على الانتهاء. إلا أن الغرفة التي كان ينزل فيها أبو ديب كانت تقع في الطابق الرّابع من أحد المباني التابعة لمشفى حكومي، وكانت تحمل رقم "١١" . وكان تيار هواءٍ محمّلٍ ببرودة منعشة تتسلّل من خلالها نفحات حارة لتخترق نافذةً تطلّ حديقة المشفى البهيّة.

كان يجلس على حافة سريره بعد أن أنهى جولة في الممر محرّكاً جسده تنفيذاً لتعليمات الأطباء لأنه كان في مرحل نقاهة بعد إجراء عمل جراحي ناجح في عموده الفقريّ.

التعب كان بادياً على محيّاه وذبلت عيناه، وبدت صلعته أكثر اتساعا كما أن الشيب الذي غزا رأسه باق وكأنه حقق النصر والغلبة فبدا لمن ينظر إليه أنه أكبر من عمره بعشر سنوات تقريباً.

ساهما جلس وهو يقبض بإصبعيه على مشرب كانت السيكارة المتمركزة في أعلى رأسه ترسل أحبالاً متراقصةً من دخان مال لونه للبياض وكان يلف دورةً كاملةً في فضاء الغرفة قبل أن يغادر مسافراً

في الفضاء الواسع عبر فتحة نافذة كان لها الدور الأكبر في تلطيف الجو في هذه اللحظات.

وضع المشرب في فمه ثم مص منه بعمق مالئا فمه بالدخان الذي أبقاه قليلا ثم ما لبث أن نفثه ليغادر عبر تلك النافذة.

كرر تلك الحركة مرات عدة وهو يركز نظره على بلاط الغرفة وكأنه كان يبحث عن شيء ما.

رفع رأسه جهة سريرٍ كان يتمدد عليه وهو شاب ثلاثيني ضمّد رأسه بالكامل تقريبا بشاش أبيض، ثم نقل نظره متابعا جسده المتناسق بشكل ملفت للنظر مما يدل على أنه شخص رياضيٌّ قويُّ البنية رغم الهزال الذي أصابه نتيجة المرض

نقل نظره بشرود متفقداً محتويات الغرفة وكأنه يدخلها لأول مرّة رغم كونه قد أمضى أكثر من عشرة أيام حتى الآن

ركز نظره على باب جانبي كان يخفي خلفه حماماً صغيراً ومغسلةً ثم تابع مارّاً بطاولة ركنت بالقرب من الخزانة المخصصة لهذه الغرفة كبقية الغرف والتي كانت مكونة من ثلاث درف عُلِّق على كلِّ بابٍ مفتاح ربط بخيط قويٍّ.

بينما كان يتابع تفقده هذا أحسّ بحركة رفيق سكنه الشاب ، فالتفت نحوه متحققا إن كان قد استيقظ أم لا.

فتح ذاك الشاب عينيه ونظر نحو أبي ديب مسلّماً بصوت خافت ردّ عليه السلام بحركة من يده. وبادره قائلاً:

- صح النوم. كيف الحال هل نمت جيّداً
- صح بالك. الحمد لله على كل حال
- هل أساعدك بشيء
- لا شكراً أبا ديب. قالها وهو يمسح عينيه بمنديل ورقي ثم تطلّع نحو أبي ديب مستفزّاً:
- ألم تنم بعد؟
- نعم لقد غفوت قليلاً ثم تمشيت قليلاً وكنت قد عدت منذ وقت قصير.
- ممتاز أهنئك من كل قلبي كون حالتك باتت أكثر قرباً من الشفاء
- شكراً سلطان.العقبى لك إن شاء الله.
- إن شاء الله وإن كنت أظن أن ذلك لن يتحقق
- تفاءل يا رجل لا شيء صعب على الخالق

" ونعم بالله .... " قالها وهو يدير رأسه إلى جهة معاكسة كمن يداري وجهه.

عندها انتبه أبو ديب لذلك قرر تغيير مجرى الحديث وموضوعه لينبري قائلا:

- هيا صحصح يا رجل، كون الفترة التي تمضيها نائما أشعر خلالها بملل قاتل.
- ألهذا الحد أصبح وجودي مسلياً لك؟

- ليس مسليا فحسب بل وجودك بحد ذاته شيء ممتـــع وخـــصوصاً عندما تكون صاحياً ومتفائلا.
- أنا أعرف ما يدور برأسك حق المعرفة
- ما هو يا شاطر؟....قالها مازحاً.
- تريد منّي أن أسرد عليك بعضاً مغامراتي.
- نعم لقد كان ما خمنته صحيحاً.
- ألم تمل تلك الحكايا يا رجل
- لا أبداً بل كلّي رغبة في سماع المزيد منها
- ألهذا الحد هي شيقة لك؟
- بل قل لأكثر من ذلك كون ما تقوم بسرده يداعب أطراف خيـــالي مدغدغاً محاولاً حثها على الاستيقاظ.

أتم عبارته وهو يحاول مساعدة سلطان أثناء قيامه بتعديل جلسته بعض الشيء إذ رفع الوسادة قليلاً ليمكنه من إسناد ظهره عليها. كعادته عندما كان يريد أن يشارك من يحضر لزيارتهم الحديث.

- هكذا تمام. أليس كذلك
- نعم عافاك الله يا أبا ديب
- هز رأسه مبتسماً لأنه علم أن أبو ديب لا يستكين حتى يُنفذ ما كان قد عزم عليه.
- اسمع يا سيدي ....

- ٢ -

" بينما كنت أسير في دروب الجبل الوعر مبتعداً عن المناطق المأهولة متوارياً عن أعين رجال الأمن وأتباعهم من الفضوليين من أبناء قريتي وكذلك من أبناء القرى المجاورة.

وكان الوقت قد تجاوز العصر بقليل وكنت قد مشيت وقتاً طويلاً حيث نال مني التعب مستعينا بذلك عليَّ بالجوع والعطش،لذ توجّب عليَّ أن أجد مكاناً آوي إليه ليلتي هذه قبل حلول الظلام الذي بدأت طلائعه تَهِلُّ على الكون إذ بدأت لسعات البرد القادمة مع النسمات الرطبة الآتية من فوق البحر توخز جسدي دافعة إيّايَ كي أغذّ السير، والبحث عن ذاك الملاذ.

وبالفعل وبعد بحث مضني عثرت على مغارةٍ بابها قليل الارتفاع تتصدّر جرفاً صغيراً. قصدتها مسرعاً. وأنا أحث السير سمعت صوت خشخشةٍ بين الشجيرات التي تحفُّ الدرب الموصل لتلك المغارة. من اليمين، زاد الصوت قليلاً لينشقّ ستار الأغصان هناك قاذفاً بحيوان. دققت فيه فعرفته، لقد كان ضبعاً ومن حركته تيقّنت أنه كان يقصد تلك المغارة لأجل هذا قررت أن أسبقه إليها.

وبالفعل تمكّنت من الوصول قبله. وقفت ببابها وبعد أن استدرت والبندقيّة مصوبة نحوه آملاً في أن أخيفه كوني لا أرغب في قتله.

لبثت هكذا فترةً لا بأس بها والبندقيّة مصوبة إليه. ثم أخذت بالسير خلفاً حتى صرت في مدخل المغارة.

عندها جلست متحفزاً ومراقباً ذاك الحيوان الذي تسمّر في مكانه فترةً فقد أبّانها الأمل في استعادة مغارته، عندها انتصب على قوائمه واستدار مغادراً من حيث أتى بعد أن رمقني بنظراتٍ قرأت فيها وعيداً كان قد بيّته في نفسه.

راقبت المكان لفترة إلى أن تأكدت من أن الخطر قد زال تماماً عندها دخلت المغارة وقمت بتنظيفها من بقايا كان قد تركها ذاك الحيوان.

تناولت طعامي واستلقيت بعد أن قمت بسد الباب قليلاً بقطع حجارةٍ كانت ملقاةً جانب الباب، واستسلمت لنومٍ عميق أيقظتني منه أشعّة الشمس التي اخترقت باب الكهف المتّجه شرقاً حاملةً في طيّاتها دفئاً لذيذاً أعاد النشاط والحيويّة لجسدي المنكمش من لسعات برد ليل تلك الجبال العالية. "

– نمت هكذا يا رجل؟

– نعم وبعمقٍ أيضاً.

– ألم تخف من أن يهاجمك ذاك الحيوان الغادر وأنت نائم ؟

– لا لم أخف أبداً كوني قمت بسدّ الباب بعض الشيء بتلك الأحجار التي ستنذرني إن تمّ تحريكها، وبنفس الوقت ومن خلال خبرتي التي اكتسبتها خلال حياتي في رحاب هذه المناطق كنت متأكّدا من أنه لن يقدم على إيذائي لأنني لم أقم بإيذائه.

– وهل يؤمن جانب حيوان كهذا؟

- بالطبع لأن غريزة الحيوان تدلّه فيخاف حيث يجب أن يخاف، لذا قرّر المغادرة.
- لا أدري لكني لو كنت مكانك وتعرّضت لما تعرّضت أنت إليه لمتّ فزعاً.
- سلّم أمرك لله يا رجل فلا أحد يموت دون أن يكتمل عمره.
- ونعم بالله لكن الحياة حلوة والروح غالية كما يقال، عذراً على المقاطعة.
- لا بأس. المهم بعد أن استيقظت تماماً قمت من مكاني إلى حيث وضعت كيس زادي الذي حوا مطرة ماءٍ صنعت من الكتّان، شربت قليلاً من الماء وتناولت بضع لقيماتٍ وغادرت المكان بعد أن قمت باستطلاعه جيّداً وقصدت الدغلة المجاورة آملاً أن أحظى بطريدة تكون وجبة لغدائي.

.....

بعد غياب شمس ذاك اليوم دخل مستخدم الغرفة وهو يدفع أمامه عربة الطعام حيث وزّع الحصص المقررة لكل مريض وذلك بناء على جدولٍ كان يضعه أمامه على حافة العربة.

تناولا طعامهما بهدوء تام ومن ثم حضر مستخدم آخر حمل الأوعية الفارغة وغادر ثم تلاه مستخدم آخر قام بشطف وتنظيف الغرفة وملحقاتها.

تمّ كل ذلك دون أي احتكاك بينهما وبين كلّ من دخل الغرفة.

هدأ الجناح بعد أن لزم كلّ مريض سريره وكذلك المستخدمون عاد كلٌّ منهم إلى مقرّه بعد أن أتمّ واجباته

تسامرا قليلا وتبادلا أحاديث ذات طابع عام إلى أن داعب الكرى جفنيهما واستسلما لنوم هادئ.

- ٣ -

عصراً جلس أبو ديب قرب النافذة وباشر بلف سيكارته البتـــراء التي أشعلها وهو ينظر غربا بشرود حيث الأفق الذي لامس قمة جبـــل حدّ العاصمة من جهتيها كمارد تربع وفتح ساعديه ليضم وليده الصغير، ووسط هذا الجو الذي كان يثير شجناً حبيساً في النفس لروعته.

تلفت نحو زميله الذي كان يستمتع بقيلولة قصيرة بعد وجبة غذائه والتي تبعها وجبة دواء زخرت بأقوى أنواع المسكنات، ركّز نظره عليه متسائلاً بينه وبين نفسه:

– لا شيء في ملامح هذا الشاب توحي على أنه إنسان طائش أو متهور أو عدواني رغم ما تمتعت بها نفسه من روح التمرّد والمشاكسة.

دقق النظر في محيّاه وهو نائم وقال:

– كل شيء يدل على أنه إنسان طيب وعلى الأغلب ينتمي لبيئـــة صالحة، فكان وجهه مستديراً وسحنته بيضاء مائلـــة للـــصفرة نتيجـــة المرض الذي ألمَّ به بعد كلِّ ما كان قد مرّ به من إشكالات ومطـــاردات وسجن كلها تجمعت متحدة ضدّه محيلة إياه إلى حيث هو الآن.

نظر إلى رأسه المضمد كلّياً بالشاش الأبيض حماية لجرح نـــتج عن عملٍ جراحي استؤصل من خلاله ورم خبيث بدأ ينتشر في دماغه.

لقد عاش في ربوع قرية من قرى تلك الجبال المطلّة على البحر والمتصلة بذاك الساحل البديع.

كانت أسرته كباقي الأسر في ذاك المحيط فقيرة الحال فوالداه يعملان في زراعة الزيتون وبعض من أنواع الحمضيات بالإضافة لتربية بعض من رؤوس المواشي.

وكان لذاك الجو تأثيره الواضح في تشكيل البيئة العامة لكل سكان تلك المناطق فرحابة المكان وكثرة مجاهله وغناه بشتى أنواع الطيور والحيوانات البرية وكذلك ما كانت تزخر به تلك الجبال من أشجار مثمرة وبرية مما خلق حافزاً يدفع الجميع دفعاً للقيام بنزهة ما تلبث أن تتحول إلى مغامرة كان صغار السن هم أبطالها في الغالب لأن الكبار قد ملّوا تلك المغامرات ناهيك عن مشاغلهم الكثيرة.

وكان سلطان قد عاش حياة الحرية تلك بكل معانيها مع أقرانه من أبناء القرية الذين كانوا يقومون برحلات يسبرون أغوار ومجاهل تلك الجبال العالية متصيدين الطيور والأرانب البرية بالإضافة لما كانوا يقطفونه ويتناولونه من ثمار برية، وما أن يحلّ عليهم التعب حتى يتحولوا إلى أقرب بركة ماء تشكلت طبيعيا من مياه الينابيع المنتشرة بكثرة في تلك المناطق.

وكانت مغامراتهم هذه تدوم حتى المساء فيكون التعب قد نال منهم ما نال وما إن يبتلع أحدهم آخر لقيمة من عشائه حتى ينهار مستسلماً لنوم عميق وهو يحلم بمغامرة يوم الغد.

مرت السنون وكبر الأصدقاء وصاروا شباناً، كلفوا رسميا للخدمة الإلزامية إذ تم استدعاؤهم لاستلام دفاتر خدمتهم التي حدد معها موعد التحاقهم بشعبة تجنيدهم.

وفي الموعد المحدد تجمعوا مع أمثالهم حيث اقتيدوا إلى مراكز التجمع ليتم فرزهم وتوزيعهم على الوحدات المختلفة.

وكان من سوء حظهم أن فرّقهم ذاك الفرز حيث وزعوا على قطعاتٍ متباعدة المكان جغرافياً وكان من نصيب سلطان قطعة متمركزة على أطراف البادية.

وبعد التحاقه بتلك الوحدة تسلم مباشرة عهدته الشخصية والتحق بجماعة كان يقودها ضابط صف سيء السمعة ومن هنا بدأت فصول مأساته لأنه وقع تحت قيادة هذا الشخص المعقد والحاقد على نفسه قبل غيره إذ أخذ يفرغ غيظه وغله على عناصر جماعته بشكل عام وخصص أذاه الأشد على سلطان كونه استقرأ فيه روح المشاكسة والمناكفة مذ رآه لأول مرة . حيث شدد عليه الحصار كثيرا وقام بتكليفه دون غيره بأعمال السخرة المهينة.

تحمل سلطان كل ذلك في البداية ولكن لكل شيء حدّه حتى الصبر والتحمل إذ اشتد ظلم ذاك الرجل عليه لدرجة أخرجته عن طوره حيث قام بشده من سترته ودفعه بقوة إلى الوراء كاد أن يرميه أرضاً وتقدم نحوه رافعا قبضته في وجهه مهددا.

عند ذلك تدخل بعض من زملائه وفرّقوا بينهما الأمر الذي نتج عنه عقوبة بالسجن أمضاها في غرفة ضيقة تفتقر لكل مقومات الحياة الكريمة الأمر الذي صدمه كثيراً فكيف يصير إلى هذه الحال وهو الطير الطليق الذي طالما اعتبر الجبل ملعبه ومياه الينابيع حمّامه والأرض والسماء فراشه ولحافه كل ذلك زاد من شحنة الغيظ والحقد على ذاك الرجل.

أنهى فترة عقوبته تلك وعاد ليلتحق بجماعته آملاً أن تسير الأمور بشكل عادي وطبيعي إلا أن ذاك الرجل ما لبث أن عاد لسابق عهده من حيث تخصيصه لسلطان بالإهانات والعقوبات وغيرها مما يثير في نفس كل من يملك أدنى حد من الكرامة روح المعارضة والمشاكسة،فما بالك بمن كانت روحه بتكوينها هكذا، وبالرغم من ذلك تحمل سلطان كل شيء تمريراً للأيام عسى أن تتغير الأحوال.

إلا أن غلّ ذاك الرجل المعقد قد زاد وشدة حقده قد تعاظمت لدرجة صارت كل أفعاله وأقواله التي يوجهها لسلطان تنم عن ذلك بشكل صريح وواضح، وسلطان يتحمل كل شيء الأمر الذي دفعه ليزيد من حدة غلّه محولا تلك التوجهات والأوامر إلى إهانات شخصية طوّرها لتصبح أبعد ما تكون عن كل لياقة وخارج نطاق الأنظمة والقوانين مما دفع بسلطان ليقوم وكرد فعل على إحداها بحركة عنيفة حيث ألقى ضابط الصف ذاك أرضاً وأخذ يكيل له لكمات كادت أن تودي بحياته لولا تدخل من كان حاضراً من زملائه وبعض ضباط

الصف من قادة المجموعات إذ قاموا بالفصل فيما بينهما حيث نُقِل ضابط الصف إلى مقر الوحدة الصحية، أثناء ذلك تم إبلاغ سلطان بوجوب مثوله أمام قائد الوحدة في اليوم التالي، عندها توجّه نحو خيمته وبدّل ثيابه وحمل بندقيّته وفرّ عبر كوّة في سور القطعة.

وصل قريته عبر الحرش الذي يحيطها من زاويتها الشمالية الغربية متجنبا عبور الطرقات الرئيسية حيث لبث هناك إلى أن حلّ الظلام وعندها تسلّل إلى المنزل عبر سور التحويشة قليل الارتفاع، عندها علم من أهله أن دورية من الشرطة قد أتت للبحث عنه كونه قد فرّ وهو يحمل بندقيّته. وذلك خشية أن يرتكب أية حماقة لذا أبلغت أهله أن عليهم ومن واجبهم إقناعه بتسليم نفسه وإعادة السلاح فوراً وقبل مرور الوقت تخفيفاً لعقوبته قدر الإمكان إلا أنه فضّل حياة الحرية على السجن.

غادر المنزل بعد أن تزود بالطعام و ثياباً بديلة وبعض المال قاصداً الجبل ملعب طفولته وصباه ولوح ذكرياته الخالدة. ومن ذاك الحين بدأت حياة الترحال والتنقل التي عاشها لاحقاً فكان يأكل من ثمار الأشجار البرّية ومتصيداً طرائداً كان يلقاها صدفة أثناء ذلك.

وعندما كانت الطبيعة تبخل عليه بعض الشيء كان يسطو على دواجن القرى التي كان يمر بها والتي كانت تسرح كعادتها ساعية لرزقها وكان من نتائج كل ذلك أن بدأ الناس يلهجون باسمه ويتناقلوا

أخباره حتى صارت سيرته على كل لسان في قريته وفي القرى المجاورة.

استغل بعضاً ممن لا ضمير لهم فبدؤوا بعمليات سطو على مواشي ودواجن ومحاصيل الناس وغيرها من ممتلكات يمكن بيعها، وكل ذلك كان يلقى على عاتق ذلك الفراريّ فبذلك كثرت التهم الموجهة إليه وبالتالي توسعت دائرة البحث عنه إذ كان كل من يفقد أي حاجة يذهب ويقدم بلاغا والمتهم جاهز "سلطان".

ونتيجة لكل ذلك تكثفت عمليات البحث عنه إذ تطوع الكثيرون لذلك الأمر وبالأخص عندما تم تخصيص مكافأة مالية كبيرة لمن يعتقله أو يدلي بأية معلومة تدل على مكانه. الأمر الذي دفعه للتوغل أكثر في أعماق تلك الجبال معتمداً السكون نهارا والتجوال ليلاً.

.....

– ٤ –

مص أبو ديب من مشربه كمية من الدخان ملأت فمه حيث ابتلع قسماً منها ونفث الباقي عالياً وهو يرمق سلطان بعينه وقال محدّثاً نفسه:

– لقد ذكرتني بابن أختي منهل رغم الفارق بالسن فيما بينكما إلا أن كلاكما يتمتع بنفس روح المشاكسة والتحدي.

اتكأ على الطاولة بعد أن قام وجلس على كرسي ركن جانبها وشرد متذكراً بعض سجايا ونوادر منهل وبالأخص طبيعة علاقته بأسرته المكونة من أب يعمل موظفاً حكومياً بالكاد كان مرتبه الشهري يسد رمق الأسرة ومن أم عاقلة هادئة مطيعة بالإضافة لثلاثة صبيان أكبرهم أحمد الذي كان بالإضافة لهدوئه ووعيه عصامياً جداً أما الثاني فكان منهل ذاك الصبي الذي يندر وجود قرين له أما بالنسبة للصبي الثالث مسعد الذي كان يحمل صفات تشبه إلى حد كبير صفات أخيه الأكبر أحمد رغم ما كان يتمناه بينه وبين نفسه ألا وهو اكتساب شيء من مزايا أخيه منهل.

بالإضافة لوجود بنتين الكبرى كانت في السابعة من عمرها ولأنها الصبية الكبرى كما كان يطلق عليها، فقد تحملت العبء الأكبر من مسؤوليات البيت إذ توجب عليها المساعدة في كل أعمال المنزل بالإضافة لاهتمامها بأختها الصغرى التي كانت لا تزال في سن الرضاعة.

أما الشخص الآخر الذي كان يقاسمهم سكناهم وحياتهم ومعيشتهم هي الجدة، وكانت عجوزاً تجاوزت السبعين عاماً بعدة سنوات قامتها متوسطة الطول رقيقة البنية مع انحناءة بسيطة في أعلى الظهر، فمها رقيق الشفتين متوسط السعة نظرتها حادة تنم عن قوة شكيمة، وكانت تعتمد على عكاز أثناء سيرها، وجهها طويلاً بعض الشيء أنفها مدبباً، وكانت تعتمر عصبة من الصوف الموشى بالفضة، ذاك الزيّ التقليدي لنساء ريفنا الجميل بالإضافة لثوب فضفاض من الجوخ الأسود مع سروال مكشكش عند أخمص القدمين.

ونتيجة لمعاملة ابنها رب الأسرة والاحترام الشديد لها صارت صاحبة الكلمة العليا في كل مجريات حياة الأسرة بشكل عام.

كيف لا وهي القابلة الوحيدة في تلك المنطقة إذ على يديها ولد الجميع ولكل ما تقدم كانت تحتل كبرى غرف البيت المكون أصلاً من ثلاث غرف وبناء مجاور سقفه من ألواح الصفيح يستخدم كإسطبل لعدة رؤوس من البقر كانت أم أحمد تعتني بها من حيث تقديم العلف والتنظيف الذي يلي عملية الحلب المرهقة والتي تتم يدوياً مساهمة منها في تحمل بعض من أعباء الحياة.

- ٥ -

استيقظ سلطان إثر نوبة سعال ألمّت بأبي ديب والتي نتجت عــن شرقة دخان من سيكارته أثناء شروده.

" مساء الخير أبا ديب.. " قالها سلطان وهو يحاول أن يــستوي في جلسته متلمساً رأسه من فوق الضمادات إذ كان الألم في أدنى حالته نتيجة لما كان يتناوله من مسكنات قوية المفعول والتي كانت قد مزجت مع المصل المعلق بوريده.

مدّ يده ليصبّ قليلاً من الماء في كأس شرب منه وأعاده وهو يسأل:

- كم الساعة الآن؟
- السادسة والربع..قالها أبو ديب وهو ينظر في ساعة يده.
- ألم يحضروا وجبة العشاء بعد؟
- كلا لم يحضروها.
- ما شي الحال عسى الله أن يمرر هذه الأيام على خير.
- إن شاء الله تكون كذلك.
- لا أظن يا أبا ديب.
- سلّم أمرك لله يا رجل.
- ونعم بالله.

وبعد قليل حضر المستخدم وهو يدفع أمامه عربة الطعام.

بعد أن تناولا عشاءهما قام كل مستخدم بواجباته. دام ذلك لبعض الوقت...ما لبث أن حلّ هدوء رائع يدعو للاسترسال وكان يقطعه بــين

الحين والآخر بعض حركات يقوم بها المرضى تحريكاً لأجسامهم بعد طول استلقاء.

توجه أبو ديب إلى سلطان قائلاً:

– أتعلم يا سلطان بمن كنت أفكر قبل استيقاظك؟

– بمن؟

– بابن أختي منهل.

– لم خطر على بالك منهل هذا دوناً عن غيره؟

– أنت من ذكرني به.

– أنا!وما هي علاقتي بالأمر؟

– كون ما يقوم به من تصرفات تشبه إلى حدٍّ كبير ما كنت تقوم به أنت.

– كيف ذلك؟هات أخبرنا.

– أراك قد قلبت الأدوار.

– هذه حال الدنيا.

– هذه حال الدنيا...أم أنك قررت أن تكون مستمعاً؟

– الاثنين معاً.لأنني أحب أن أراك تسرد قصة ما لأرى تعابير وجهك أثناء ذلك.

– هكذا إذاً ...

– نعم بالإضافة لأنك قد أثرت فيَّ الفضول كي أعرف شيئاً مما كان يقوم به منهل هذا.

- معك حق. في النهاية نحن نتسلّى إن تكلمت أنت أم أنا.
- رحم الله أباك لذا دعنا نتسلّى....هات أتحفنا.
- حاضر يا سيدي لأرى ما هي آخرة الأمور معك.
- خبرنا بدون هذه المقدمات من فضلك.
- اسمع يا سيدي:

ذات يوم طلب منهل من والدته بعض النقود ليشتري كأقرانه من الدكان الوحيد في القرية وللمصادفة كانت آن ذاك لا تملك شيئاً مما طلب بالإضافة لانشغالها بأعمال المنزل.

ألح عليها مكرّرا طلبه..عندها ردّت عليه:

- انتظر حتى يعود والدك.
- لا أريد الانتظار أحتاج المال حالاً.
- انتظر كما أقول لك لأني لا أملك شيئاً الآن.
- لا علاقة لي أريد المال حالاً وإلا...

عندها أدارت له ظهرها متابعة عملاً كانت تحاول إنجازه لذا قام باستدارة وقصد الغرفة الثانية حيث تنام أخته الصغيرة .

حملها وصعد بها إلى سطح البيت واقترب من الحافة مهدداً بإلقائها إن لم تعطه ما يريد الأمر الذي أدى بها ومن كثرة صراخها لأن تفقد وعيها وسط صراخ كل من كان في المنزل وعلى رأسهم الجدة التي كانت تصيح به وهي تلوح بعكازها.

وصل صوت صراخهم ذاك لمسامع جيرانهم حيث أتى جـــارهم أبو علي مسرعاً وصعد السطح وأنقده خمس ليرات وأخذ الطفلة ونزل.

استغل منهل انشغال الجميع بوالدته التي أعادها لوعيها كأس ماء قامت برشه على وجهها جدته فتسلّل هارباً دون أن ينتبه إليه أحد.

– هذا شيطان وليس بولد.

– هو كذلك ولو أروي لك بعضاً من نوادره لقلت غيـــر ذلـــك ، ورغم كل هذا فأنا أحبه ولا أكن له أية ضغينة نتيجة لما يقوم به مـــن تصرفا شاذة كونه ولداً شهماً خدوماً ذا نخوة عالية إذ كان يلبي أيّ طلبٍ ولأيّ شخص كان حتى وإن كان لا يحبه شخصياً

– ألهذا الحد كان مميزاً؟

– نعم وأكثر من ذلك كونه كان معروفاً للكبار والصغار في القرية.

– ما الذي فعله غير ذلك؟

– أشياء كثيرة وسأسردها عليك تباعاً كما قال الإعرابي:

"نحن هنا وحيدان تحملني وأحملك"

– معك حق فلنتبادل الأدوار إذاً.

– موافق.

– إذاً تابع كون الدور الآن يقع عليك.

– حاضر ما الذي ينتظرنا إذ أننا نمرر الوقت.

- ٦ -

" ذات يومٍ كلّف والده شقيقه أحمد بأن يحضر الخبز من فرن القرية ومعنى ذلك أنه يتوجب عليه الاستيقاظ باكراً كي يحتلّ دوراً في طابور سيصطف أمام كوة الفرن كونه الفرن الوحيد في القرية وثانياً لأن معظم الأسر باتت تعتمد عليه في تأمين تلك المادة الأساسية لأنها تركت تلك العادة الرائعة ألا وهي تحضيره في المنزل حيث التنور وجلساته الشاعرية ورائحة الخبز الطازج التي تثير في النفس إحساساً لا يمكن وصفه

لم يذهب بمفرده بل قام بإيقاظ شقيقه منهل الذي كان قد توسّل إليه كثيراً أن يفعل ذلك قبل أن يخلد إلى النوم لأنه يحب تلك التجمعات إذ يندسّ بين الناس ليجرّب فيهم بعضاً من مقالبه الطريفة."

– ها .. أكمل لقد شوّقتني لأن أعرف ما الذي سيفعله ذاك الشقيّ.

– اسمع إذاً...

" وصلا لأمام مبنى الفرن وكان قد سبقهم إلى هناك جمهرة كبيرة من أبناء القرية وكذلك بعض ممن يقطنون المزارع المنتشرة حول القرية

وعلى الفور ترك أخاه يقف ضمن الطابور واندس بين الجميع مقرفصاً بين أقدامهم و أخذ يربط شرائط الأحذية ببعضها ومن ثمّ يقوم بتعليق طرف عقال هذا بمسمار أو أي نتوء في الحائط وما إن يتحرك الحشد حتى يهوي بعضهم أرضاً ويطير عقال ذاك وتبدأ عندها

المطاردات المترافقة بالقهقهات الممتزجة بالشتائم والسباب على ذاك الولد الشقيّ.

وكانت الشكاوى تتوارد على مسامع والده الذي كان يوقع به أشد العقوبات والتي جربت بكافة أنواعها وأشكالها وأساليبها بدأً من الصفع حتى الكي بالنار والتي لم تكن تجدِ نفعاً على الإطلاق لأن الطبع غلب التطبع."

– ألم يحاول المحيطون به توعيته ونهيه عن كل هذه التصرفات؟

– لقد أعيتهم السبل إذ لم يتركوا وسيلةً إلا وجربوها وبكل أسف كان مصيرها الفشل بدأً من الترغيب حتى الترهيب.

– ألهذا الحد كان متمرّداً؟

– قل أكثر من ذلك.

– ما الذي فعله غير ذلك؟

– " ذات يوم وبعد أن قام وشقيقه أحمد بشراء الخبز من الفرن وكان وقتها الطابور قليل العدد لذا عادا فوراً وفي طريقهم خطر له خاطر إذ قال لشقيقه:

– ما رأيك لو ندخل بستان عمنا محمد ونأكل الخيار والباذنجان؟

– لا مانع ولكن أحذرك من العبث.

– أعدك بأن لا أقوم بأي شيء مزعج.

– طيب تعال معي....

دخلا الحقل وكان قد روي ليلاً لأن كل أرضــيّته موحلــة..لــم يردعهم ذلك عن الدخول حيث شرعا بقطف ثمار الباذنجــان والخيــار والقثاء بينما قام منهل بقطف تلك الثمار فيأكل قسم منهــا ثــم يلقيهــا أرضاً.. لم يكتفِ بذلك بل قام بقلع الشجيرات وتكسير بعضها إلــى أن أفرغ شحنة الشيطنة المعتمرة داخله. "

– وبعد ذلك ما الذي حدث؟

– " بعد أن أنهيا ما جاءا من أجله غادرا بثيابٍ وأقدام موحلة ذاك الحقل حيث اندسّ كل منهما في فراشه الذي كان لم يزل في مكانه فوق سطح البيت بكل أوساخه.

لم يستفيقا إلا رأسهما وقد رفعا بمقدار شبر عن الوسادة.

تلفتا وإذ بعمهما محمد يقف فوقهما ويشدهما من شعرهما، عندها صاح منهل قائلاً:

– عمي انتظر لحظة اترك رأسي وسأروي لك ما حدث بالتفصيل.

وبشكل لا شعوري وهو ينظر إليه وبلمح البصر انتفض وقام من مكانه وبأقصى سرعة ركض بضع خطوات ووضع كفيه علــى حافــة السطح ودلّى بنفسه ثم قفز وما إن لامست قدماه الأرض حتى قام وفــرّ هارباً عبر سور التحويشة وسط اندهاش عمه وذهوله إذ فاجأتــه تلــك الحركة. عندها التفت نحو أحمد وقام بصفعه معنفاً إيّاه باعتبــاره الأخ الأكبر إذ توجّب عليه ردع أخيه عن ذلك. "

– إذاً هرب هو في حين وقع شقيقه بالفخ.

- ٧ -

صباح اليوم التالي وبعد أن أحضرت لهما وجبة الإفطار حضر المناوبون من مساعدي الأطبّاء إذ قاموا بتغيير الضمادات وقياس حرارة كل منهما وكذلك تفقدوا ما كان قد خصص من كل منهما من أدوية ومن بعدها نظفت الغرفة وملحقاتها قبل عيادة الأطباء لمرضاهم في الجولة التقليدية المعتادة.

وبعد أن غادر الجميع استلقى أبو ديب وسرح بنظره ناحية الجبال البعيدة مفكراً

لفت ذلك نظر سلطان فقال:

- بم تفكر يا أبا ديب؟

- لا شيء محدد بل أبحرت بأفكاري إلى حيث القرية التي داعبني الحنين إليها ولأسرتي...يا ترى كيف حالهم جميعاً؟...هل أمورهم تسير بشكل حسن؟...هل وضعت البقرة الشامية حملها؟.....هل جلبوا السماد والبذار من مستودعات الجمعية الفلاحية؟....وما يشغلني أكثر من كل ذلك هو وضع ابن عمي أبي ياسر الصحي كوني تركته يتعافى من أزمة قلبية كانت قد أنمت به، وكذلك زوجتي هل يطيعها الأولاد؟ وإن كنت أظن عكس ذلك.

- لماذا تقول ذلك؟

- لأني لو كنت مكان أيّ منهم لعارضتها كونها ملحاحاً في طلبها لدرجة تدفع بالشخص دفعاً لذلك.

وهم بغمرة حديثهم هذا حضر شقيق سلطان "نادر" وكان عصبي المزاج ملولاً بعض الشيء وجلس بقلق وكأن هذه الزيارة قد فرضت عليه فرضاً فما أن استقر في جلسته حتى بدأ يكيل لأخيه سيلاً من الاتهامات والتوبيخ محملاً إياه مسؤولية كل ما حلّ بالأسرة من مآس من يوم فراره حتى مرضه مروراً بسجنه حيث اضطرت الأسرة لبيع آخر قطعة أرض كان ينوي بناء منزل عليها.

كل هذا حدث وسلطان يحدّق بأخيه الصغير الذي طالما حمله وداعبه واعتنى به عندما كان صغيراً....دون أن ينطق بأية كلمة.

أنهى نادر موشحه وغادر المكان تاركاً أخاه بحالة يرثى لها إذ رفض الطعام نهائياً بقية ذاك النهار بل وطلب من أبو ديب بأن يقوم بتوزيع ما كان قد أحضره شقيقه من حاجيات على المرضى والمستخدمين.

- ٨ -

مرّ ذاك اليوم بطيئاً مملاً فلا جديد وكذلك لا زوّار لذا ما إن حلّ المساء وبعد أن هدأ المكان كعادته في مثل هذا الوقت من كل يوم حتى توجه أبو ديب لسلطان بالكلام بعد أن استلقى على سريره قائلاً:

- إيه يا سيد سلطان.
- خيراً يا أبا ديب
- الأمر لا يحتاج لكل هذا الكرب الذي أنت فيه.
- وهل ما حدث هذا النهار بالشيء القليل
- معك حق ما حدث مزعج جدا رغم كل ذلك أنت الأكبر لذا عليك تحمله واستيعابه
- صحيح كل ما تقوله لكن من الأفضل أن لا يصدر عنه ذلك وهنا بالذات.
- الذي حدث صار وانتهى لذا لا تفكر به نهائياً فأنا قد نسيته تماماً.
- الأمر لله وهل باستطاعتي فعل أي شيء غير ذلك.
- هكذا تعجبني.
- حسناً
- المهم لا تضيع الوقت وتهدره سدى
- ما الذي تريده ؟
- أن تنفذ وعدك وتقوم بما يتوجب عليك من ذاك الاتفاق

- الله يا أبا ديب كم أنت فارغ البال.
- أنا طبيعتي هكذا أعطي لكل مقام مقاله.
- أحسدك على طبيعتك هذه فأنا لا أستطيع القيام بذلك لأني إذا ما شغلت بأمر ما أركز كل جهدي عليه حتى أنهيه تماماً ثم ألتفت إلى غيره.
- لكل شخص طبيعته. هكذا خلقنا الله جميعاً لذا هـــات زودنـــي بدررك.
- حاضر سيدي.

- ٩ -

بينما كنت أسير في مسالك الجبل الوعرة وكان الوقت قد تجاوز العصر بقليل فالشمس بدأت تغرب وأخذت العتمة تزحف على المكان بحيث لم يبق من النهار سوى غسقٍ أحمر غبش يلامس البحر تماماً ولبس الجو عباءة رمادية كتمت على نفس الجبل دافعة أمامها رطوبة ثقيلة الظل ليصبح معها التنفس غاية في الصعوبة الأمر الذي كان يزيد على متاعب الإنسان ضغطاً إضافيّاً إذ صرت أجرُّ قدميَّ جرّاً وأنا أسير.

وأنا بحالتي هذه وإذا بي أسمع رجع حركة بين الشجيرات القليلة الكثافة التي كانت تحد ذاك المسلك من جهته اليمنى.

توقفت وأصغيت السمع قليلاً عندها توقف الصوت نهائيا...تابعت سيري مجدّداً وإذ بالحركة تنطلق ثانيةً عندها أيقنت أن هناك حيواناً يرافقني ويراقبني متحيّناً الفرصة للانقضاض عليّ، وعلى الأغلب هو ذاك الضبع اللعين الذي كنت قد استوليت على مغارته سابقاً

وبكل حذرٍ تابعت تقدمي وأنا أمسك ببندقيتي الملقمة تحسبا لأي طارئ، وبعد برهة اختفى الصوت نهائيا حيث فقدت كلّ أثرٍ لذاك الحيوان

توقفت وتلفت حولي متفقدا المكان إلا أني لم ألحظ شيئاً لبثت في مكاني دون أية حركة وأنا أنصت علّني أسمع شيئاً، وعندما لم ألحظ أي شيء فكرت بيني وبين نفسي بأن ذاك الحيوان قد قرر الكف عن ملاحقتي نهائياً...أراحتني تلك الفكرة لذا ابتسمت وتابعت سيري قاصداً الكهف.

وقبل وصولي ببضع خطوات شعرت أنني بحاجة للتبوّل، وقفت وتلفت حولي ثم أسندت البندقية على صخرة كانت بالقرب مني. انحرفت قليلا عن المسلك كي أريح نفسي ،

وما أن أدرت ظهري حتى شعرت بشيء يشبه هبوب الريح بين أشجار يابسة وبجسم يحسُّ بيّ بسرعة فائقة كسيّارة سباق مرّت بالقرب مني دون أن تلمسني. تماسكت ونظرت أمامي متابعا ذاك الشيء وإذ بي أجد ذاك الضبع يجلس أمامي على مؤخرته وعلى بضعة أمتار مني وهو يحدق بي.

رتبت ثيابي وانحنيت لألتقط حجراً أهدده بها ريثما أصل إلى تلك الصخرة وبالتالي إلى البندقية، وما إن استقمت حتى قام وهرب مبتعداً. وصلت إلى البندقية وتابعته بنظري حتى توارى بين الأشجار. دخلت الكهف وكلي تصميم على قتل ذاك الحيوان الغادر. ومن هذه اللحظة أخذت أتابعه وأراقبه راصداً تحركاته إلى أن حددت خط سيره من مغادرته الحرش حتى عودته من جولاته التي كانت تصل إلى أطراف القرى المجاورة.

وفي يوم حسمت أمري وعزمت على التخلّص من ذاك الحيوان اللعين.

جهزت عدتي وانتظرت قدوم المساء، وما أن حلّ الظلام حتى حملت بندقيتي بعد أن لقمتها ونزلت قاصداً الطريق الذي يسلكه عادةً.

اخترت صخرة كبيرة واستخدمتها مسنداً لظهري حماية لنفسي من غدر ذاك الحيوان وأمثاله. مكثت فترة من الزمن راقبت خلالها الطريق المنحدر نحو القرية من أعلاه حتى نهايته فلم ألحظ شيئاً.

وبعد فترة من الانتظار والترقّب بدأت تصل إلى مسامعي رجع حركة تدب على الطريق....أنصتُّ مدقّقاً ومركزاً نظري نحو مصدر الصوت. وأنا بقمة انشدادي وتحفزي وإذ بي أرى في قلب تلك العتمة نقطتين تلمعان وتتجهان نحوي...قلت محدّثا نفسي:

– اقتربت نهايتك أيها الغادر ها هما عيناك تلمعان فأنا أراهما جيّداً.

اقترب الصوت أكثر عندها اتخذت وضعة الرامي جاثياً وسددت فوهة بندقيتي باتجاه الهدف مقرراً أن أصيبه بين عينيه بطلقة واحدة كي لا أثير حفيظة أهل القرية لأن الصوت ينتقل بسرعة وسهولة ليلاً.

وأنا في حالة التأهب القصوى تلك وإذ بحجر يتدحرج ويتبع ذلك همساً يدور بين شخصين عندها صرخت بأعلى صوتي:

– قف من أنت تكلم وإلا أطلقت النار .

عندها صاح أخي مناديا عند ذلك وقفت منتظراً قدومهما حتى ظهرا وكان برفقته ابن عمي "طلال" وكان كلٌّ منهما يحمل سيكارة وكانتا متجاورتين لذلك حسبتهما عينيّ الضبع.

صافحتهما وأنا أكيل لهما سيلاً من اللوم والعتب قائلاً:

– لقد كتب لكما عمر جديد

- لماذا؟ ردّ عليّ ابن عمي.
- لأني حسبت سيكارتيكما المتقاربتين عيني الضبع.
- معقول يا رجل ، وهل الضبع يسير على الطريق العام
- يسير حيث يجد طرائده
- إذاً كنت ستطلق النار فعلاً..قالها أخي.
- نعم ولولا تعثر أحدكما بالحجر لكنت فعلت ذلك.
- إذاً الفضل لذاك الحجر بأن أبقيت على حياتنا..قالها مازحاً.
- أتمزح.لولا تدخل العناية الإلهية لكنتما في عداد الأموات.
-يا سيدي الحمد لله على كل حال.

دخلنا الحرش وجلسنا على الصخرة المجاورة للكهف وتناولنا بعض الطعام مما كانوا قد أحضروه معهم. أصغيت خلال ذلك لنصائحهم المعتادة وبعد ذلك غادرا المكان بعد أن تركا لي قليلاً من المال وبعض من الدخّان.

.....

- ١٠ -

مرّ اليوم التالي عادهم خلاله بعض الزوار ناقلين لكليهما الأخبار عن الأهل والأصدقاء وبعض الهدايا والحلوى. و بعد أن هدأ المكان اتكأ أبو ديب على ذراعه ووجه كلامه لسلطان قائلاً :

- لقد ذهبت هذه الزيارات ببعض من همومنا.

- معك حق إذ فالإنسان يحتاج لمحاورة ومعاملة الناس ومجالستهم من وقت لآخر.

- صحيح ولكن لا تضيع الحديث وتهرب من الاتفاق.

- لم أتهرب أبداً ولكن لم تسنح لي الفرصة هذا اليوم.

- الآن وقد آل كل شيء للسكون وأصبح مناسباً لسماع الحكايا.

- نعم صحيح إذ لا يحلو السمر إلا ليلاً حيث يجتاح السكون الطبيعة مفسحاً المجال للمشاعر بأن تنطلق وتتحرر من عقالها.

- تمام عليك نور لذا ابدأ.

- حاضر فنحن كما تقول أنت نتسلّى.

- نعم نتسلّى حتى يفرجها الله.

- ونعم بالله.

- " كثرت عليّ الضغوط إذ بدأ الحصار يحكم على منطقة تواجدي اطّرادا مع كثرة الاتهامات الموجهة لي نتيجة لما كان يقوم بعض القذرين الذين استغلوا حالتي خير استغلال.

كما أن التعب والملل الذي كان قد حلّ بي أوصلني لمرحلة قررت فيها أن أسلم نفسي فبذلك أرتاح وأريح كل من حولي.

لكني وفي اللحظات الأخيرة تراجعت لأن الحرّية شيء رائع حيث تابعت حياتي كالعادة إلى أن أصابتني حالة من الملل قررت على إثرها أن أزور المدينة، وبالفعل وضعت البندقية في الكهف وقمت بسدّ بوابته بأحجار وبعض من أغصان الأشجار ، وغادرت الحرش قائماً باستدارة كبيرة حول القرية متحاشياً أن يراني أي شخص كان.

دخلت المدينة من الشوارع الجانبية حيث ابتعت أثناء سيري بعضاً من حاجيات كانت تلزمني من إحدى المتاجر ، وبعد أن سرت مسافة خطر لي أن أشاهد فيلماً سينمائياً كونه كان قد مضى على حضوري آخر فيلم بضع سنوات منذ أن التحقت بالخدمة الإلزامية.

ومن بين العديد من دور السينما التي كانت تزخر بها المدينة اخترت سينما الفردوس كونها تقع على أطراف المدينة تحسبا من احتمال ولو بسيط بأن أصادف أياً من رجال الأمن.

دخلت بوابة السينما وبينما كنت أعطي الموظف ثمن التذكرة ، وإذ بيدين قويتين تمسكان بيديّ الاثنتين.

التفت لأرى عنصرين من الشرطة العسكرية يحيطان بي ويشدّان على يديّ بكل قوتهما ، وبادرني أحدهما قائلاً:

– وقعت يا سلطان يا مدوّخ أجهزة الأمن ، سر معنا دون ضجة.

رضخت للأمر الواقع وسرت دون أية مقاومة حيث اقتاداني عبر شارع فرعي تحاشياً من تجمّع الناس لمجرّد أن يعرفوا بأمر القبض عليّ، لذا سرت بهدوء وكل تفكيري كان قد انحصر بشيء واحد ألا وهو الطريقة التي أتمكن بها من الهرب ومما زاد في تصميمي أنني كنت قد تأكدت من أمر هام ألا وهو أنهما ليسا مكلفين بالدورية بشكل رسمي لأنهما لم يقوما بوضع القيود في يديّ بل اكتفيا بأن أمسك كلٌ منهما بإحدى يدي وبأقصى قوة وأن لقاءهم بي كان محض مصادفة.

سرنا هكذا وبكل هدوء إلى أن وصلنا إلى منطقة من الشارع كانت محاطة ببساتين الزيتون المسوّرة، وكوني سرت بينهما بهدوء بالإضافة لمبادلتي إياهم أطراف الحديث ارتخت قبضتاهما كونهما اطمئنا إلى أني لن أقدم على أي عمل متهور.

وعند مرورنا بجانب بستان سوره قليل الارتفاع نفضت يديّ بكل قوة من يديهما ومن ثم قمت بدفعهما بكلّ ما أوتيت من قوة كلٌ باتجاه وبحرك سريعة قفزت متجاوزاً سور البستان وبأقصى سرعة قطعته وتسلقت سوره الثاني وقفزت لأجد نفسي وسط حديقة مركز الشرطة العسكرية.

حيث كان أربعة جنود يتحلقون حول طاولة ، فاجأتهم حركتي تلك إذ لم يتمكنوا من القيام بأي حركة إلا وكنت قد تسلّقت الجدار الثاني وقفزت وإذ بي أسقط في ساقية للمياه الآسنة.

قمت بسرعة وتابعت الركض حتى وصلت إلى أطراف الحـــرش حيث النبع والبركة الكبيرة، استحممت وغسلت ثيابي وجففتهـــا علـــى الصخور وبعد ذلك عدت إلى كهفي منهكاً ودون أن أتناول أي طعـــام. استلقيت مفكراً بأحداث هذا اليوم العصيب "

- يا رجل أنت حكاية بحد ذاتها.
- لماذا تقول هذا؟
- لأنه ومهما كانت الظروف يبقى الحظ حليفك.
- الحمد لله على كل شيء وأكبر دليل أنني هنا.
- الحمد لله على كل حال
- نعم صدقت لأنه لا يحمد على مكروه سواه.
- ما نطقت إلا الصدق.
- لم يزل في الليل بقيّة لذا نفذ حصّتك من الاتفاق.
- معك حق..قالها أبو ديب وهو ينظر إلى ساعته حيث تأكد من الوقت لذا توجه إلى رفيق استشفائه سلطان قائلاً:

.....

- ١١ -

" انتهى فصل الصيف وحلّ فصل الخريف وفتحت المدرسة أبوابها. تجهز الأولاد وقصدوا المدرسة التي دخلها الجميع إلا منهل الذي وقف بالباب رافساً هذا وصافعاً ذاك وشاتماً الآخر من الداخلين والخارجين وبعد كل ذلك كان يهرب متوارياً ضمن حرش القرية ممضياً معظم الوقت هناك إذ كان يتسلى بصيد العصافير والتفتيش عن جذور النباتات البرية التي كان يقتلعها بسكين كانت ترافقه بشكل مستمر ورغم كل عمليات التفتيش المفاجئة التي كان يقوم بها القيمين على المدرسة إلا أن محاولاتهم تلك كانت تبيء بالفشل إذ كان يخبأها معظم الوقت في سرواله الداخلي ولم يكن يظهرها إلى عند الحاجة القصوى.

وكالعادة كانت الشكاوى تتوالى من الطلبة إلى إدارة المدرسة مما حدا بالمدير لأن يجمع الطلاب في الباحة ويحاضر بهم بضرورة الالتزام بالنظام والتعاون مع المدرسين للوصول إلى نتيجة مرجوّة آخر العام ومهدداً في الوقت نفسه المقصرين والمستهترين بأشد العقوبات قائلاً هذا ما سترونه بأم عينكم الآن إذ سيحاسب زميلكم منهل لاعتدائه المتكرر على زملائه وكذلك لخرقه كافة قوانين ونظم المدرسة.

أُحضر منهل وأُجلس على كرسي من الخيزران راكعاً بينما قام المدير بوضع قدمه على رجليّ منهل العاريتين ، وبدأ العد حتى العدد عشرة وسط توسلاته ووعوده بعدم تكرار ذلك، ولكن دون جدوى إذ

تكرر فعله هذا وبالتالي تكررت العقوبات إلا أن ملّ المدير منه لذا قام باستدعاء والده.

حضر أبو أحمد وكله يقين بأن سبب استدعائه هذا هو منهل إذ كانت تصله كل أخباره عن طريق أشقائه وأقربائه.

سرد المدير والمدرسون لأبي أحمد كل تصرفات ولده وأفعاله المشينة حيث أعلن بدوره عن كلله من تصرفات ابنه كونه جرّب معه كلّ أنواع العقوبات وكذلك اتبع أسلوب الترغيب ولكن دون جدوى لذلك قرّر تسليم أمر منهل لهم مطلقاً أيديهم من ناحيته مخلياً مسؤوليتهم تجاهه عندها انبرى أحد المدرسين قائلاً:

– أستاذي الكريم لقد قرأت منذ فترة في صحيفة مقالاً عن موظف أعيا مديره باختلاساته المتكررة والبارعة والتي لا يمكن كشفها رغم يقين المدير من وقوعها. وكان قد جرب معه كلّ أشكال لفت النظر حتى أنه توصل لحد إنذاره بالطرد، إلا أن ذلك لم يكن يجدي نفعاً لإصرار ذاك الموظف على ما كان يقوم به.

وفي إحدى الجلسات نصح أحد الأصدقاء المدير بأن يقوم بتسليم ذاك الموظف العهدة نفسها التي كان يقوم بالسرقة منها فبذلك تصبح في عهدته وباستلامه فيصعب عليه التلاعب بها.

– هل نجحت تلك الخطة مع ذاك الموظف؟

– نعم إذ قام بضبط وتنظيم تلك العهدة متلافياً الثغرات التي كان ينفذ منها فبذلك أبعد عنها كل المختلسين الذين كان قد خبر وبشكل

عملي كل أساليبهم ، وبهذه الطريقة أنهى ذاك المدير تلك المشكلة بأقــل الخسائر.

– لذا أقترح عليكم أن تقوموا بتسليم منهل مهمة مراقبة وضــبط الباب أثناء دخول وخروج التلاميذ وكذلك أثناء الفسحات والفرص.

أُعجب المدير والمدرسين بالفكرة لذا قرروا تنفيذها.

– وهل تم ذلك فعلاً؟..قالها سلطان

– نعم إذ أدار منهل الباب وبكل دقة كون جميع الطلاب يهابونه لذا التزم هو والجميع بالأنظمة والقوانين فبذلك ارتاح المدير ومساعدوه وبنفس الوقت أفرغ منهل تلك الشحنة المعتمرة داخله.

– جميل أن توجد حلول ناجحة كهذه

– نعم صدقت ولكن هيهات أن تجد من يسعى لتنفيذها وتطبيقها

– وما كان موقف أبي أحمد من ذلك.

– كان في غاية السرور لأنه ارتاح من ناحية واحدة من مجموعة نواح كانت مصدر الشكاوي على منهل

– وهل استمر منهل بانضباطه هذا؟

– كلا إذ أنه فرح في البداية في هذه المهمة إلا أنه ملّ هذا العمل مع مرور الوقت كونه شعر بأن ما تم كله كان من ترتيب ذاك المدرس الذي كان يكن له كل الكره منذ أن داست قدماه أرض المدرسة.لذا قرر الامتناع عن القيام بهذه المهمة وليفاجئ الجميع بعودته الميمونة لــسابق عهده.

– ١٢ –

عاد الأطباء مرضاهم وعندما جاء دور غرفة أبي ديب ورفيقه وبعد أن اطمأن الجميع لنجاح العمل الجراحي الذي كان قد أجري لأبي ديب لكنهم توقفوا كثيراً عند حالة سلطان مدققين في التقارير المرفقة بالصور الشعاعية والتحاليل الطبية.مطلقين بعض عبارات التشجيع بثاً للأمل في نفس سلطان .

أثناء ذلك استغل أبو ديب انشغال الجميع بحالة سلطان وتسلل قاصدا غرفة الأطباء للوقوف منهم على حالته بالضبط ومن طبيبه المعالج بالذات، الذي أقرّ بحرج حالة سلطان وتراجعها لدرجة أصبح معها مجال فسحة الأمل ضيقاً جداً بل شبه معدوم.

- نحن نقوم بأقصى ما نقدر عليه والباقي على الله..قالها الطبيب بتأثر بالغ.

وقع هذا النبأ على مسمع أبي ديب وقوع الصاعقة إذ قام بجر نفسه جرّاً إلى غرفته واستلقى على سريره صامتاً والحزن يكاد يأكل أحشاءه من الداخل...تلفت نحو جاره وهو يطلق بعض عبارات التشجيع التي تقال في مثل هذه الظروف رفعاً لمعنويات سلطان الذي أحس بأنها بدأت تتأثر مع مرور الوقت مؤخراً.

تبادلا أطراف الحديث لبعض الوقت مستهلكين الفترة الفاصلة بين وقت عيادة الأطباء وموعد توزيع طعام الغداء الذي تناولوه بسرعة فما أن غادر المستخدم الذي كان يجمع الأوعية الفارغة من الغرف ، حتى استسلما معاً لنوم دام حتى ساعات الغسق.

- ١٣ -

حضر صباحاً هيثم الابن الأوسط بين أبناء أبي ديب وكان يحمل كيساً حوا بعض الحاجات بالإضافة لثياب بديلة.

استعلم منه والده عن كل شيء مطمئناً على ما كان قد شغل باله طيلة الفترة، وقد أسعدته الأخبار الخاصة بابن عمه الذي بدأت حالته بالتحسن السريع وأصبح في طور الشفاء.

بالإضافة لأنهم قد قاموا بإنجاز كل الأعمال المتراكمة كشراء الأسمدة والبذار بالإضافة لحراثة الأرض وزراعتها، والأهم من كل ذلك أن البقرة الشامية قد وضعت عجلاً جميلاً.

- كيف حال عمك أبي أحمد وعائلته وبالأخص عمتك..قالها أبو ديب موجهاً كلامه لابنه هيثم.

- الجميع بخير ويقرئونك السلام...ولكن..وصمت.

- ولكن ماذا هل كرر منهل أفعاله كالعادة؟

- نعم وكاد أن يوقع الخلاف بين أبي أكرم وأبي حسن.

- ما الذي فعله هذا الولد الشقيّ لتصل الأمور إلى هذا الحد؟

كل ذلك وسلطان مستلقٍ في سريره وهو يصغي باهتمام.

" سألت عن ذلك منهل بالذات إذ قصدته وهو يتمركز فوق صخرته فقال:

- أردت أن أنتقم من كلتا العائلتين.

- لماذا وما الذي فعلوه لك؟

- لأن أبو أكرم رفض بيعي ذكر الأرنب الأبيض.
- وأبو حسن ماذا فعل؟
- كذلك الأمر رفض إعطائي فرخ البط رغم كلّ ما كنت قد عرضته عليهم من مغريات بدأ من النقود حتى العمل في الحقل مقابل ثمن حيواناتهم إلا أن ردهم كان بالرفض. لذا قررت أن أنتقم كي ألقنهم درساً لن ينسوه أبداً وليكونوا عبرة لغيرهم لأني شخص لا يرد له طلب.
- هذا حقهم وتلك ملكيتهم ولا أحد يستطيع فرض شيء عليهم.
- إلا أنا بالذات لأني وحدي أستطيع ذلك.
- يا رجل ضع نفسك مكانهم هل كنت سترضخ؟
- لا أدري، ولكن ما أرغب به يجب أن يتحقق، فليغضب من يغضب

عندها سألته قائلاً:

- ارو لي كيف فعلت ذلك لتصل الأمور إلى هذا الحد؟
- لقد راقبت العائلتين من على صخرتي وعندما تأكدت من أن الجميع قد غادروا بعد أن أطلقوا دواجنهم كي تسرح في باحات منازلهم.

تسللت إلى المنزل وبغفلة من أمي سرقت كيس خيش وقصدت منزل أبي أكرم. تسلقت السور وقفزت بشيء من الحذر واقتربت من مجموعة أرانب كانت ترعى الحشائش وبعض بقايا الخضروات مما كانوا يحملونه معهم من الحقل.

انتقيت بعض أوراق الخس الطرية من باحة البيت ثم قمت بتثبيت الكيس بوضع حجر على نهايته بينما قمت يفتح فوهته بواسطة قطعة خشب من بقايا غصن مكسور

ومن ثم قمت بحركات أغريت فيها ذكر الأرنب بواسطة أوراق الخس حتى أصبح قريبا من فوهة الكيس عندها قمت بإلقائها داخل الكيس.

عندها تقدم الذكر ساعيا إليها ودخل الكيس ثم ما لبثت بعض الإناث أن تبعته، وما إن صاروا داخل الكيس قمت بضم فوهة الكيس ومن ثم حملته على ظهري وغادرت عبر السور قاصداً دار أبي حسن الذي كان قد بدأ ببناء بيت جديد لابنه الأكبر بحيث رفعت جدرانه حتى مرحلة السقف وتوقف العمل ريثما ينضج المحصول بحيث يتمكنوا من إكمال ذلك.

وعند وصولي إلى هناك كان مدخل البيت الجديد قد سد بقطع خشب ربطت بشكل متصالب بالإضافة لبعض قطع الحجارة والبلوك.

قمت برفع ذاك الحاجز بهدوء ودخلت، وعندما أصبحت داخل الغرفة الوسطى أنزلت الكيس من على ظهري ثم فتحت فوهته لتخرج منه الأرانب وبكل سرعة غادرت المكان بعد أن أعدت كل شيء إلى حاله.

قصدت مقري هناك فوق صخرتي لأكمن وأراقب كل ما سيحدث عن كثب وكانت لحظتها فرحتي لا تقدر بثمن كون خطتي قد نجحت بهذه السهولة.

– هل انتظرت كثيراً هناك؟

– لا. كون الأسرتين بالعادة تعودان لتناول طعام الإفطار ولأخذ قسط من الراحة قبل العودة إلى الحقل مجدداً.

– كيف تم اكتشاف الأمر؟

– من عادة أبو أكرم أن يقوم بتفقد دواجنه فور عودته من الحقل وعلى الفور اكتشف عدم وجود ذكر الأرنب الأبيض مع بعض الإناث والفراخ.

عندها صاح منادياً كي تجتمع الأسرة، وما إن اجتمع الشمل حتى أبلغهم بالأمر طالبا منهم البحث عن تلك الأرانب.

انتشر الجميع باحثين ومفتشين داخل المنزل وفي الجوار. استمر الأمر فترة وأبو أكرم يكظم غيظه كون ذاك الأرنب محبباً إلى قلبه كثيراً إذ كان يطعمه من يده ويداعبه أوقات فراغه.

لم يطل الأمر حتى اكتشف أحد أولاد أبي أكرم مكان الأرانب وحضر ليخبر والده بالأمر. عندها غادر مسرعاً والشرر يتطاير من عينيه قاصداً منزل جاره أبي حسن الذي ناداه من بعيد:

– من أبو أكرم، تفضل يا رجل زارتنا البركة..قالها بكل دماثة.

– كلمني من فضلك..قالها باقتضاب.

اقترب منه قائلاً:

- خير إن شاء الله أدخل يا رجل.
- لا أريد الدخول بل أريد منك تفسيراً عن أمر ما.
- قل يا رجل.
- ما الذي تفعله أرانبي في عمارتكم الجديدة؟
- أرانب! أية أرانب يا رجل؟
- أرانبي التي فقدت من تحويشة الدار وهي الآن في عمـــارتكم الجديدة
- مستحيل هذا الذي تقوله.
- تفضل وشاهد ذلك بأم عينك.

عاد أبو حسن مسرعاً ليجلب عقاله وغطاء رأسه حيث وضعهما بسرعة ودون ترتيب وكذلك قاموا بطي مؤخرة حذائه حيث دس قدميه فيه وسار برفقة أبي أكرم.

وكانت دهشة أبي حسن كبيرة إذ قال:

- عجيب! شيء يضع العقل بالكف.
- هل يجوز ذلك يا جاري المحترم.
- لا أبداً هذا لا يجوز مطلقاً ومعك كل الحق ، ولكن صدقني لا أعرف ما سأقوله لك.
- لا تقل شيئاً. بل يستحسن أن تعرف ما الذي يجري في بيتك.
- وكّل الله يا رجل...

قالها وهو يجيل نظره في أنحاء العمارة حيث لفت انتباهه كـــيس خيش ملقى على الأرض. سار ناحيته وحمله متفحصا إياه وفجأة صاح قائلاً:

– أبو أكرم اقترب من فضلك.

اقترب أبو أ أكرم متمتماً: يا لهذا النهار وأحداثه الغريبة.

– خذ انظر واقرأ.

أمسك أبو أكرم وتفحصه جيداً وقرأ ما كان قد كتب عليه بصوت مسموع: "إلى السيد أبي أحمد المحترم" وتابع قائلاً:

– كيف وصل هذا الكيس إلى هنا؟

عندها صاح أبو حسن قائلاً:

– لقد حلّت المشكلة

– كيف؟

– لقد فعلها ذاك الولد الشقي

– من ذاك الولد؟

– منهل ابن أبي أحمد

– لم يقدم على ما فعله؟

– لينتقم مني لأني لم أبعه ذكر البط

– بل ليوقع بيننا كوني لم أشأ منحه ذكر الأرنب

– لعن الله إبليس. فعلاً إن بعض الظن إثم...قالها أبو أكرم موجها كلامه لأبي حسن بشيء من التزلّف حيث قال:

– جاري العزيز اقبل اعتذاري أرجوك.

– حصل خير. نشكر الله إن الأمر قد كشف سريعاً..قالها وهو يساعد جاره بجمع الأرانب حيث وضعوها داخل الكيس.

غادرا العمارة بعد أن قام أبو حسن بسد الباب بشكل جيد وافترقا كلٌّ إلى منزله بعد أن اتفقا على أن يقوما بزيارة أبي أحمد بعد وصوله من عمله."

– وهل قاما بزيارة عمك أبي أحمد..قالها أبو ديب.

– نعم في نفس ذاك اليوم مساءً

كل ذلك وسلطان يستمع دون أن ينطق بأية كلمة

استمع أبو أحمد لشكاوى جيرانه دون استغراب لأنه يعرف طباع ولده التي تعود عليها وعلى مثل هذه الشكاوى لذا بقي محافظاً على هدوئه كعادته محاولاً كسر حدة حديثهم ملطفاً الأجواء بشكل عام إلى أن أنهيا كل حديثهما...ورد عندها قائلاً:

– يا جيراني الأعزاء لقد أعياني هذا الولد إذ لم أترك وسيلة إلا وجربتها معه، ولكن دون جدوى وكما يقول المثل:" دق الماء يبقى ماء" لذا اقبلا اعتذاري أرجوكما.

ردّ كلاهما:وكل الله يا رجل فنحن أهل وسنبقى كذلك.

– هذا أملي وعهدي بكما دائماً.

– شكراً أبا أحمد ولكن يجب أن تنتبهوا جميعاً لتصرفات منهل لأنه قد يجرّكم إلى متاعب ومشاكل قد لا تحمد عقباها..قالها أبو حسن.

– معك حق نحن نقوم بذلك إلا أنه عصيٌّ على الاحتواء

– اجلس معه وحاوره لتضع يدك على مكان ألمه وقلقه كون كل ما يقوم به ما هو إلا تنفيساً لضغط داخلي يرهق نفسه..قالها أبو أكرم.

– حاورناه كثيراً أنا وجميع أعمامه وكل من حولـــه لكـــن دون جدوى.

– أعانك الله عليه..قالاها معاً وغادرا على أن يعودا لزيارته مرة ثانية في أقرب وقت.

كل ذلك ومنهل قابع فوق صخرته يراقب تحركات كل أهل القرية وبالأخص أبا أكرم وأبا حسن، إذ عرف بأن أمره قد انكشف وبالتـــالي ينتظره عقابا شديداً. لذا بقي هناك حتى تأكد من أن كل من في البيت قد خلد للنوم عندها تسلل عبر السور واندس في الفراش بين أخويـــه ولـــم يستيقظ إلا على والده وهو يشده من شعره رافعاً إياه حتى سحبه من بين أخويه وكان يحمل في يده الثانية خيزرانه وبدأت عقوبة طغى صـــوته على صوت وقع الخيزرانة على جسده. حوّل صراخه لتوسلات وتقبيل الأيادي والأرجل واعداً بعدم تكرار ما فعله.

وما إن تركه حتى فر هاربا قاصداً عرينه الثاني فوق غصن برز من شجرة تين كبيرة كان يلجأ إليها حين يمل صخرته.

– كان الله في عون والده ووالدتـــه..قالهـــا ســـلطان وعلامـــات الاستغراب بادية على محيّاه.

– نعم كان الله في عونهم إلى أن يمنّ الله عليه بالسكينة والعقل.

– ونعم بالله ولكن مثل هذا الولد يلزمه مجموعة متكاملة تحيطه وتواكبه على مدار الساعة مراعية ظروفه ووضعه وفي الوقت نفسه تقدم له النصيحة والإرشاد وإلا العاقبة ستكون وخيمة عليه وعلى أهله ، والمثل الحي جاهز وحاضر قالها سلطان وهو يشير بيده إلى نفسه.

– لا يا رجل الفرق شاسع بينك وبينه، فأنت رجل تعرضت لضغوط جمة أما هو فلم يزل صغيرا وسيعقل إن شاء الله

– آمل ذلك..قالها وهو يهز رأسه علامة على عدم الاقتناع

عندها توجه أبو ديب بالكلام لسلطان قائلاً:

– هذا غيض من فيض لأنك لم تسمع كل نوادره.

– ماذا؟..وهل قام بأشياء أخرى؟

– هو..هو.. إن له رصيداً هائلاً من النوادر لذا اسمع ما الذي فعله بالكبش.

– الكبش!

– نعم اسمع:

.....

- ١٤ -

" باع والده بقرة واشترى بثمنها بضع نعاج وكبش ليشغل بهـا وقت منهل في عطلة الصيف. الأمر الذي أدخل السرور لقلب منهل إذ أصبح بإمكانه البقاء خارج المنزل طيلة النهار سارحاً في البراري دون رقيب أو حسيب بحيث يستطيع تحقيق كل رغباته ببساطة إذ كان كـل همه وشغله الشاغل سبر أغوار وخفايا كل المنطقة المحيطـة بقريتـه والتي كان من الصعب عليه الوصول إلى تلك الأمكنة كونها خصصت كمراعي لمواشي القرية والقرى المجاورة. "

– ممتاز. هاهم قد حظوا بفكرة تشغل منهل وتلبي في الوقت نفسه بعضاً من رغباته.

– نعم ولكن اسمع ما الذي حدث واحكم بنفسك.

– ما الذي حدث؟

ذات يوم جهز منهل زوادته وعلقها على طرف عصاه التي كان قد اقتطعها من إحدى أشجار الرمان التي كانت تنمو بجانب ساقية الماء في الحقل وقام بوضعها على كتفه تقليداً للرعاة الذين يظهـرون علـى شاشة التلفاز إذ تتدلى تلك الزوادة إلى الخلـف بينمـا يقـوم بعـزف مقطوعات موسيقية وعلى الأغلب تكون من فلكلور تلك المناطق، ولكن أكثر ما حزّ بنفسه حيال ذلك أنه لم يـستطع تـصنيع مزمـار رغـم محاولاته الكثيرة والتي باءت كلها بالفشل بعد أن كان قد خـرب عـدة

قضبان من القصب الذي كان يقطعه من مقصبة القرية المجاورة للحرش .

هز العود متأكداً من أن ربط الزوادة كان محكماً ثم ألقى بالعود على كتفه وقام بفتح باب الزريبة لتخرج أغنامه التي قادها هذه المرة نحو المنطقة المحيطة بصخرته إذ قرر أن يمضي نهاره هناك فيضرب عصفورين بحجر. أولاً يقوم برعي أغنامه وثانياً يستطيع متابعة كل ما يحدث في القرية من مرصده ذاك.

وصل بغنماته لتلك المنطقة المحببة إلى قلبه وفوراً توجه نحو صخرته حيث قام برفع حجر عن قطع الكرتون التي كان يستخدمها كمفرش له ومن ثم قام بتسوية جلسته بينما غنماته كانت قد سرحت حوله قاضمة العشب الطري وبعض بقايا نباتات يابسة.

راقب المكان بدقة كعادته متابعاً حركة الطيور في السماء بأنواعها المختلفة وكذلك الكم الهائل من الحشرات المتنوعة والتي تنشط في مثل هذا الوقت من العام إذ كانت تقوم بحركات تناسب نوعها، فمنها الزاحف والقافز وكذلك الطائر.

سوى جلسته فوق صخرته تلك وعلى قطع الكرتون التي كانت تشكل عازلاً يحمي جسده من خشونة وصلابة الصخر.

وأثناء مراقبته لقطيعه المنتشر حوله كون الكلأ متوفر بشكل جيد، لفت انتباهه خنفساء تدحرج قطعة روث بقائمتيها الخلفيتين مستخدمة

قائمتيها الأماميتين للسير والدفع. تابعها حتى وصلت جحرها أثناء ذلك دخلت حشرة صغيرة في أذنه. أزعجه صوتها وحركتها داخل أذنه كثيراً. حاول إخراجها بإصبعه لكنه ففشل مما اضطرّه للاستعانة بقشة قاسية كي يخرجها، وكان للألم الذي أحدثه دخول تلك الحشرة وطريقة إخراجها وكذلك الطنين الذي بقي لفترة طويلة بعد ذلك الأثر الفعال في إثارة وتحريض مخيلته الفذة والبارعة في حياكة وحبك الخطط والمؤامرات. وعلى الفور قرر أن يجرب ما كان قد خطر بباله.

نزل من على صخرته وأخذ بالبحث عن حشرة صغيرة لكنه لم يتمكن من إمساك أي منها. عندها توجه نحو الكبش الذي كان قد روّضه خلال الأيام الماضية بحيث صار يمكنه الاقتراب منه والإمساك به ومداعبته.

فتش بين خصلات صوفه عن برغوث كامن ، وبالفعل وجد واحداً أمسكه بأطراف أصابعه ومن ثم قام بفتح أذن الكبش وأدخل ذاك البرغوث فيها وتركه فوراً وغادر نحو صخرته ليراقب ما سيحدث.

بدأ الكبش يهز رأسه هزّاً خفيفا ما لبث أن تسارع حتى أصبح عنيفاً وبعدها أخذ يقوم بحركات عشوائية ما لبثت أن تحولت إلى ركض حيث ابتعد مسافة كبيرة عن القطيع. عندها خاف منهل كثيراً لذا نزل من على صخرته وتبع الكبش محاولاً إعادته علّه يستطيع إخراج تلك الحشرة من أذنه، عند ذلك التقى بخاله حمود العائد من حقله على دراجته النارية والذي توقف ليسأله:

- لم تركض هكذا يا منهل؟
- لقد شرد الكبش يا خال وأخاف أن أفقده.
- اركب خلفي لنلحق به.

ركب خلف خاله وانطلقا بسرعة خلف ذاك الكبش الذي كان قد توقف وأخذ يتخبط في مكانه رافعاً قائمتيه الأماميتين إلى الأعلى ومن ثم يخبطهما على الأرض مع هزات عنيفة من رأسه.

بقي هكذا فترة بدأت بعدها حركته بالتباطؤ إلى أن هوى على بطنه بحيث بدا لمن ينظر إليه كأنه يحتضر.

عندها استلّ حمود سكيناً من جيبه وكانت ذات نصل حاد لامع وأمسك بقرني الكبش بعد أن وضع ركبته على صفحة بطنه طالباً من منهل أن يقوم بتثبيت أطراف الكبش جيداً. عندها قام بنحره ليسيل الدم الأحمر القاني غزيراً.

انتفض الكبش وشخر فاتحاً فمه محاولاً تحريك أطرافه بعنف وقوةٍ كاد من جرّائها أن يفلت من بين يدي منهل الذي كان قد تلقى تنبيهاً من خاله كي ينتبه ويثبته بقوة. استمرت حركة الكبش هكذا للحظات ما لبثت من بعدها أن أخذت بالهمود شيئاً فشيئاً إلى أن سكن نهائياً عاضّاً على لسانه.

حمل منهل وخاله الكبش ووضعوه على مقعد الدراجة المعدني حيث قام خاله بربطه بحبلٍ من المطاط كان يرافقه دائماً، وبعدها أمره بأن يذهب ويجمع الغنمات ويعود أدراجه إلى البيت.

نفذ منهل ما طلب منه وعاد شارداً حزيناً على المصير الـــذي آل إليه كبشه القوي والذي كان لطالما أعجب بقوته وعنفوانه.

– كيف اكتشف أمره؟

– لم يكتشف فوراً بل ظل ما حدث سرّاً حتى قام أخـــوه مـــسعد بإفشائه إثر شجار بينهما.

– وبالتأكيد عاقبه والده على ذلك فور علمه بالنبأ.

– نعم.

– فعلاً إنه ولد عجيب.

.....

- ١٥ -

بعد المرور الاعتيادي للأطباء أنهى إبراهيم مستخدم النظافة عمله وقام بزيارة لأبي ديب وسلطان في غرفتهما كونه كان قد مــدّ جــسور صداقة معهما خلال فترة مكوثهما في هذا المشفى حيث تقدم وهو يحمل إبريقاً بيد وثلاثة كؤوس باليد الأخرى حيث حياهما وجلس. وكان قد بدأ معرفته بهم حين بادره أبو ديب بسؤاله المعهود:

- من أين أنت يا عم؟
- من إحدى قرى الجولان التي لم تزل تحت الاحتلال.
- كم بلغت من العمر؟
- ثلاثاً وأربعين.
- إذاً كان عمرك حين نزحت بضع سنوات.
- نعم .....

وأطلق العنان لذاكرته عن تلك الأيام العصيبة وخصوصاً عندما بدأت الأنباء تتوارد متضاربة حيث خافت الأســر وغــادرت منازلهــا قاصدة الداخل.

عندها قام والداه بحمل ما تيسر من أمتعة وزاد قبل أن يهربا بهم إلى أن وصلوا إلى دمشق حيث أسكنوا الخيم بشكل مؤقت إلى أن وجد والده عملاً دائماً في أحد المعامل التابعة للقطاع العــام عنــدها اســتقر وضعهم وتحسنت حالتهم.

- ألم تحن لقريتك؟

– لا. لأنني كنت صغيراً جداً وقت ذلك ولكن والديّ رحمهما الله بقيا في حنين إلى تلك الربوع حتى آخر عمرهما.

– ما هي آخر الأخبار يا إبراهيم؟

– كل شيء على أحسن ما يرام لولا ما تقوم بـــه تلـــك الدولـــة الغاصبة من اعتداءات على لبنان.

– هذا شيء اعتدنا عليه المهم النتائج.

– صدقت لأن ما يقوم به هؤلاء المقاومون الأبطال من أعمـــال باسلة شيء يدعو للفخر.

– " نعم بارك الله بأولئك المقاومين وسلمهم من كلّ شـــر ....." قالها سلطان

تبادلوا الأحاديث العامة وهم يحتسون الشاي وبعدها غادر إبراهيم كي ينهي بقية واجباته لأن موعد انتهاء ورديته قد شارف على الانتهاء.

عندها التفت أبو ديب نحو سلطان وقال:

– الآن جاء دورك أليس كذلك.

– نعم فأنت لا تنسى شيئاً كعادتك.

– نعم أنا كذلك لذا لا تتلكأ وخصوصاً أن الجو العام قد هدأ.

– حاضر يا سيدي اسمع ما سأرويه لك عما حـــدث معـــي أثنـــا زيارتي للقرية.

– كلي آذان صاغية.

– " اعتدت زيارة أهلي بين الحين والآخر أو حين تسنح لي الفرصة لذلك. كون المراقبة قد شددت على منزل أهلي وبيوت كل من لهم صلة بي من أقارب وأصدقاء.

وكانت زياراتي تلك تتم ليلاً إذ كنت أقوم قبل دخولي المنزل أراقب المكان جيداً وعندما أتأكد من أن كل شيء على ما يرام أتسلل عبر سور التحويشة حيث أبدل ثيابي بعد أن أستحم وأحمل معي كل ما كان يلزمني وأغادر عائداً إلى حيث يكون مخبئي.

ذات يوم كان التعب والجوع قد نالا مني إذ نفذت مؤونتي وكذلك النقود التي كانت بحوزتي لذا اضطررت للنزول إلى القرية. وبعد أن قمت بإجراء كل حركات الأمان دخلت البيت حيث قامت والدتي بإعداد الطعام سريعاً.

تناولت طعامي وبعد ذلك ونحن نشرب الشاي سمعنا صوت طرقات عنيفة على الباب، عندها حملت زوّادتي وبندقيتي وغادرت البيت حيث قفزت من فوق السور وكانت سقطتي بين عنصرين من رجال الأمن.

دفعتهما بقوة كل باتجاه وغادرت ركضاً باتجاه الجبل إلا أن أحدهما قام وبكل سرعة ليلحق بي وكاد أن يمسك بي عدة مرات طرفته بعيني لأجده شاباً رقيق البنية أسمر البشرة ومن جلده ومثابرته علمت أنه رياضي.

طلبت منه عدة مرات أن يكف عن ذلك وأنا أركض لكنه رفض بل تابع بإصرار بحيث تمكن من لمس كتفي أكثر من مرة. استمر بمطاردتي حتى دخلنا الحرش الذي كنت أعرف خفاياه جيدا. حيث وجدت أن لا مفر أمامي من أن أوقعه في مطب يصعب عليه التخلص منه.

راوغته كثيراً حيث قدته خلفي بحركة دائرية حول الحرش من ناحية الجبل حتى نال مني التعب وذاك الشاب لم يزل بكامل حيويته وطاقته لذا قلت بيني وبين نفسي لم يعد هناك مجال "هو الجاني على نفسه"

لذا حرفت مسار ركضي يميناً باتجاه جرف متوسط الارتفاع واستمررت بالركض حتى وصلت حافته، عندها رميت نفسي على الأرض ليتعثر بي ويسقط في تلك الهاوية حيث سمعت صراخه وأنا أعود أدراجي. بقيت ليلتي تلك ساهراً مفكرا ومسترجعاً أحداث هذا اليوم العصيب. "

– ألم تستعلم عن حال ذاك الشرطي؟

– لا..ومن أسأل؟..وهل باستطاعتي مقابلة أياً كان من الناس؟

– معك حق فالوضع حرج ولكن لم تذكر لي هل كانت تلك الحملة على بيتكم عملاً روتينياً أم جاءت نتيجة إخبار ما.

– لا أدري ولكن بعد مرور الوقت علمنا أن هناك من يترصدني ويتابعني ويقوم بإبلاغ أجهزة الأمن بذلك.

– كل شيء وارد وخصوصاً عندما تكون هناك مكافـــآت ماديـــة كبيرة لمن يقوم بذلك.

– إنه الاحتمال الأرجح.

حل مساء ذاك اليوم إذ عاد الغرفة المستخدمون للقيام بأعمـــالهم الروتينية وبعد أن تناولا عشاءهما تسامرا قليلاً ومن ثم لاذ كل منهما منفرداً بنفسه مسترجعاً بعضاً من شريط ذكرياته إلـــى أن تـــسلل النعاس بهدوء فارضاً عليهما سلطته القاهرة.

.....

- ١٦ -

مضى على وجود أبي ديب في المشفى أكثر من عشرة أيام بحيث شارفت مدة نقاهته على الانتهاء، لذلك قرر أن يستجر من سلطان كل مخزون ذاكرته وبالأخص فيما يتعلق بتلك المغامرات الفريدة . لذا تحين الفرصة المناسبة إذ هدأ الجناح بعد أن أتم كل شخص ما كان قد كلف به ولاذ إلى حيث مقره.

وفي هذا السكون التام الذي خيم على المكان إلا من بعض الأصوات التي كانت تصدر من هنا وهناك، توجه أبو ديب نحو سلطان قائلاً:

- والآن يا سيد سلطان لا مفر لك من سرد أكثر من قصة في اليوم لأن الفترة المتبقية لي هنا باتت قليلة.

- أنت طماع يا أبا ديب، وكذلك تريد أن تتهرب من الاتفاق.

- لا لم أتهرب أبداً لكن حكاياتك ألذ وأمتع.

- وأنت كذلك فحكاياتك تصلح لتكون مسلسلاً لا فيلماً.

- يكفي يا رجل، نظراً لإلحاحك سأروي لك كل ما مر معي حتى هذه اللحظة عسى أن تتذكرني لاحقاً عندما يحين موعد الفراق.

- شكراً لك يا سلطان فوجودك أضفى على إقامتي هنا رونقاً مميزاً.

- العفو يا أبا ديب أنت تحفة بل كنز يفتخر به مالكه على الدوام.

- مالك وهل سنمضي الليلة في الأخذ والرد وكلام المجاملات؟

– ليست مجاملات لأن ما قلته صحيح تماماً كوني لا أنطــق إلا لما يعتمر به قلبي ومهما كانت النتائج.

– أعرفك جيداً وأصدقك فأنت شخص مميــز يــا ســلطان لــذا أستغرب تماماً ما حدث معك، ألم يقم أحدٌ بتسوية الأمر مع عائلتك.

– تدخل العديد من المحبين والأقارب إلا أن جميع تلك المحاولات باءت بالفشل، إذ لم يحن قلبهم إلا بعد أن علموا بقصة مرضي هذا.

– لا حول ولا قوة إلا بالله.

– " بعد تلك المطاردة تركت ذاك الجبل إذ صار مكــاني هنــاك مكشوفاً ومعروفاً لرجال الشرطة والمخبرين من أبناء قريتي والقــرى المجاورة.

لذا انتقلت إلى سلسلة الجبال المجاورة والتي وصلتها مساءً بعــد مسير نهار بأكمله، وبعد أن كان الليل قد أسدل ستاره سرت قليلاً حتى حظيت بصخرة ملساء عالية بعض الشيء يــصعب تــسلقها إلا علــى الإنسان.

تسلقتها وافترشت سطحها وبعد أن تناولت قليلاً من الطعام أسندت رأسي على نتوء برز منها واستسلمت لنوم عميق.

وفي الصباح نزلت وفوراً بدأت بجولة لاستكشاف خفايا هذا الجبل ملتقطاً ما أصادفه من ثمار برية.

كنت أستريح بين الحين والآخر وبالأخص عندما كنــت أصــل مباشرة إلى إحدى العيون المنبثقة من بين الــصخور حيــث أغتــسل

وأشرب ماء لم أذق ألذ منه قبل ذلك. وعند المساء كنت أعود إلى تلــك الصخرة لأمضي ليلتي هناك.

ذات يوم وبينما كنت أقوم بجولتي المعتادة حظيت بصخرة تحوي في وسطها تجويفاً صغيراً يشبه إلى حد ما الكهف. دخلته فوجدته يتسع لشخص واحد نظفته جيدا ثم قمت بجمع بعض الأغصان على شكل باب يمكن إزاحته وإعادته عند اللزوم، ومنذ ذلك الوقت صار ذاك الكهــف مقري الجديد. "

– ألم تصادف أثناء جولاتك حيوانات مفترسة؟

– قليلا جداً إذ كان أكثر ما كنت أصادفه هو حيــوان ابــن آوى وبعضا من الحيوانات الصغيرة غير المؤذية.

– وذاك الضبع ألم تصادفه مجددا؟

– كلا لم أصادفه نهائيا، وربما لأني غيرت مكاني.

– ربما لكن للحياة هناك رونق معين وبهجة لا يحس بها إلا من يعيشها

– صدقت يا أبا ديب إذ أن كل ليلة يمضيها الإنسان في جــوف تلك الطبيعة تمنحه قوة إضافية تضاف إلى ما كان قد اختزنه سابقا لأن الإنسان عندما يبدأ بترويض نفسه تزول كل المعوقات تدريجيا إلــى أن يصبح كل شيء عادياً وطبيعياً.

- ١٧ -

" يوماً نزلت منحدر الجبل من الجهة الغربية مبتعداً عن مقري وكان الوقت قبل الظهيرة لذا سلكت دروباً ضيقة تلف حول دغلة كثيفة الأشجار.

وأنا هكذا شاهدت من بعيد سوراً شيد من الأحجار التي رصفت بشكل جميل ومنسق ، اقتربت أكثر لأجد منزلاً كبيرا تتصاعد من مداخنه سحباً تكاد تلامس عنان السماء.

راقبت ذاك المنزل فترة لا بأس بها من بين الأشجار حيث شاهدت حشدا من الناس رجالاً ونساءً وأطفال يصلون ذاك المنزل ويدخلوه بينما بقيت السيارات قرب البوابة.

اقتربت أكثر من السور بحيث تمكنت من مشاهدة كل ما كان يجري إذ كانت تقام وليمة كبيرة قدمت من خلالها أطعمة كثيرة ومتنوعة والأشهى من كل ذلك صواني الفاكهة الزاخرة بأغلى الأصناف.

تراجعت حتى دخلت الدغلة حيث كمنت لأراقب المكان حتى غادر الجميع، وعندما حل الليل نزلت قاصداً منزلاً لاح لي من بعيد صغيراً ومتواضعاً، اقتربت منه بدافع الفضول لأن الوحدة التي يعيشها الإنسان في هذه المناطق تحفز على أن يراقب الإنسان كل شيء بشكل لا شعوري.

اقتربت أكثر إلى أن صرت خلفه مباشرة، وكانت صدمتي الكبرى إذ سمعت صوت أطفال يبكون شاكين جوعهم لوالدتهم التي كانت ترد عليهم بانكسار وبصوت غلب عليه البكاء إذ لا حول لها ولا قوة . عندها اشتعلت نيران صدري ولعنت الفقر بسري وعدت. "

– أين ذهبت؟

– عدت نحو الدغلة ومنها تسللت بهدوء قاصداً ذاك البيت الكبير.

– ما كانت غايتك من ذلك؟

– أردت أن أدخله كي أجلب بعضاً من بقايا هؤلاء لتلك المرأة وأطفالها.

– ستسرق من أجل غيرك.

– وستفعل هذا أنت لو كنت مكاني.

– ربما.

– المهم تسلقت حائطاً جانبياً لأستطلع المكان وبالفعل اهتديت إلى مكان يمكن عبوره من الجهة الثانية من السور وكان بجواره مبنىً صغيراً . قمت بدورة حول البيت حتى صرت بالقرب من ذاك المكان. تسلقته وبسرعة قفزت، وبكل هدوء سرت جنباً إلى جنب مع الحائط الموصل إلى ذاك المبنى الصغير ....

دفعت بابه وكان مواراباً دخلت دون أن أشعل أي ضوء.

لبثت للحظات حتى استقر مستوى بصري بحيث بتّ أميّز موجودات ذاك المكان، وكانت عندها دهشتي الكبرى إذ كان ذاك المكان

هو مطبخ ذاك البيت إذ كانت كل الصواني وغيرها من القدور ولم تزل تحتفظ ببقايا طعاماً ومن رائحته المثيرة علمت كم هي غنية تلك العائلة.

اقتربت من الباب محاولاً استطلاع ما الذي يحدث خارجاً. جلت بنظري في جميع أنحاء المكان فلم ألحظ أي حركة عندها خمّنت أن من بقي من سكان المنزل قد خلدوا للنوم، عندها سكنت روحي وزال القلق الذي كنت أحسّ به.

عدت إلى البيت وقمت بالتفتيش عن أي شيء أضع فيه الطعـــام، وبعد بحث وجدت بضع أكياس من النايلون وقد لُفَّت بتأن ثم وضعت في زاوية المطبخ فوق اسطوانة الغاز.

عندها قمت بملء أحدها بالطعام والثاني بالفاكهة وغادرت مـــن حيث نزلت وكانت مغادرتي أسهل بكثير من دخولي.

قصدت ذلك البيت التعيس لأجد تلك المرأة وأطفالها على حـــالهم كما تركتهم.

قرعت بيدي على الباب عندها صمت الجميع دون أن يرد أحـــد، قرعت مرة ثانية عندها صاحت المرأة قائلة:

- من الطارق؟
- أنا يا أختاه افتحي من فضلك.
- من أنت يا أخي؟ فأنا امرأة وحيدة مع أطفالي ولا رجل عندنا.
- لا تخافي لقد أحضرت لكم شيئاً ما.
- ما هو؟

– طعام. عندها صاح الأطفال قائلين:افتحي يا أمي. ومن أصواتهم عرفت أنهم كلهم قد تجمعوا خلف الباب.

عندها فتحت الباب ويا ليتها لم تفتح إذ ظهرت هي والأولاد بحالة يرثى لها فثيابهم كانت ممزقة تكشف أكثر مما تستر.

ناولتها الأكياس وغادرت دون أن أنطق بحرف. دخلت الحرش وصوت دعائها يرن في أذني. "

– بارك الله فيك يا رجل. ما فعلته لم يفعله إلا الكريم والشهم.

– كريم وشهم. وما قمت به إلا سرقة.

– أنا أعتبر أن ما قمت به هو قمة العدل والصّح.

– ربما.

– ألم تتناول شيئاً مما كان أمامك رغم ثقتي بأنك كنت في تلك اللحظة أكثر جوعاً من أولئك الأطفال.

– نعم صدقت لكني مذ سمعت بكاء هؤلاء المساكين همدت ثورة معدتي نهائياً حتى أنني نمت ليلتي تلك ون عشاء كوني أمضيت ليلتي مفكراً متسائلاً:كيف يستطيع إنسان أن يبذخ بينما يعيش بجواره فقير معدم؟

– هل عدت مرة ثانية إليهم؟

– نعم إذ كنت أراقب منازل الميسورين فأقوم بالسطو عليها وأحمل بهم ولأكثر من عائلة متماثلة ممن ينتشرون بكثرة حول هذه الجبال.

– ألم تثر انتباه أولئك القوم؟

– نعم وبنتيجتها زادت التهم الموجة إلـــي إثـــر تقـــدم أولئـــك وبشكاواهم وكانت أصابع الاتهام تشير إليّ . ولكل ما تقدم اضـــطرت دوائر الأمن لأن تزيد من قيمة المكافأة المالية لمن يدل أو يرشـــد إلـــى مكان إقامتي أو لمن يقبض عليّ. ولما علمت بالأمر التزمـــت جانـــب الحيطة والحذر في كل تحركاتي وتنقلاتي.

– معك حق وخصوصاً عندما يزداد عدد فعلة الخير،

– نعم لقد زاد عددهم بشكل فظيع وخصوصاً عندما كبرت قيمـــة المكافأة.

– ما الذي فعلته حيال ذلك؟. أي كيف كنت تتدبر أمورك؟

– كان لي أصدقاء كثر في كل مكان بالإضافة لما كان بعض من أهلي وأقاربي يقدمونه عندما تسمح الظروف.

– مؤكد أن الحصار اشتد أكثر على أهلك.

– نعم لقد تم وضع مراقبين لكل فرد من أفراد أســـرتي لرصـــد تحركاتهم على مدار الساعة لذا اكتفيت بما يقدمه لي أصـــدقائي وبمـــا تجود به الطبيعة عليّ.

.....

- ١٨ -

- لا يزال هناك متسع من الوقت إذ الزمن الفاصل بيننا وبين وجبة الغداء يكفي لتقوم بسرد قصة من قصص ونوادر ابن شقيقتك الشيقة.

- هز أبو ديب رأسه موافقاً حيث قام بتصحيح جلسته وهو يراقب سلطان عن كثب إذ بدت ملامحه تزداد شحوباً والوهن قد بدأ يسيطر عليه تماماً وحتى على طريقة كلامه.

لاح رأسه بأسى وبدأ كلامه قائلاً:

" كانت فترة تكاثر الطيور من السنة هي الأحب على قلب منهل حيث يتسنى له ممارسة هوايته بالصيد وكبس أعشاش الطيور على الأشجار وفي الجحور. "

- هواية جميلة كم مارسناها سابقاً.

- نعم صحيح عندما تكون ضمن هذا الحد، أما عندما تتوسع لتصبح مغامرة أو عملاً متهوراً، هنا تكمن الطامة الكبرى.

- كيف ذلك!..وهل كان يحول كل ذلك إلى عمل متهور؟

- نعم واسمع ما سأرويه لك وستكتشف ذلك بنفسك.

- عفواً أعتذر على المقاطعة.

- لا عليك يا رجل.

" ذات يوم وأثناء عودته من المدرسة مع ثلّة من أصدقائه. اقترح عليهم أن يذهبوا إلى الحرش كونه سمع زقزقة ناعمة تصدر من هناك، وهذا دليل على أن الطيور قد بدأت بالتفريخ.

وافق عدد من الصبيان فوراً حيث تم تحديد موعدٍ للقيام بذلك وغادر كل منهم إلى بيته على أن يعودوا في الموعد المحدد ويكون كل منهم قد أحضر ما كلف بجلبه من مواد. وكانت حصة منهل من تلك الحاجات هي السكين وبعض الأسياخ والملح وكذلك الكبريت ليشعلوا النار عندما يقررون شيّ الطرائد.

وصل إلى مكان التجمع وكان قد سبقه إلى هناك اثنان من أصدقائه. تفقد ما كان قد أحضره زميلاه معهما، ريثما يجتمع البقية الذين لم يتقاعسوا عن ذلك إذ وعلى الفور حددت البقعة التي ستكون مكاناً لجلستهم، ومن ثم قاموا بتحديد شجرة كهدف لهم إذ كانت الزقزقة الصادرة منها كثيفة ومتنوعة وهذا يدل على أنها تحوي أكثر من عش ولأكثر من نوع من أنواع الطيور.

وبعد ذلك تحلقوا حول بعضهم ليتم تحديد من سيقوم بتسلق الشجرة ومن سيذبح العصافير ومن سينظفها.

وقع الخيار على منهل كونه صاحب خبرة في هذا المجال من ناحية. ومن ناحية أخرى لأنه لن يجرؤ أحدٌ منهم على منافسته، لذا وافق الجميع بدون تردد.

حتى أضخمهم جسماً حنى ظهره ليصعد منهل عليه ومن هنـــاك يضع رجله على أول غصن. وما أن رفع قدمه تلك حتى صار في بداية الطريق حيث قام بإحاطة جذع الشجرة بذراعيه الاثنتين وأخذ يتــسلق بهدوء.

وكلما وصلت يده إلى عش كان يقوم بإلقــاء الأفــراخ بعــد أن يذبحها لأصدقائه ليتولوا أمرها بدورهم.

ظل يصعد هكذا بنشوة واضحة كون كل حركة مــن حركاتــه كانت موفقة إذ قام حتى تلك اللحظة بتفريغ ثلاثة أعشاش وعندها صاح بأعلى صوته قائلاً:

– أنا سيد من تسلق الأشجار وملك من كبس أعشاش العصافير.

وهو بحالته تلك داس أثناء صعوده على غصن طري لم يستطع تحمــل وزنه فانكسر في اللحظة التي لم يكن فيها قد أحكم فيها شــبك ذراعيــه حول الجذع لذا هوى وكانت النتيجة كــسر فــي ذراعــه ورضــوض وجروح غطت أنحاء جسده كافة. ألزمه ذلك المكوث في البيت ثلاثــة أشهر مما أدى لرسوبه في صفه الأمر الذي أدخل القنوط والكرب إلــى نفوس هيئة التدريس إذ توجب عليهم تحمله عاماً آخر."

– أنت محق فيما قلته.

– ألم أقل لك.

– نعم لأن الشخص الذي يحول أي عمل أو هواية إلى مغــامرة تصل إلى حد التهور، فتلك مشكلة.

– صحيح لأنه كان يقلب كل شيء رأساً على عقب ويحول لحظات المرح إلى تعاسة.

– مشكلة حقيقية يعيشها كل من يحيط بذاك الولد وبالأخص والدته.

– نعم كان الله في عونها.

دخل المستخدم كعادته في مثل هذا الوقت دافعاً عربة الطعام أمامه وقام بتوزيع الحصص دون أية كلمة.

تناولا طعامهما بصمت هما أيضاً، وعندما فرغا من ذلك توالى على دخول الغرفة عددا من المستخدمين إذ قام كلٌّ بواجبه وغادر كأنه آلة برمجت هكذا. وبعد أن غسل أبو ديب قام بجلب وعاء وضعه أمام سلطان ثم بدأ بصب الماء على يديه حيث نظفهما بالصابون جيداً ومن ثم ناوله كيس المناديل الورقية كي يجففهما.

– شكراً لك أبا ديب..هذا كثير جداً.

– العفو فما قمت بغير الواجب.

– أستطيع الانتقال إلى الحمام بمفردي.

– أعلم بذلك ولكن يستحسن أن تبقى هادئاً هذه الفترة كي تتسارع عملية شفاء جرحك.

– الله هو المعين والشافي.

– ونعم بالله.

في هذه اللحظة دخل إبراهيم وكان يحمل بيـــده جهـــاز راديـــو صغير.

– السلام عليكم.

– وعليكم السلام، كيف حالك يا إبراهيم..قالها أبو ديب.

– الحمد لله على كل حال..ردّها إبراهيم وهو يحاول ضبط مؤشر الراديو.

– ما الذي تبحث عنه في جهازك هذا؟

– عن إذاعة لندن.

– لماذا؟

– لأنها تذيع موجزاً لآخر الأنباء في مثل هذا الوقت.

عندها تطلع أبو ديب إلى ساعته وتذكر أنه كان ينتظر بـــث ذاك الموجز في مثل هذا الوقت سابقاً.

– ألم ينته دوامك بعد؟...سأله سلطان.

– نعم بعد قليل، لكني لا أستطيع المغادرة قبل وصـــول زميلـــي البديل لذا جئت لأتشرف بلقائكم وبنفس الوقت أترك لكم هـــذا الجهـــاز حتى يوم الغد.

– شكراً لك على كل حال يا سيد إبراهيم فرحاً بهذه المبادرة.

وبعد أن غادر إبراهيم الغرفة استلقى كلاهما في فراشه مستسلماً لرقاد جلب معه غفوة لذيذة بعد تلك الوجبة غير الشهية.

وعندما استيقظ سلطان كان أبو ديب يسحب من مشربه نفساً عميقاً وهو ينظر إلى تلك الجبال العالية والبعيدة. وبين الحين والآخر كان ينزل بنظره ليراقب حركة من في المكان من زواره ومستخدميه حيث كانوا يسعون كل إلى هدفه بكل هم ونشاط.

- مساء الخير أبا ديب.
- مساء النور، كيف كانت قيلولتك؟
- الحمد لله أشعر بشيء من الراحة حالياً.
- إن شاء الله يدوم شعورك هذا وتكون حالتك بتحسن مستمر.
- سمع الله منك.
- لا شيء كثير عليه.
- نعم صدقت...اجلس وحدثني بالذي حدث بعد أن كسرت يد منهل وأصيب بكل تلك الجروح.
- نعم يا سيدي الكريم اسمع ما تبع تلك السقطة:

" وهو يتعافى من ذلك حيث كان يسير في ردهة البيت وذراعه مربوطة إلى رقبته شعر بدوار شعر بدوار وانقباض وشدٍّ في عروق رقبته بحيث جحظت عيناه وبدأ الزبد يظهر من أطراف فمه ثم سقط مغميا عليه، تراكض كل من كان في المنزل ولحسن حظه كان خاله حمود يقوم بزيارتهم لذا وبأقصى سرعة قام بنقله إلى مشفى المدينة، هناك وعندما استعاد وعيه فتح عينيه ليشاهد جميع أفراد أسرته متجمعين فوق رأسه والقلق بادٍ عليهم.

دخل الطبيب وبعد أن قام بفحصه جيدا طلب من أبي أحمد أن يرافقه إلى حيث مكتبه.

رافق أحمد والده إلى ذاك اللقاء حيث سمعا من الطبيب تقريراً شفوياً عن حالة منهل والتي شخصت على الشكل التالي كما قال الطبيب:

– بعد كل الفحوصات والتحاليل وكذلك الصور التي أجريت للدماغ تبين لنا أن ولدكم مصاب بالصرع وهذا لعلمكم مرض لا شفاء تام له إذ يتوجب على المريض تناول الدواء مدى الحياة، وعلى المحيطين به الالتزام بالتعليمات كي نتمكن من تلافي الآثار السلبية لهذا المرض.

عاد أبو أحمد وولده إلى حيث كان منهل وجميع أفراد الأسرة الذين تحلقوا حولهما مستفسرين عن حالة منهل الذي أنصت جيداً محاولاً التقاط كلّ همسة مما يقال.

وبالفعل استمع لكل حديث رغم حرصهم الشديد حيث ركز وبشكل خاص على أعراض المر ض التي حفظها جيداً وصار يمثلها كلما حشر في موقف حرج. "

– مسكين ذاك الولد..أتعرف أنه مثير للشفقة رغم شقاوته.

– نعم فهو كذلك إذ كان الناس وبالرغم من كل تصرفاته العدوانية والمتهورة يحبونه إذ كان بأسلوبه السلس يحول مزاج من يقابله ويقلبه

رأساً على عقب بحيث يعود من كان يضمر له السور مرتاحاً ومقتنعاً بأن ما صار لن يتكرر مطلقاً.

– هذا ولد والله هو العليم سيكون من قصار العمر.

– لم تقول ذلك؟

– لأن من تجتمع فيه كل تلك الصفات بالتأكيد هو مميز والمميزون غالباً ما يكونون من ذوي العمر القصير.

– هذا علمه عند الله.

– نعم صحيح وبالرغم من تمنياتي له بالهدوء والتعقل وطول العمر إلا أني لا أظن ذلك.

– ربما. لا أدري...قالها أبو ديب وهو يمط شفته السفلى علامة عدم الرضا.

– المهم قل لي هل التزم الهدوء بعد الذي حدث له؟

– نعم لقد التزم ذلك بعد أن شفي لفترة من الزمن نال من جرائها استحسان الجميع إلا أن الطبع غلب التطبع.

- ١٩ -

حضر وقت الزيارة في ذاك اليوم ديب وكان برفقته شاب رزين، سلما على أبي ديب وجلسا، عندها انبرى أبو ديب معرفاً :

- هذا ديب ولدي البكر وذاك أحمد ابن أختي.
- أحمد شقيق منهل؟
- وهل تعرف منهل؟...قالها أحمد
- نعم أعرفه من خلال نوادره.
- وهل وصلت أخباره إلى هنا أيضاً؟
- نعم بعض منها مما كان قد رواه لي صديقي أبو ديب.
- نعم يا خال لقد قمت بسرد بعض من مغامراته من باب العلم بالشيء والتسلية.
- تمام!..يعني أن منهل صار مشهوراً؟
- يحق له أن يكون كذلك لأن ما يفعله يصلح أن يبث كحلقات تلفزيونية مسلية.
- هذا ما كان ينقصه..إن حدث ذلك فلن يستطيع أحدٌ تهدئته بعدها
- لماذا؟
- لأنه يجب أن ينفذ كل ما يريد وعلى مرأى ومسمع الكثيرين من باب حشد التأييد والانتشار، فما بالك إن بث ما يفعله على شاشة التلفزيون وعندها تقع الطامة الكبرى.

– نحن نمزح يا رجل فما هو إلا ولدٌ شقيٌّ.

– تحليل سليم، وبالرغم من أننا قد توصلنا إلى هذه القناعة لكــن وبالرغم من أننا بذلنا في سبيل ذلك جهداً لإصلاح وتقويم ذلــك إلا أن كل ذلك باء بالفشل كون ما يعتمر نفسه كان خفيا على مداركنا لذا كان وما زال يوقعنا بالمشاكل.

– المهم هل أقدم مؤخراً على فعل شاذ؟

– نعم لقد نفذ فكرة لم تخطر على بال أحد من قبل.

– ما الذي فعله؟

– أقام حفلة شواء في الحرش.

– شواء!

– نعم لقد ذبح لابن خاله حيان دجاجة سمينة.

– ومن أين أتى بها؟

– "اسرد لنا ما حدث ..." قالها سلطان وهو يحاول تسوية جلسته كي يواكب أحمد أثناء سرد قصته.

– " صباح يوم الجمعة الماضي كان منهل يقــوم كعادتــه بمطاردة الحشرات والفراشات، وكان برفقته آن ذاك ابن خاله حيان إذ أخذا يوسعان دائرة ركضهما وتجوالهما حتى صارا بالقرب من منــزل أبي أكرم. عندها لفت انتباههم حبال دخان تتصاعد من خلف الجــدار، قادهما الفضول لمعرفة ما يجري هناك حيث قاما بتسلق الجدار ليشاهدا منظراً يثير اللعاب حيث كانت عائلة أبي أكرم مجتمعــة حــول مائــدة

عامرة، وبالقرب منها كان كل من أكرم وشقيقه يقومان بشيّ قطع الدجاج على جمر منقل وضع في باحة المنزل. أثار ذاك المشهد خياله وكان قد أسال من قبل لعابه.

نزلا وغادرا المكان وسط شرود منهل الذي لمعت في ذهنه فكرة قرر تنفيذها في الحال.

- حيان..ما هو رأيك بدجاجة مشوية؟
- يا سلام ولكن من أين لنا ذلك؟
- ما رأيك بالذي يحقق لك ذلك؟
- أقبّله بين عينيه.
- عندي فكرة إن وافقت ننفذها في الحال.
- موافق أيّاً كانت كون الفكرة راقت لي.
- اقترب لأسمعك فكرتي.
- هات أسمعنا.
- هل عندكم ذرة صفراء؟
- نعم لدينا الكثير منها.
- هل حصلت على مصروفك لهذا اليوم؟
- نعم.
- وكم بقي معك منه؟
- ثلاث ليرات.
- ممتاز فهي تكفي.

– تكفي لماذا؟..قالها وهو يتحسس جيبه.

– تكفي لشراء بضع أمتار من خيط النايلون كالذي يستخدم في ضم حبات المسبحة.

– وما حاجتنا إليه؟

– سأقول لك بعد أن تذهب وتشتريه، ولا تنس إحضار بعض حبوب الذرة وإبرة كبيرة الحجم.

افترقا على أن يعودا ويلتقيا في المكان نفسه بعد ذلك، وكان حيان قد بدت على ملامحه علامات الاستغراب رغم اقتناعه بأن كل ما يقترحه منهل مسلٍّ وفي بعض الأحيان مفيد.

تسلل منهل إلى البيت مغافلاً أمه المنشغلة بأعمال البيت وقصد المطبخ حيث وضع عدة أرغفة من الخبز داخل كيس من النايلون بالإضافة لبعض الخضروات من صندوق البراد ثم قام بملء قارورة ماء بالإضافة لبعض من الملح كان قد لفها بورقة على شكل مثلث، وغادر كما دخل دون أن يشعر به أحد من سكان البيت، حتى جدته التي كانت لم تفتها فائته. وصل صخرته وانتظر حيان الذي لم تطل غيبته.

– هل أحضرت كل ما طلبته منك؟

– " نعم.."

قالها وهو يناوله كيساً صغيراً، فتحه وتفقده وهو يهز رأسه استحساناً ثم قال:

– تعال اجلس وراقب.

تبعه حيان دون أية معارضة ونظره وكل تفكيره كانا قد انحصرا فيما سيفعله منهل بتلك الأغراض.

جلس منهل وفتح الكيس وفتش بين حبات الذرة ليختار أكبرها حجماً. أمسك بها بسبابته وإبهامه ثم وبواسطة الإبرة قام بإحداث ثقب وسطها، استهلك ذاك العمل بعض الوقت كي ينتهي، ثم قام بإدخال طرف خيط النايلون فيه ثم عقده عدة عقد، ومن بعدها شدّ الحبة والخيط ليتأكد من متانة تلك العقد، عندها أشار لحيان بأن يتبعه.

سارا معاً، وحيان حتى هذه اللحظة كان يجهل ما الذي سيفعله منهل في النهاية.

وصلا أطراف القرية حيث البيادر ،المكان المفضل لدواجن القرية الساعية لرزقها، تقدما حتى وصلا تلّة صغيرة صخورها ظاهرة، اختارا أكبرها وانبطحا خلفها يراقبان بضع دجاجات كانت تنبش الأرض بأقدامها بحثاً عن حبوب كانت قد طمرت أو ما يظهر من ديدان وحشرات.

اقتربت تلك المجموعة قليلاً من المكان الذي كمنا فيه، عندها قام منهل برش حبات الذرة بما فيها تلك التي ربط بها الخيط.

استدرجت تلك الحبات الدجاجات حيث قامت بالتقاطها، انتظر قليلاً حتى بدأ الخيط يتحرك، مدّ رأسه وإذ به يرى دجاجة تهز رأسها.

شد الخيط بهدوء ثم أرخاه قليلاً ومن بعد ذلك بدأ يسحبه بشيء من القوة حتى ظهرت تلك الدجاجة مرجعة أجنحتها إلى الخلف دون أن

تستطيع حتى الصياح لوجود تلك الحبة والخيط في حلقها. استمر بسحب الخيط حتى أمسك بالدجاجة وسط ذهول حيان واندهاشه.

حملها تحت إبطه وبكل رشاقة غادرا المكان باتجاه الحرش ملعب صباه، وقفا وسط الحرش قليلاً محاولين التقاط أنفاسهما وهما يجيلان النظر في المحيط حتى حددا المكان المناسب، وكانت حفرة متوسطة العمق والتي نتجت عن انتزاع صخرة كبيرة أثناء زراعة الحرش.

نزلا إلى الحفرة ووضعا الأغراض على الأرض ثم أمسك منهل الدجاجة من جناحيها اللذين قام بجمعهما ليدوس عليهما بقدمه ثم أخرج السكين من جيبه، وبعد ذلك أمسك رأس الدجاجة من الخلف وشده إلى الأمام ليسهل عليه ذبحها، مر السكين ذهابا وإياباً بسرعة حيث سال دمها غزيراً.

بقي ممسكاً بها حتى تلاشت حركتها نهائياً، عندها ترك رأسها وقام برفعها من أرجلها عالياً ليتأكد من أنها قد فارقت الحياة نهائياً.

كل ذلك وحيان ينظر إليه مشدوهاً بالذي يقوم به ومعجباً ببراعته الفذة.

بدأ منهل بنتف الدجاجة فيما كان حيان يقوم بجمع بعض الأغصان الجافة وقليلاً من أوراق الشجر اليابسة حيث قام بجمعها على شكل كومة ثم قام بإحضار قطعتي حجر متساويتين ووضعهما على جانبي تلك الكومة.

وبعد أن أنهى منهل تنظيف الدجاجة، قطعها إلى قطع متساوية تقريباً ثم قام برش الملح عليها ثم جمع كل قطعتين من اللحم بعود قاس وبعد أن أشعل النار وضع تلك الأثفاد فوقها وعلى الفور بدأت تحدث أصوات فرقعة يحدثها الملح عند تعرضه للنار

أخذ منهل يقلب الأثفاد بالتتالي إلى أن احمرّت ونضجت قطع اللحم عندها بدأا بالأكل بكل لذة حتى أتم على آخر قطعة من ذاك اللحم المحمر. "

– يا لطيف...ما هذا؟..فعلاً إنها فكرة لم تخطر ببال أحد من قبل.

– ونحن قلنا ذلك عندما سرد علينا القصة.

– ألم يكتشف أمرهم؟

– كلا لأنهم لم يتركوا أثراً خلفهم لذا ظن أصحاب الدجاجة أنها كانت وجبة لثعلب عابر.

عندها انبرى سلطان قائلاً:

– لقد أثرتم حفيظتي وهيجتم ذاكرتي لذا سأروي عليكم جميع ما حدث معي ذات يوم.

صحح أبو ديب من جلسته كونه يعرف مسبقاً أنها حكاية شيقة قام بذلك وهو يغمز بولده وابن أخته بذلك.

- ٢٠ -

ذات يوم كان الجو آن ذاك لطيفاً مشجعاً على القيام بجولة في رحاب ذاك الجبل، لذا تجهزت تماماً وغادرت المكان بعد أن حملت بندقيتي ومطرة الماء محاولاً أن أوسع نطاق تحركي لأحظى بالفائدتين.

الأولى أنشط نفسي والثانية أستكشف المكان تحسباً للطوارئ.

وأثناء سيري في تلك الدروب الوعرة كنت أقطف ثمار ألآس والزعرور وغيرها من أصناف ذخر بها ذك الجبل، وكانت لذتي الكبرى عندما وقعت على شجرتي أجاس معمرتين وكانتا تحملان بعض الثمار الناضجة وكان بالقرب منهما شجرة تفاح بري ثمراتها صغيرة الحجم لكن مذاقها كان فريداً

- عم كنت تبحث بالذات؟..قالها أحمد.

- عن كهف أجعل منه مقراً إضافياً واحتياطياً ألجأ إليه عند اللزوم.

- هل وجدت ما كنت تبحث عنه؟..قالها ديب.

- في ذاك المكان لم أجد شيئاً فيه ولكن فيما بعد وجدت عدة أمكنة تصلح لأن تتخذ كمأوى، والأهم من كل ذلك أني وسعت دائرتي أكثر بحيث صار ذاك الجبل أكثر وضوحاً بالنسبة لي.

وبينما كنت أقوم بجولاتي هذه وإذا بي أسمع رجع كلام قادم من مكان في المحيط الذي كنت فيه، دققت قليلاً وأنا أصغي في محاولة مني

لمعرفة مصدر الصوت، بقيت هكذا فترة لا بأس بها حتى تمكنت من ذلك.

– من أين كانت تأتي تلك الأصوات؟..قالها أبو ديب

– حسب ما بدا لي للوهلة الأولى أنها كانت تأتي من مكان تشابكت أغصان شجرات مشكلة دغلة صغيرة

اقتربت أكثر، وكان الصوت يتّضح أكثر إلى أن صار ذاك الحوار مفهوما بالنسبة لي.

– ما الذي تضمنه ذاك الحوار؟..قالها ديب.

– كان وحسب ما وصل لمسمعي حواراً حاداً بين عدة أشخاص فحواه أن هناك أمراً معيناً يجب مداراته، وكانت الآراء بخصوص ذلك متضاربة.

– ما الذي فعلته حينها؟..قالها أحمد.

– اقتربت أكثر وتداريت خلف شجرة غطت كل جسدي.

– وفي النهاية هل توصلت لأي شيء بخصوص ما كانوا قد اختلفوا بشأنه؟.

– نعم، وبعد أن انتظرت طويلاً حتى أجمعوا على فكرة واحدة.

– ما الذي اتفقوا عليه؟..قالها أحمد.

– أن يتم دفن ما كانوا قد أحضروه في نفس المكان على أن يعودوا لاحقاً ليتقاسموه.

– ما كان ذاك؟..سأل أبو ديب.

– كان شيئاً أقرب ما يكون لكنز نادر هذا مـــا عرفتـــه بعـــد أن غادروا.

حيث دخلت المكان وكان أشبه بمغارة علي بابا المعروفة إذ كان الباب من الحجر ولكن تمكنت من تحريكه بسهولة بعد أن قمت برفـــع أغصان كانت قد تدلت طبيعياً مشكلة ستاراً كثيفاً له.

– ما كان ذاك الكنز؟

– مجوهرات وحلي ذهبية وغيرها من نفائس ما ترتديه النساء

– كيف تصرفت حيال ذلك؟

– شلّت تفكيري تلك التحف لذا بقيت متسمراً في مكاني لفتـــرة، إلى أن ألهمني الله لفكرة ما.

– ما هي؟

– أن أقوم بإبلاغ السلطات بالأمر.

– كيف وأنت مطارد وملاحق من قبلهم؟..سأله ديب

– هذا ما كان من أهم الأسباب التي دفعتني للتريث ريثمـــا أجـــد مخرجاً لذلك.

– هل وجدته؟..قالها أحمد.

– نعم إذ حسمت أمري وعزمت على أن أقوم بذلك شخصياً، إلا أني تراجعت في آخر لحظة.

– لم أردت أن تحشر نفسك في مثل هذا المأزق وأنت في غنـــى عن كل ذلك؟..قالها أبو ديب.

– حسبت في البداية بيني وبين نفسي أن أستفيد من جراء ذلك حيث سيمحو ما سأقدم عليه كل ما تعلق برقبتي من تهم، إلا أني وبلحظة تجلٍّ بان لي الأمر على غير ما كنت قد حلمت به لأن ما اتهمت به من موبقات لن يمحوها لا هذا العمل ولا غيره، والذي سأحصل عليه هو عزلي في سجن لأكثر من عقد من الزمن.

– ما الذي فعلته إذاً؟..قالها ديب.

وأنا بقمة انشغالي بالأمر تداعت بمخيلتي صورة تلك المرأة الفقيرة وأطفالها العراة الجياع، استغربت ذلك في البداية إلا أنني عدت وفكرت فيه محدثاً نفسي.

– لم لا أفيد تلك المرأة الفقيرة مما وقعت عليه صدفة؟

– تفيدها!..قالها أبو ديب مستغرباً.

– نعم إذ أستخدمها في عملية الإبلاغ فبذلك تحصل على الحصة القانونية، وبحسب ما شاهدت سيكون نصيبها من جراء ذلك كبيراً تحسن به حالها وتضمن مستقبل أطفالها.

– فكرة ممتازة...هل نفذتها.سأل أبو ديب.

– نعم حيث قمت فوراً بحمل بعض من تلك الدرر وغادرت إلى حيث تقطن تلك السيدة مساءً

– لم حملت معك تلك المجوهرات؟

– كعينات تقدمها للجهات الأمنية كي يحملوا الأمر على محمل الجد

وبالفعل وصلت قبالة بابها بعد أن رصدت المكان جيداً. قرعت الباب بطريقة كانت قد خبرتها مني سابقاً.

فتحت الباب وكان أطفالها يقفون خلفها إذ حسبوا أني أحمل لهم طعاماً كالعادة.

– مساء الخير يا أختاه.

– مساء النور يا أخي.

– هل لي بالدخول قليلاً لأحدثك بأمر هام؟

– تفضل يا أخي..أهلاً وسهلاً

دخلت وتبعني أطفالها الذين كان قد بدا عليهم الإحباط إذ أني لم أكن أحمل معي شيئاً هذه المرة، لذا انزووا بعيداً في زاوية الغرفة بحيث صار من العسير عليهم سماع ما سأسرّه لوالدتهم همساً.

– اسمعي يا أختي لقد أتيت الآن بأمر هام أرجوا أن تفكري جيداً قبل أن تجيبي، وصدقيني سيكون ذلك في صالحك أنت وأطفالك.

– قل ما شئت فأنت أخ كريم.

– اسمعي ما سأقوله واحفظيه جيداً لتنفذيه بدقة.

– قل ما تريد لأنك بدأت تشغل بالي.

– أريدك أن تذهبي إلى المدينة غداً وتراجعي مركز الشرطة هناك لتبلغيهم بأمر هام.

– لن أفعل ذلك مطلقاً.

– ترفضين قبل أن تعلمين ما الذي ستقولينه.

– تريدني أن أبلغهم عن مكان وجودك لأحصل على تلك المكافأة اللعينة.

– لا يا أختي لقد شطّ خيالك وبعيداً.

– صحيح...إن كان الأمر كذلك لا مانع عندي، تفضل قل ما تريد وسأنفذه بدقة.

– ممتاز..اسمعي جيداً وخذي هذه ..– وناولتها صرة من القماش

– ما هذه؟

– هذه صرة تحوي بعض المجوهرات..

– مجوهرات.!! قالتها وهي ترميها في حجري كمن خاف أن يلسعه شيء.

– لم خفت هكذا، اسمعيني حتى أنهي كلامي وبعدها قرري... كل ذلك والأطفال يراقبون ما يحدث مرتابين مرتبكين كونه لأول مرة يدخل بيتهم رجل غريب ومنذ زمن بعيد.

– عفواً..اعذرني فأنا مرتبكة جداً، تفضل تابع.

– لا عليك أعذرك لكن المهم وما سأقوله لك .

– ما هو؟

– اذهبي إلى هناك واطلبي مقابلة رئيس ذاك المركز بالذات ولا أحد غيره.

– لم هو بالذات؟

– لأنه وكما سمعت عنه من أولئك الذين يتمتعون بسمعة طيبة

– وإن لم أتمكن من مقابلته بالذات.

– خذي موعداً على أن تقابليه شخصياً مهما كانت الأسباب وأيّاً كانت الضغوط التي قد تمارس عليك.

– ما الذي سأقوله له؟

– قدمي له هذه الصرة وقولي له أنك عثرت على كنز وهذه عينة منه ودليه على المكان

– أين ذاك المكان؟

– سأدلك عليه وستعرفينه تماماً كونك تقطنين هذه المنطقة منذ زمن بعيد.

– ما الذي سأستفيده من كل ذلك، لم لا آخذه أو نأخذه معاً؟

– لا نستطيع ذلك كون موجوداته ثمينة جداً بالدرجة الأولى وبالدرجة الثانية فهو ملك للبلد وليس من حقنا الاحتفاظ به.

– لا أدري، ولكن قل لي ما فائدتي من كل ذلك؟

– ستعطيك الدولة نصيباً قانونياً وبالتأكيد سيكون كبيراً.

– أصحيح ما تقوله؟

– صدقيني هذا ما سيحصل.

– إذاً أنا موافقة ولكن عليَّ معاينة موقع ذاك الكنز كي لا أتوه أثناء مرافقتي لهم.

– معك حق، غداً وعند شروق الشمس سأكون بانتظارك عند مدخل الحرش.

– اتفقنا...وعندها غادرت كما حضرت.

– وهل أتت بالفعل؟...قالها أحمد.

– نعم وقد سرني ذلك كوني اكتشفت فيها امرأة قوية الشخصية.

– ما الذي حدث عندها؟..قالها أبو ديب.

قدتها إلى مكان الكنز حيث رأت بأم عينها كل شيء، وبالرغم من دهشتها غادرت مسرعة إلى حيث كلفتها.

– ما الذي فعلته أنت بعد ذلك؟..قالها ديب.

– كمنت في مكان آمن وغير بعيد بحيث راقبت كل ما حدث بعد ذلك.

– رأيت كل شيء؟..قالها أحمد.

– نعم شاهدت سيارات الشرطة التي كانت تتقدمها سيارة سوداء.

انتشر عناصر الشرطة في المكان بينما نزلت تلك المرأة من تلك السيارة ثم ما لبث أن ترجل شخص وقور، استقبله ضابط الشرطة باحترام وبعد ذلك طلبا من المرأة أن تدلهم إلى مكان الكنز المزعوم.

راقبت الدهشة التي بدت على وجوههم وهم يحملون ما وجدوه هناك.

– وهل نالت تلك المرأة نصيبها فعلاً؟

– نعم.

– كيف علمت؟

– لأني كنت أراقب كل شيء من بعيد كوني لم أعد أستطيع الاتصال بتلك المرأة إطلاقاً.

– لماذا؟

– لسببين الأول أن تلك المرأة أصبحت مراقبة والثاني لأن ذاك الكنز لم يكن كنزاً بالمعنى التقليدي للكلمة.

– ماذا كان إذاً؟

– كان مالاً قد حول إلى معادن ثمينة بغيه تهريبها خارج البلد.

– من كان وراء كل ذلك؟

– أناس ممن باعوا ضمائرهم من أجل منفعة تطالهم وبعض من أتباعهم.

– ما تأثير ذلك على البلد؟..قالها أبو ديب.

– ألا تعلم أن تلك الأرصدة إن غادرت البلد بهذه الطريقة ستقع الكارثة إذ ستضعف القيمة الشرائية للعملة المحلية وبالتالي سيعم الغلاء.

– ألهذا الحد؟

– بل قل أكثر من ذلك، أو تظن بأن ما يحاك لنا بالأمر السهل.

– وهل تم القبض على هؤلاء اللصوص؟

– لا أدري، ولكن ما تم أصعب بكثير عليهم من السجن ذاته.

– معك حق لأن المال عند هؤلاء أثمن من الروح..قالها أحمد

– أرأيت، بهذه الطريقة تمت معاقبتهم.

– فعلاً إنها لعقوبة قاسية..قالها أبو ديب.

– سأستغل وجود هذين الشابين وأقص عليكم قصة جديدة كون ما حدث معي سابقاً بدأ يتوارد تلقائياً إلى ذهني، لذا وكما يقول المثل:" إن درّت العنزة احلبها ".

– ما الذي تقوله يا رجل، فأنت غزال شارد.

– شكراً أبا ديب، لكن المثل لا يضر أحداً.

– نحن نمرح فقط.

– أعلم ذلك فالشعور متبادل بيننا دائماً.

– إن شاء الله سيدوم ما دمنا أحياء.

– آمل ذلك..اسمعوا الآتي:

كالعادة وبينما كنت أتجول تجاوزت الجبل الذي مكثت فيه لأكثر من عامين حيث وقعت على صخرة تحف جرفاً عميقاً إذ كان بداية لواد سحيق يفصل بين سلسلتين من الجبال.

وأنا أجيل النظر في تلك السلسلة المقابلة، لفت انتباهي منطقة في سفح ذاك الجبل وكانت غامقة اللون أكثر من سواها، دققت النظر فيها إلا أني لم ألحظ شيئاً أو أستشف ما الذي تكونه تلك البقعة، لذا قررت وبدافع الفضول أن أذهب وأستكشف المكان.

بالفعل وقبل شروق الشمس بساعات حملت بندقيتي وكل متعلقاتي بحيث لم أترك أي أثر ورائي ليدل عليّ، وكأني كنت أقصد المغادرة إلى هناك بشكل نهائي، بحيث غادرت منطقة الجبل والشمس لم تباشر

إرسال أشعتها بعد، نزلت الوادي مجتازاً ذاك المكان بين الصخور تمويهاً لحركتي

فاجأتني أشعة الشمس الأولى وأنا في أسفل سفح ذاك الجبل لذا أسرعت في مشيتي كي أتوغل داخل تلك الغابة وأتوارى هناك قبل النهار.

وبالفعل تسلقت صعوداً إلى أن وجدت مكاناً كثرت فيه الصخور اخترت إحداها وكانت تحوي تجويفاً يتسع لي. جلست فيها بعد أن خلعت نعليَّ واستبقيت لبعض الوقت مستمتعاً بأشعة الشمس التي أعادت لجسدي نشاطه المتآكل نتيجة سيري لتلك المسافة الكبيرة.

وبعد أن تناولت قليلاً من الطعام حملت حاجاتي وغادرت باتجاه تلك البقعة الغامقة. استغرق مني للوصول إلى تلك المنطقة من سفح ذاك الجبل أكثر من ساعتين تقريباً.

وصلتها وكانت تحوي شجراً صغير الحجم كثيف الأغصان والأوراق ومتشابكاً لدرجة أنه كان بمجموعه يشكل مضلة هائلة الاتساع إذ يستطيع الإنسان السير تحتها لساعات دون أن تصله أشعة الشمس.

بحثت في ذاك المكان عن زاوية تصلح لتكون مأوىً لي، ولكني لم أعثر على بغيتي مطلقاً، وهذا ما أدخل القنوط إلى نفسي كوني سأضطرُّ للبحث خارجاً.

جلست قليلاً وبعدها عزمت على متابعة البحث علني أهتدي لمكان مناسب قبل حلو الظلام. بالفعل وجدت ضالتي بالصدفة المحضة إذ

لفتت انتباهي صخرة كبيرة كانت شجيرات العليق قد غطتها كلياً تقريباً. درت حولها من جهتها الغربية الشمالية وعندما صرت شرقها وجدت ما يشبه الفوهة وكانت مغطاة كليا بتلك الأغصان الشائكة.

قصصت تلك الأغصان بسكين كانت معي لأتبين أنها باب لمغارة شكلت طبيعيا في قلب تلك الصخرة العملاقة، والتي كانت قد أنارتها أشعة شمس ظهر ذاك النهار .

نظفتها تماماً ثم قمت بإحضار بعض الأغصان وجمعتها بواسطة عروق من تلك الأشجار التي تشبه الحبال عادة، صانعاً منها باباً متحركاً.

– ها أنت أخيراً قد حظيت بمأوى.

– نعم يا سيد أحمد وكانت فرحتي كبيرة جدا نتيجة لذلك، لكن ما كان قد خبأه لي القدر لم أكن قد حسبت له حساب.

– لماذا؟..ما الذي حصل آن ذاك؟

– حصلت أمور عدة وسأروي لكم أهمها لأنها غيرت مسار حياتي في تلك البقعة من الجبل.

ذات يوم وبينما كنت أقوم بجولتي المعتادة، لفت انتباهي صوت هدير ضعيف قادم من جهة الغرب. تقدمت قليلاً لأستوضح الأمر وإذا بي أشاهد سيارة جبلية كالتي يستخدمها الصيادون في العادة، وكانت تئن وهي تتسلق طريقاً وعراً، تابعته وكان يمر تقريباً من جانب الدغلة التي كنت أستوطنها.

تراجعت خشية أن يراني من فيها وكمنت مراقباً ما سيحدث.

– وبالفعل استمرت تلك السيارة بالصعود متجاوزة مكاني بمسافة لا بأس بها ثم ما لبثت أن انحرفت لتدخل تلك الغابة ومن ثم وقفت وأُطفئ محركها.

شدني الفضول كثيرا لدرجة أنه دفعني لاستكشاف الأمر حيث سرت متواريا خلف الأشجار إلى أن أصبحت قريباً من مكان وقوف تلك السيارة.

اقتربت أكثر حتى صار ما يتبادله أولئك الأشخاص من حديث يصلني واضحاً جداً، إذ كانوا أربعة أشخاص صبيتان رائعتا الجمال ترتديان ثياباً ضيقة جداً وكان ما يستر القسم العلوي من جسدهما عبارة عن قميص لا يتجاوز طوله الشبر، إذ بان نصف ظهرهما وبطنهما تقريباً، أما الرجلان فكان أحدهما يرتدي ثياباً عربية تقليدية ويعتمر على رأسه كوفية بيضاء وعقالاً أسوداً وكان الجميع يفترشون بطانية صف في وسطها بضع زجاجات وعدة أطباق كرتونية لفت بورق فضي.

بقيت هكذا فترة أراقب ما يحدث فلم ألحظ شيئاً مريباً عدا بعض اللمسات والاحتكاكات التي كان يقوم بها ذاك الأعرابي وكذلك تلك الحركات المثيرة التي تقوم بها تلك الفتاتان.

عند ذلك قررت مغادرة المكان لأن الأمر لا يخصني ولا يعنيني، إلا أنني عندما حاولت الوقوف سمعت بعض الهرج والمرج تلفت وإذ بذاك الرجل قد قام بخلع غطاء رأسه وأخذ يصدر أصواتاً وهو يرقص

والكأس بيده، بينما دارت الفتاتان بكل غنج حوله، استمر الوضع هكـذا إلى أن تهاوى ذاك الأعرابي لاهثاً حيث قعدت إحداهن في حجره تقريباً وهي تقدم له كأساً كانت تحملها. شرب الكأس دفعة واحدة ولم يفت من الوقت إلا القليل حتى ارتخى تماماً وكأنه استسلم لنوم عميق.

عندها قام الشاب وبمساعدة كلتا الفتاتان بوضع كوفية ذاك الرجل على وجهه وبقيا هكذا متحلقين حوله بحيث سدا عليّ طريـق الرؤيـة تماماً

وكانت صدمتي الكبرى التي أحاسب نفسي عليها حتى الآن

– ألا وهي؟

– يا سيد أبو ديب عندما ابتعدوا عن بعضهم بعضاً رأيت شيئاً لم أكن أحب أن أشاهده إطلاقاً.

– ما الذي رأيته يا رجل أثرت فضولنا...قالها ديب.

– كانوا قد قضوا على ذاك الرجل خنقاً.

– لم قد فعلوا ذلك؟

– وقتها لم أكن أعلم إلا أنني لاحقاً علمت أنهم كانوا يستضيفونه عندهم وكان يحمل مبلغاً كبيراً من المال، لذا قاموا بقتله.

– كيف يستضيفونه ويقومون بقتله، ألا يخافون اكتشاف الأمر؟

طبعاً لن ينكشف أمرهم إذ إنهم كانوا ممن يتـسكعون فـي تلـك المحلات التي كانت وفي مثل هذا الوقت من العام تعـج بأمثـال هـذا الرجل الباحثين عن المتعة وبأي ثمن كان.

– بالرغم من كل ذلك فإن احتمال اكتشاف أمرهم وارد.

– نعم صحيح لو أنهم قاموا باصطياده من المحل، إلا أنهم اصطادوه وهو يغادر آخر الليل إذ قاموا بدعوته سرّاً إلى منزلهم وإن من قام بذلك تلك الفتاة التي كانت قد ناولته الكأس، ومن هنا بدأت مأساة ذاك الرجل.

– ما الذي فعلوه بعد أن قاموا بقتله؟..قالها أحمد.

– قاموا بلفه بالبطانية وحملوه كلهم إلى السيارة وغادروا إلى مكان قريب ذو شجر كثيف، حيث دخلوا بسيارتهم إلى هناك وقاموا بحفر حفرة ودفنوه فيها.

– كيف عرفت ذلك؟

– لقد تبعتهم خلسة.

– ألم يحسوا بوجودك؟

– إطلاقاً وإلا كنت قد أصبحت قاتلاً ودم ثلاثة أشخاص معلقاً برقبتي

– ما الذي فعلته إذاً؟

– انتظرت حتى غادروا، عندها نزلت وقصدت أقرب بيت من البيوت التي كنت أنقل إليها ما كنت أقتنصه من بيوت الأغنياء.

– لم فعلت ذلك؟..قالها أبو ديب.

– لأكلف أحدهم بالإبلاغ عن ما رأيت ليستفيد إن قامت أية جهة برصد مكافأة بخصوص ذلك.

– وهل فعل؟

– نعم وهو الآن ينعم بما آل إليه كون المكافأة التي رصدتها سفارة البلد الذي ينتمي إليه ذاك الرجل كبيرة جداً.

– أرى يا سيد سلطان أنك قد احتفظت بأكثر حكاياتك تشويقاً حتى حضر هذان الشابان.

– لا أبداً يا أبا ديب ولكن قصة منهل عن تلك الدجاجة قد هيجت ذاكرتي فحسب.

– أراك أصبحت تميز، وهذا شيء خطير.

– معاذ الله أن أفضل أحداً عليك، فأنت رفيق وحدتي هذه.

– أمتأكد أنت؟

– نعم والله شاهد على ما أقول.

– براءة..لقد صدقتك.

– إذاً أنت راض عني يا زميل استشفائي.

– كل الرضا والله أعلم كم أكن لك من محبة واحترام كونك من القلائل الذين أرتاح لهم في هذا العالم.

– أعلم ذلك لكن أريد أن أستفزك قليلاً كوني أحب رؤيتك وأنت منفعل.

– هكذا إذاً.

– نعم وافعل ما تشاء فأنا لدي حصانة الآن...وأشار إلى الشابين.

– نعم نحن ممن خلفه يا خال.

– حتى أنت يا سيد ديب.

– الوضع محرج يا والدي فالسيد سلطان شخص مميز ولا يمكن تركه وحيداً في الساحة.

– افرح يا عم، ها أنت قد كسبت الجولة.

– اعترف وانه هذا السجال.

– حسناً – وقام بغمز كلا من أحمد و ديب اللذان بادلاه الموقف بابتسامة –

– ما لكم أنتم الثلاثة من مفر أريد أن أستمع لإحدى نوادر منهل التي صرت بأمس الشوق لرؤيته والتعرف عليه.

– عليك بأحمد فهو يحفظ كل مشاغباته..قالها ديب.

– تفضل يا سيد أحمد، هات أسمعنا.

– أنت مصر إذاً.

– نعم، أجاركم الله شر الجلوس في المشافي كونها لا تعلم الإنسان سوى الكسل والاحتيال على الوقت لذا ترياني ووالدكم نبتكر كل يوم شيئاً جديداً نقضي به على الوقت.

– ولكن يا سيد سلطان نحن سنغادر بعد قليل لذا نرجو منك أن تسمعنا ما تحتفظ به في جعبتك كون لقاءنا التالي قد لا يكون قريباً

– معكم حق لأننا لا ندري إن كنا سنلتقي ثانية أم لا.

– إن شاء الله سنلتقي قريباً..قالاها معاً

– آمل ذلك..والآن اسمعوا جميعاً آخر حكاياتي لتتذكروني لاحقاً.

– تفضل سيد سلطان نحن في غاية السعادة لأننا تعرفنا عليك..أليس كذلك يا أحمد.

– نعم بكل تأكيد لأن معرفة الناس المميزين مكسب حقيقي.

– شكراً لكما اسمعوا جميعاً

– حل فصل الخريف وبالتالي مال الطقس للبرودة بشكل عام بحيث قل كثيراً وجود الثمار البرية وكذلك الطرائد، لذا صرت أوسع جولاتي آملاً أن أحظى بشيء أقتات به.

وذات مساء وبينما كنت أقوم بجولتي المعتادة وصلت إلى منطقة شبه مأهولة إذ كان هناك بضع منازل متباعدة كونها كانت بيوتاً للمزارعين الذين يلزمون أرضهم لفترات طويلة من العام.

وكانت الأضواء الخافتة تشع من نوافذ وأبواب تلك المنازل.

وقفت على مرتفع وبدأت أجيل النظر في تلك البيوت إلى أن لفت انتباهي بيت بعيد بعض الشيء وتتصاعد من مداخنه سحب دخان كثيف شدني كثيراً لا أدري لماذا لذا قصدت حتى بتّ على مقربة منه. لبثت هناك لبرهة أراقب المنزل ومحيطه إلى أن تأكدت من أن ما من شيء مريب.

اقتربت وطرقت الباب بضع طرقات وأنا أتلفت حولي تحسباً.

فتح الباب رجل يحمل بيده فانوساً، رفعه قليلاً ليرى وجهي وعلى الفور قال:

– أهلاً وسهلاً بالسيد سلطان، تفضل يا رجل.

– أهلا بك...ها أنت قد عرفتني فوراً.

– من لا يعرفك فأنت أشهر من نار على علم..ادخل يا رجل..دخلت خلفه فقادني نحو غرفة جانبية وأجلسني قرب مدفأة كانت قد بنيت في الزاوية وكان بالقرب منه بضع قطع من الخشب لتجف ويسهل اشتعالها.

جهزت زوجته الطيبة عشاءً بسيطاً لنا وكان عبارة عن صينية حوت إبريق وبضع كؤوس بالإضافة لبعض الأطباق التي ملأت بحواضر البيت.

استلم الرجل الصينية ووضعها على طاولة كانت قد ركنت جانبا ليصب الشاي وهو يديرُ ظهره لي وكان أثناء ذلك يبادلني أطراف الحديث وهو يحرك السكر في تلك الكأس ثم وضع الصينية أمامي حيث تناولت عشائي، بينما هو اكتفى باحتساء كأس من الشاي ومحاورتي قليلاً.

ولكثرة تعبي بالإضافة لذاك الدفء الذي أحسست به ارتخت أعصابي واستسلمت لغفوة لذيذة.

– استسلمت للنوم هكذا..أين ذهب حذرك؟

– لا أدري لماذا اطمأننت لذاك الرجل.

استيقظت على ركلات عدة وعلى أكثر من ناحية من أنحاء جسدي. فتحت عينيّ لأجد نفسي محاطاً بأكثر من عشرة رجال أمن مسلحين، وكانوا قد أخذوا بندقيتي لأني رأيتها في يد أحدهم.

سحبني اثنان منهم من مكاني وقاموا بتقييدي ثم ساقوني إلى مركز الأمن في المدينة.

وأنا أخرج برفقتهم التفت نحو مضيفي الخائن مهدداً، وأنا أدير وجهي لمحت زوجته التي كانت تقف قرب الباب جزعة باكية.

– إذاً قام بوضع شيئاً في الشاي الذي قدمه لك.

– هذا ما تبينته لاحقاً.

– ما الذي وضعه فيه؟

– قرصٌ منومٌ كان قد اعتاد تناوله بين الحين والآخر.

– ما الذي حدث هناك في مركز الأمن؟

– قاموا بالتحقيق معي ولأيام عدة اكتشفوا من خلالها أموراً كثيرة كانت خافية عنهم وبالأخص ما كان قد قام به مستغلو الفرص.

– ما الذي حدث بعد ذلك؟

– بعد عدة أيام من اعتقالي، أركبوني سيارة مكشوفة وكانت قد خفرت بعدة سيارات من أمامها وخلفها وكان قد جلس معي في صندوق تلك السيارة أربعة رجال أمن مسلحين.

داروا بي في جميع القرى والنواحي ليؤكدوا للناس هناك بأن الشخص الذي أطلقهم وأرعبهم في الفترة الماضية، قد أصبح في قبضة رجال الأمن.

– ما كانت ردة فعل الناس وقتها؟

– من عيونهم وملامحهم رأيت أشياء عـدة، إذ كـان معظمهـم متعاطفاً معي كوني لم أقم بإيذاء أحد بشكل مباشر، وكله انعكس دموعاً على وجنات النساء ولم يخلو الأمر من بعض المتشفين الشامتين.

وبعد ذلك قدمت للمحاكمة وكانت كمية الـدعاوى والـشكايات المقدمة ضدي كثيرة جداً.

– ما كانت النتيجة في النهاية؟..قالها أبو ديب.

– حكم بالسجن لأكثر من عشر سنوات.

– كم أمضيت منها؟

– عامين ونيّف إذ داهمني المرض الذي بدأت أعراضه تتعـاظم تدريجياً.

– كيف اكتشف مرضك هذا؟

– بعد نوبات عدة من الصداع القاسي الـذي ألزمنـي الفـراش، اضطرت إدارة السجن لإحالتي إلى الهيئـة الـصحية التابعـة لإدارة السجون ومن هناك ألت إلى المشفى الذي حدد ماهية مرضي...والباقي تعرفه، وأنا أنتظر رحمة الباري الآن.

– إن شاء الله تتعافى وتعود لحياتك الطبيعية، وتصبح هذه الفترة من الذكريات التي سترويها لأولادك وأحفادك من بعدهم.

هز رأسه هازئاً...إن شاء الله.

– قل لي هل حقاً ستنتقم من ذاك الرجل الذي غدر بك.

– نعم هذا ما كنت قد عاهدت نفسي عليه، ولكن القدر تدخل.

– ما الذي حدث له؟

– سمعت أنه قد توفي إثر نوبة قلبية بعد أقل من عام على بـــدء اعتقالي.

فبذلك استراح وخفف ذنوبي.

– أية ذنوب؟

– كوني كنت سأعلق دمه في رقبتي.

– الحمد لله على هذه النتيجة .

– نعم له الحمد على كل شيء....وتابع موجهاً كلامه لكـــل مـــن ديب وأحمد اللذين همّا واقفين كون وقت زيارتهما قـــد أشـــرف علـــى الانتهاء.

هذه قصتي يا سادة وأرجو من القدر أن يجمعني بكم لاحقـــاً وإن كنت أظن عكس ذلك لأن نهايتي وحسب ما أشعر باتت قريبة.

– اتكل على الله قالها احمد وهو يغادر مع ابن خاله على أن يعود أحدهما ليرافق أبا ديب أثناء خروجه من المشفى.

.....

الفصل الثاني

" ذكريات "

- ١ -

جلس أبو ديب على مقعد خشبي ضمن صالة الانتظار التابعة لمحطة انطلاق الباصات بانتظار انطلاق حافلته التي ستقله إلى العاصمة حيث يكون المشفى الذي أجرى عمله الجراحي فيه. وذلك تنفيذاً لتعليمات طبيبه المعالج والذي كان قد أوعز له بالعودة بعد عدة أيام للمراجعة كي يقف على حالته بشكل نهائي.

أخرج من جيبه كيس الدخان وبدأ يجهز لفافة بكل تأنٍّ ولذة يشعر بها المدخنون عادة عند ذاك الإجراء. ثم أخرج مشرباً خشبياً من جيبه الآخر ليضع تلك اللفافة في فوهته.

وضع المشرب في فمه مشعلاً رأس سيجارته بواسطة قداحة غاز وهو يرمقها بعينيه مراقباً كيف التهمت ألسنة اللهب أطراف الورقة كي تصل إلى رأس ومقدمة التبغ.

عبّ نفساً عميقاً ليساعد جذوة النار كي تنال من التبغ جيداً وبالتالي تسلس تلك العملية.

نفخ ما كان قد زاد عن طاقته من الدخان وهو يركز نظره بشكل لا إرادي نحو باب الصالة حيث الحشود تدخل وتخرج بحركة دائمة ودون انقطاع.

لفت نظره رجل يدخل من تلك البوابة. ركز نظره عليه وكان يحمل بيده حقيبة سفر صغيرة. تابعه بانتباه إلى أن اقترب أكثر – حيث عرفه – .....

– "إنه إدريس نعم إنه إدريس" قالها وهو محدثاً نفسه.

ناداه باسمه فالتفت ذاك الشخص نحو مصدر الصوت حيث التقت المقل مفسحة المجال لتعابير وتقاطيع وجهيهما لتفتر عن فرح لامس شغاف قلبيهما كون الفترة التي انقضت على آخر لقاء تم بينهما حيث أنها خدمة العلم قبل عشر سنوات تقريباً وكان كل منهما قد شق طريقه في هذه الحياة. وضع إدريس حقيبته على الأرض وأسرع الخطا نحو أبي ديب الذي انتصب بدوره بهدوء وبشيء من الكسل نتيجة العمل الجراحي الذي كان قد أجراه في عموده الفقري.

تعانقا طويلاً متبادلين القبل على الوجنات وكل منهما يشد على ظهر الآخر بيديه ويربت بلطف ويطلق سيلاً من الأسئلة التي تنم عن شوق دفين كان قد تخزّن في داخلهما طيلة تلك السنين. انفك عقدهما حيث سارا وقد أمسك كل بيد الآخر إلى حيث كانت الحقيبة على الأرض تنتظر صاحبها كطفل فقد أمه فجأة وأخذ يجيل النظر في المكان والوجوه القادمة والمغادرة بالقرب منه عسى أن يرى وجه أمه ملاذه ليرتاح.

حملا الحقيبة معاً واتجها إلى حيث كان قد ترك أبو ديب حاجياته على ذاك المقعد حيث كان يجلس قبل قليل.

جلسا متجاورين وكل منهما ينظر في وجه الآخر بحنوٍ بالغ.

وجه أبو ديب كلامه لإدريس قائلا:

– كيف حالك؟..ما الذي فعلته بك الأيام؟..هل تزوجت؟...هل رزقت بأطفال؟..وسردها كلها دفعة واحدة وسط ابتسامة كبيرة من إدريس كعادته حيث كان يدع الشخص الذي يقابله ينهي كل كلامه نهائياً ومن ثم يبدأ بالإجابة عن كل شيء بهدوء في الوقت الذي لم تغادر الابتسامة شفتيه.

وهما بهذه الحالة سمعا صوت مكبر الصوت ينادي بالمسافرين والمتجهين إلى العاصمة تحديداً التوجه إلى الحافلة رقم ١٥١ الرابضة في الحارة١٣١ من الرصيف ١٣١.

حملا حقائبهما وأشياءهما وسارا باتجاه تلك الحافلة. بعد أن قام إدريس بعملية تبادل بينه وبين مسافر آخر كان قد حجر بجانب أبي ديب ليتمكن من مجالسته طوال مدة السفر الذي كانا قد اعتاداه سابقاً.

سرّ أبو ديب لملاقاته هذه إذ أنه سيحصل على رفيق سفر خفيف الظل يكون له الفضل الأكبر في تخفيف وكسر معاناة السفر وخصوصاً في مثل هذا الوقت من السنة حيث الحر الشديد ومما يزيد من تلك المعاناة ركوب متن تلك المركبات غير المجهزة بأي وسيلة من وسائل الترقية كأجهزة التكييف والمقاعد المتحركة المريحة.

إذ يضطر المسافر أن يفتح النافذة كي يحظى بشيء من الهواء حتى لو كان حاراً لأنه يخفف من آثار التعرق وبالأخص في مثل هذه الأيام من السنة. وبالرغم من اللسعات الحارة التي تلفح الوجه وتحرق العيون إلا أنها تمنح الشخص بعض الانتعاش.

انطلق الباص متجهاً نحو العاصمة عبر طرق وجسور كانت قد أشيدت خارج المدينة متلافية الازدحام الخانق الذي كانت تسببه تلك الآليات الكبيرة أثناء عبورها شوارع المدينة.

وكذلك ما كانت تلقيه في الجو من دخان عوادمها بالإضافة لتلك الضجة التي كانت تثيرها من أبواقها خصوصاً عند الاختناقات المرورية وتحديداً في الآونة الأخيرة حيث زاد عدد السيارات بشكل مريع مما أدى لزيادة الضغط على الشوارع والطرقات وحتى الحارات الفرعية لم تسلم من ذلك.

- ٢ -

نظر أبو ديب من النافذة نحو تلك التحويلات والمعابر وغيرها مما كان يتصل بالجسور التي شدت فوق طرق تحتية كانت سيول السيارات تمر عليها من كل الاتجاهات وإلى جميع الجهات دون أي احتكاك أو عرقلة من أي منها. أدار وجهه نحو إدريس قائلاً:

- أتذكر كم كنا نعاني أثناء السفر فيما مضى وبالأخص عندما كانت تعبر بنا تلك الحافلات شوارع المدينة الداخلية وكيف كانت تحدث تلك الاختناقات الفظيعة وخصوصاً عند التقاطعات الرئيسية.

- أذكر كل ذلك جيداً. آه كم كنت أتأفف من فكرة السفر ولولا أن السفر آنذاك كان مفروضاً عليّ لما كنت غادرت قريتي إطلاقاً وبالأخص أيام الحر الشديد حيث تختلط تلك الروائح بما تنفثه تلك الآليات من عوادمها وغيرها من ملوثات الطبيعة.

أما الآن بعد أن قامت الدولة بإنشاء هذه الجسور والتحويلات والطرقات الالتفافية خارج المدن وعند مداخلها أصبح الأمر أكثر سهولة حيث تختصر المسافات والزمن وبنفس الوقت تنتهي تلك الظاهرة التي كانت تحدث داخل المدن.

- صحيح رحم الله أيام زمان حيث كنا نسافر وقوفاً ذهاباً وإياباً.

- نعم تُذكَر ولا تعاد تلك الأيام.

- آمين. وتبع حديثه: قلت لي أنك تزوجت.

- نعم منذ خمسة سنوات.

- هل رزقت بأولاد؟
- نعم بأربعة.
- ما شاء الله كل سنة ولد.
- نعم فلا يوجد عندنا تلفاز. قالها ضاحكاً .ها.ها كما يقولون.
- ومن أي بلد جئت بزوجتك؟
- من القرية نفسها.
- كيف تدبرت أمورك. أعرف أنك على بـــاب الله. ربـــي كمـــا خلقتني.
- نعم صحيح. فقد يسرها الله. وبعد مغامرة طويلـــة تـــصلح أن تكون فيلماً سينمائياً.
- ألم تنته من أفلامك يا رجل؟
- سأبقى هكذا حتى أموت.
- ما الذي فعلته حدثني به؟
- اسمع يا سيدي هذه القصة. وعدّل في جلـــسته حيـــث شـــرع بحديث ممتع إذ كان سيد من صاغ وحبك أحداث أية قصة قام بـــسردها أياً كان موضوعها لدرجة ينسي فيها المستمع كل شيء حتى نفسه أنت تعرف أنني فقير ويتيم الأبوين، وكنت أعيش في كنف خالي الذي قـــام باحتضاني منذ وفاة والدي حتى التحاقي بالخدمة الإلزامية وكـــان قـــد تحمل أعباء كل ذلك بالرغم من وضعه المالي التعيس.

وكان والداي لم يتركا لي من الإرث سوى قبة وبضع حاجات لا تصلح لشيء وبالرغم من ذلك حافظت عليها حتى انتهاء خدمتي الإلزامية كونها ملاذي الوحيد إبان خلواتي والتي كانت كثيرة وبنفس الوقت كنت أعتبرها ذكرى من والديّ الراحلين.

وكنت قد قمت بالكثير من الأعمال منها الزراعية حيث كنت أستخدم من قبل بعض العائلات عند الحاجة بالإضافة لما كنت قد كلفت به من قبل أهل القرية حيث أسندوا إلي رعاية المواشي وغيرها من ممتلكات.

استمرت أحوالي يا بن الحلال هكذا فترة طويلة من الزمن وفي لحظة من فترات خلواتي قمت بتقييم كل حياتي فوجدتها فارغة من كل مضمون كون كل ما قمت به حتى الآن هو تمرير الوقت فقط لذا قررت السفر إلى المدينة علني أجد عملاً دائماً.

– هل وجدت ذاك العمل؟..قالها أبو ديب وهو يمص من مشربه شيئاً من الدخان.

– نعم وجدت أعمالاً وليس عملاً ولكن كلها مؤقتة وموسمية إذ كنت أعمل لفترة وأتعطل أخرى والنتيجة كانت لا شيء لذا قررت العودة إلى القرية حيث قبتي وأشيائي وأعمالي التي تدر علي ما يسد رمقي دون الحاجة لحياة التشرد هذه. ابتعت بعض الحاجات الضرورية متمماً النقص الحاصل في موجودات قبتي حيث استقربت هناك لفترة طويلة كان خلالها بعض من أصدقائي يترددون عليّ حيث

كنّا نلعب الورق والمنقلة وغيرها من ألعاب كنا نجيدها تماماً قتلاً للوقت وبالأخص ليالي الشتاء الطويلة.

– جيد هذه بداية حسنة.

– نعم تستطيع أن تقول ذلك لأن ما حدث لاحقاً كان أهم.

– ماذا حدث؟

– لأنه وبعد مضي وقت ليس بالقصير قام بزيارتي صديقي حسن حيث فاتحني بموضوع كنت أحاول جهدي عدم التطرق إليه حتى بيني وبين نفسي.

– ألا وهو.

– موضوع الزواج.

– لم كنت تهمل وتتجاهل أمراً هاماً كهذا؟

– لعدة أسباب أهمها أنه لا عمل ثابت ودائم لي كون ما كنت أتقاضاه من أجور لم يكن يسد رمقي أنا وحدي فما بالك إن أصبح لي زوجة وأولاد.

– معك حق. لكن على المرء أن يسعى.

– صحيح ولكن لكل تلك الظروف القاسية التي أحاطت بي منذ أن رأيت النور وبالرغم من كل محاولاتي لم أتمكن من تحسين ذلك لذا قررت أن أعيش هكذا وحيداً كما جئت إلى هذه الدنيا لا مسؤولية تلاحقني ولا أحد يطالبني بشيء.

– هذا ضنوع واستسلام لا يليق برجل في سنك آنذاك.

– يا سيدي سمها ما شئت هذا ما كنت قد اتخذته من قرارات إلى أن جاءني صديقي حسن الذي سبق وذكرته لك والذي بادرني وبـــدون مقدمات قائلا:

– ألم يحن الوقت لتفكر بالزواج يا إدريس؟

– الوقت حان منذ زمن بعيد وانقضى.

– لم انقضى يا رجل؟ فأنت لم تزل في مقتبـــل العمـــر والـــذي يسمعك يظن أنك قد تجاوزت الخمسين من العمر.

– لكن إحساسي الآن بأني تجاوزت ذلك بكثير.

– لم كل هذا القنوط يا رجل؟

– لأن العين بصيرة واليد قصيرة.

– وإن كان عليك أن تتلحلح.

– كيف؟ دلني إن كان لديك حل.

– عليك أولاً أن تبحث عن عمل دائم.

– بحثت كثيراً هنا وفي المدينة ولكن عبثاً.

– بالرغم من كل ذلك لن يضرّك إن حاولت مجدداً.

– حسناً لكن عليك أنت وبقية أصدقائي مساعدتي في ذلك.

– أنا جاهز دائماً لتقديم المساعدة المطلوبة إن قدرت عليها.

– شكراً لك فهذا عهدي بك.

– إذاً اتفقنا سأجري بعض الاتـــصالات والمـــشاورات وأعلمـــك بالنتيجة في حينها.

– أشكرك مجدداً يا صاحبي.

– هل أوفى بوعده؟...قالها أبو ديب.

– نعم إذ أنه وبعد مضي وقت طويل نسبياً حضر لزيارتي عندما عاد إلى القرية في زيارة مجاملة عائلية حيث بادرني قائلاً:

– جهز نفسك بعد غد لترافقني إلى المدينة كوني وجدت من سيؤمن لك فرصة العمل.

– كيف تلقيت هذا النبأ؟

– فرحت كثيراً إذ أنني أخيراً سأحظى بما كنت ألم به.

– وهل سافرتما معاً؟

– نعم وعند وصولنا إلى المدينة قصدنا الغرفة التي كان يمر بها حسن أثناء ذهابه وإيابه من عمله الكائن في بوابة الصحراء.

بعد أن أخذنا قسطاً من الراحة بانتظار قدوم المساء الذي وما أن حطت رحائله حتى ترافقنا قاصدين منزل صديق طفولتنا مصطفى والذي كان قد التحق بسلك الشرطة.

استقبلنا مصطفى بترحاب بالغ كونه لم يرنا منذ مدة طويلة وكان لما قمنا بنبشه من مخزون ذكرياتنا الوقع الحسن في نفوسنا حيث ضحكنا من أعماقنا وخصوصاً عندما تورد نوادرنا المشتركة

سأل "مصطفى" حسن قائلاً:

– خيرٌ إن شاء الله..عسى أن يكون سبب حضوركما خيراً.

– بالتأكيد خير، إذ لا منغصات سوى أن صديقنا إدريس عاطل الآن عن العمل ونريد مساعدته.

– أنا جاهز لأية مساعدة تطلبونها.

– لقد فهمتنا خطأ، نحن لا نريد مساعدة مادية بل نريد تأمين عمل دائم له كونك أعلم الناس بظروفه.

– كما سبق وقلت، أنا جاهز وسأبذل قصارى جهدي، وسأتصل بكم غداً إن شاء الله.

وبعد مغادرتنا منزل مصطفى الذي كان قد كلّ وهو يحاول إقناعنا بأن نبيت عنده تلك الليلة إلا أننا أبينا حيث قصدنا دار السينما وشاهدنا فيلماً سينمائياً ذكّرنا بالأيام الخوالي عندما كنا نستحصل على إذن من قادتنا وإن تعثر ذلك كنا نهرب من القطعة لنشاهد فيلماً ونعود سعداء رغم معرفتنا بأن العقوبة حاصلة لا محال وقد تصل لحد السجن ضمن القطعة.

– ما الذي حدث بعد ذلك؟

– حضر مصطفى في اليوم التالي يبلغنا بأن نتجهز مساءً لنرافقه ونقابل الأستاذ فيصل المحامي.

– من يكون الأستاذ فيصل هذا؟..قالها حسن.

– الأستاذ فيصل السعد.

– وما علاقتنا نحن به؟

– هو من سيدبر أمر العمل لإدريس.

– والله! تمام.. إن شاء الله سنكون عندك في الوقت المحدد.

– وهل فعلتم ذلك؟..قالها أبو ديب.

– نعم وفي ذاك المساء ذهبنا إلى منزل مصطفى الذي كان ينتظرنا بدوره حيث غادرنا مستخدمين سيارة أجرة.

نزلنا أمام مدخل بناء عالٍ كثير الطبقات كانت معظم شرفاته تعجّ باللافتات ولوحات الدعاية لأن تلك البناية كانت مخصصة لمكاتب المحامين والأطباء وغيرهم من أصحاب المهن الحرة كسماسرة العقارات مثلاً.

ولجنا ذاك المدخل الكبير وبعد الصعود عدة درجات وقفنا أمام باب طويل وقليل العرض. ضغط مصطفى على زر جانبي لينفرج الباب عن غرفة صغيرة قليلة المساحة أرضها وجدرانها كانت من الخشب، وكذلك كانت توجد مرآة كبيرة تكاد تحتل معظم مساحة الحائط الأوسط.

وما أن دخلناها حتى أُغلق الباب تلقائياً، عندها قام مصطفى بالضغط على زر من مجموعة أزرار كانت تحمل أرقاماً، وما إن رفع مصطفى إصبعه حتى أحسست وكأن قلبي قد هبط ليصل أسفل قدمي، وبعد لحظة سمعت رنة جرس وبعدها توقفت تلك الغرفة عن الحركة لينفرج بابها تلقائياً.

التفت نحوي مصطفى وحسن فوجداني متسمراً وأنا أمسك بكل قوتي على مقبض ثبت بالجدار والقلق باد عليّ وكانت ساقاي متباعدتين وفمي مفتوح.

– ما بك لم ترتجف؟..قالها حسن.

– ما هذا؟

– هذا ما يسمى بالمصعد الكهربائي.

– ماذا؟

– ألم تسمر "بالأصنصور"...قالها مصطفى.

– لم أسمع سوى بالصرصور..ما هذا الذي ذكرته.

– هو كما شاهدت عبارة عن حجرة تتحرك صعوداً وهبوطاً بواسطة الكهرباء مسهلة بذلك حياة ساكني هذا البناء.

– هل تعرف الأصنصور يا أبا ديب؟

– نعم كوني استخدمته كثيراً أبان إقامتي في المشفى.

– أنا لم أكن أعرف ذلك، ولولا علاقتي الطيبة بكل من حسن ومصطفى لكنت قد تعرضت للإحراج.

– المهم أكمل...هل قابلتم الأستاذ فيصل هذا؟

– نعم وكان أول من قام باستقبالنا هناك صبية فائقة الجمال أنيقة لبقة كون الابتسامة لم تكن لتفارق شفتيها منذ أن تقابل الشخص حتى تودعه.

قادتنا إلى حيث يقبع الأستاذ فيصل الذي بدوره استقبلنا بحفاوة بالغة وقدم لنا مشروباً بارداً.

بادلنا الأستاذ فيصل بضع أحاديث عامة كاسراً حاجز الرهبة التي تحدثها اللقاءات الأولى كونه لاحظ ارتباكي وقلقي، إذ بدأ بإلقاء اللوم والعتب على مصطفى لقلة زياراته وهو الصديق القديم الذي ربطته به علاقة متينة مذ كان يقوم بتأدية خدمته الإلزامية هناك في كلية الشرطة حيث كان يلقي بعض المحاضرات على العناصر المستجدين من متطوعي ذاك السلك، وكان مصطفى من بينهم، حيث استمرت تلك العلاقة الطيبة حتى هذا اليوم.

– أستاذ فيصل...أتيتك الآن برفقة رفيقيّ طفولتي طالباً مساعدتك.

– أنتم تأمرون وسألبي ذلك إن كان بمقدوري.

– إن شاء الله تستطيع.

– قل ما عندك فكلي آذان صاغية.

– نريد تأمين عملاً لصديقي إدريس.

– وهل يحمل شهادة دراسية.

– كلا فهو يعرف القراءة والكتابة فقط.

– هل لديه خبرة في مجال ما أياً كانت.

– كلا إذ لا يجيد سوى العمل بالزراعة والاعتناء بالماشية.

– أنت تعرف يا سيد مصطفى أن أرباب العمل هنا في المدينة يهتمون كثيراً بأمور الخبرة هذه.

– دبرها بمعرفتك.

– اتكلوا على الله..سأبذل قصارى جهدي إكراماً لك ولصديقيك.

– شكراً أستاذ فيصل..لن ننس معروفك هذا.

– دعك من ذلك يا مصطفى فهذا أقل ما يمكن فعله لك.

– أشكرك مجدداً وسأتصل بك بعد فترة لأعرف النتيجة.

– حسناً.

– والآن اسمح لنا فقد شغلنا وقتك بما فيه الكفاية.

– المكتب وصاحبه تحت أمرك..أهلاً وسهلاً بك وبمن أحضرت معك.

– شكراً أستاذ فيصل وإلى اللقاء.

– مع السلامة ولا تتأخروا في العودة فقد سررت كثيراً بلقائكم.

– تشرفنا بمعرفتك أستاذي الكريم..قالها حسن ونحن نغادر محملين ببطاقات تحوي أرقام هواتفه.

– هل نفذ وعده؟

– نعم.

– عجيب كثيراً ما يعد به أولئك المحامون قليلاً ما ينفذون.

– إلا الأستاذ فيصل.

– كيف؟

– لقد توسط لي عند عائلة ميسورة كانت تقطن منزلاً كبيراً وفخماً، تستطيع أن تطلق عليه تسمية "القصر" بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى وكان ذاك القصر يطل من موقعه هناك على معظم أنحاء المدينة تقريباً

– ما كانت طبيعة عملك هناك؟

– الاعتناء بالحديقة وبالحيوانات الأليفة وبالإضافة لقيامي بدور الحارس ليلاً كونهم خصصوا لي غرفة ضمن الحديقة لأجل ذلك.

– وهل كانوا يهتمون بالحيوانات أيضاً؟

– نعم إذ كانوا يحتفظون ببعض الهررة وكلب صغير كانوا قد أحضروه معهم من إحدى الدول الأجنبية وكذلك بعض أقفاص لطيور متنوعة.

– وهل تلاءمت مع تلك البيئة؟

– نعم وبسرعة فائقة لأن كلما كنت قد كلفت به هو من الأعمال المحببة إلى قلبي.

– إذاً كنت سعيداً آنذاك.

– كثيراً وبالأخص عندما خصصوا لي غرفة حيث كانت بمثابة قصر مقارنة بالقبة التي كنت أعيش فيها سابقاً.

– هل استمررت في عملك هذا؟ لأني أعرفك جيداً فأنت ملولاً ولا تستطيع الثبات في مكان واحد لفترة طويلة.

– بالعكس تماماً كوني لم أزل هناك حتى الآن.

– جيد...ها قد حالفك الحظ أخيراً.

– نعم ولله الحمد فأنا سعيدٌ جداً هناك والفضل كله يعود للأستاذ فيصل.

– كيف تطورت أمورك هناك؟

– سارت أموري في تلك الفترة على أحسن ما يرام.

– هل كان أصحاب الفيلا من كبار السن؟

– نعم فقد تجاوزا الستين وكان يعيش معهما في نفس البيت ابنتاهما المتزوجتان مع أولادهما الخمسة.

– هل كانوا راضين عن عملك؟

– كل الرضا كوني أتقنت ما كنت قد كلفت به جيداً حيث وضعت كل خبرتي وبالأخص فيما يتعلق بالحيوانات.

– ألم يكن للمالكين أبناء ذكور؟

– نعم لكنهم يعيشون الآن خارج البلد حيث تزوج كل منهما بامرأة من البلد الذي استقر فيه.

– هل كانت معاملتهم لك حسنة؟

– نعم وبالأخص الأطفال حيث كنت أهتم بهم وأداعبهم أثناء مرافقتي لهم في كل تحركاتهم بناء على طلب أمهاتهم.

– لم تقول أنك منحوس إذاً؟

– لأن الدنيا دولاب إذ لا تثبت على حال.

– نعم الدنيا هكذا..قالها وهو يدير وجهه ناحية النافذة حيث قــرأ يافطة مرت بها الحافلة وكان قد كتب عليها "النبك ترحب بكم" وبعــدها استدار ليكلم إدريس:

– هذه النبك يا إدريس أتذكرها؟

– نعم وكيف أنسى تلك المنطقة.

– أتذكر يوم ساقونا إليها؟

– نعم أذكر ذلك جيداً حيث قاموا بتوزيعنا كل إلى قطعته ومــن تلك اللحظة بدأت معرفتنا وبالتالي صداقتنا التي ولدت وترعرعت فــي زمن قياسي ومنذ أن جلسنا متجاورين على مقعد خشبي حيث قام حلاق قاسي القلب بجزّ شعرنا على "الصفر".

كما أن تلك النسمات الباردة التي كانت تهب على هذه المنطقة في مثل ذاك الوقت من السنة كان لها الأثــر الفعــال فــي ترســيخ تلــك الذكريات.

وهما في غمرة حديثهما. توقف الباص للاستراحة ضمن ســاحة واسعة تابعة لمطعم كان يقدم بالإضافة للمشروبات البــاردة والــساخنة وجبات سريعة.

تناولا شطيرتي زعتر مع كأسين كبيرين من الشاي كان لهما أثر معدل لحرارة الجو.

وبعد أن أنهيا ذلك عادا إلى حيث كانت حافلتهما التي انطلقت بعد أن قام سائقها بتنبيه المسافرين عبر بوق سيارته القوي وبعد أن كان قد

حمل معه ما قدمه له القيمون على الاستراحة كالعادة ليعيد الكرّه مـــرة أخرى.

وما أن استوت جلستهما في المقعد حتى ارتخت أعصابهما مفسحة المجال لنعاس رشيق كي يتسلل عبر مسالك وعيهما مغلقاً نوافذ كانـــت تنعش بشيء من المكابرة وعيهما الكامن دافعاً إياه كي يـــسكن ضـــمن فجوة ضبابية أخذت تزداد كثافتها تبعاً لصعود ذاك المارد.

لم يستفيقا إلا عندما علا صراخ معاون الحافلة الذي كان يـــوبخ سائق شاحنة كانت قد توقفت فجأة أمام الحافلة التـــي اضـــطر ســـائقها للمناورة بالمقود متلافياً اصطداماً كان حاصلاً لا محال.

تلفّت إدريس حوله مستطلعاً ليجد أنهم قد أصبحوا فـــي منطقـــة "حرستا" التي كانت تعجّ بالورشات والمعامل الصغيرة... عنـــدها هـــز رأسه قائلاً:

– لم يبق إلا القليل.

أكد ذلك أبو ديب بهزة من رأسه دون كلام.

– انظر يا أبا ديب إلى هذه الغمامة التي تخيم فـــي ســـماء تلـــك المدينة العريقة والصبية دائماً.

– نعم كيف لا يحدث ذلك وكل هذا الكم الهائل من الآليات التـــي تنفث دخانها على مدار الساعة في سماء هذه المدينة الصاحية أبداً.

– صحيح، فكم لهذا الطارئ من آثار سلبية علـــى حيـــاة البـــشر والشجر وحتى الحجر.

– أكيد... "الله يستر من الأعظم" قالها إدريس بلهجته المحلية وهو يوجه كلامه لأبي ديب.

– أين ستذهب الآن؟

– سأقصد المشفى لمقابلة طبيبي المعالج...وأنت؟

– أنا سأذهب إلى مكتب السيد رمزي زوج السيدة منى لأحضر حاجات كان قد جلبها معه أثناء عودته من رحلته الأخيرة.

– متى ستعود؟

– لمجرد أن أنهي ما أتيت من أجله.

– وأنا كذلك.

– إذاً سنعود معاً.

– إن شاء الله.

– لذا دعنا نتفق على موعد نلتزم به نحن الاثنين.

– الساعة الخامسة في مركز الانطلاق..أيناسبك ذلك؟

– نعم.

– اتفقنا إذاً.

– اتكل على الله.

وما أن حطت الحافلة رحالها في ساحة كبيرة خارج نطاق محطة الانطلاق حتى غادرها الاثنان كل في اتجاهه على أمل اللقاء في الموعد المحدد.

- ٣ -

أمضى أبو ديب فترة طويلة في غرفة الانتظار ريثما يحين موعد دخوله لمقابلة طبيبه وبالفعل أنهى كل ما كان قد أتى من أجله ومن بعدها غادر محملاً بوصايا طبيبه وتمنياته بالشفاء العاجل.

وعندما أصبح على الرصيف المقابل لمدخل المشفى وإبان انتظار مرور حافلة تنقله إلى قلب المدينة نظر في ساعته مستطلعاً الوقت فوجد أن الساعة لم تتجاوز الثانية إذاً بقي لموعده مع إدريس أكثر من ثلاث ساعات.

وقت طويل..قالها محدثاً نفسه..استقل الحافلة التي قامت بدورة كبيرة ضمن منطقة المشفى ثم استوت على الطريق المودي إلى قلب العاصمة.

ترجل قبالة مدخل حديقة عامة اعتاد الجلوس فيما مضى من الزمن.

قام بشراء سندويشة وعلبة مياه غازية من كشك كان عند ذاك المدخل.

دخل الحديقة وبشكل لا شعوري قادته قدماه إلى ذاك المقعد الكائن أعلى تلة حفت بالورود وبعض شجيرات الصبار النادرة والتي كانت تطل على طريق مزدوج الاتجاه والذي كان على يمينه ذاك النهر الخالد الذي يشق طريقه مجاهداً صابراً باذلاً أقصى إمكاناته والتي باتت شحيحة ليستمر على قيد الحياة.

استرسل وهو يراقب تلك الحركة الدائمة التي تقوم بها آليات ساعية ذهاباً وإياباً تعمّق أكثر لدرجة أنه شعر بالدنيا قد بدأت تلف به كمن أصابه دوار أثناء إبحاره على متن مركب شراعي والرياح تلفه من كل جانب وسط هدير الأمواج وزعيق النوارس .

رده إلى وعيه صوت منبه سيارة ترافق مع صوت زعيق العجلات إثر فرملة قام بها سائق متفادياً صدم شخص عبر الشارع فجأة.

لاح برأسه ثم تطلع في ساعته ليجد أنه لم يمر من الوقت سوى بضع دقائق عندها فتح الكيس ليتناول سندويشته وبدأ يقضم منها بتأنٍّ واضح كون طقم أسنانه والذي بدله حديثاً لم يساعده على السرعة. بالإضافة إلى أنه كان يمص بعضاً من سائل تلك العبوة بين اللقمة والأخرى.

قضم لقمة أخرى، وهو بوضعه هذا رفع عينيه ليشاهد نصباً تذكارياً زُيِّن بأعلام وكان عبارة عن لوحة بانورامية تظهر نضال الفلاحين والعمال عبر الزمن الذي مرّ.

هزّ رأسه استحساناً حيث استرجع ما كان قد رواه له والده عن معاناة عاشها هو وأمثاله من الفقراء إبان سيطرة نظام الإقطاع الجائر.

عندما كان ذاك المالك يتسلط على رقاب الناس هناك في قريته التي كان نهر مشاكس يقوم بشطرها إلى نصفين، قسم يمتد صعوداً حتى قصر ذاك السيد الرابض على قمة الجبل بحيث يمكنه مراقبة ومتابعة

كل حركات عماله وفلاحيه، وكان من بين أولئك فلاح نشيط مبـدع إذ ابتكر طريقة في الزراعة لم يسبقه إليها أحد من قبـل وكـان يـدعى "يوسف" لذا قام ذاك البيك بتمييزه عن بقية المرابعين بأن أعطاه مكانـاً يسكن فيه مع عائلته وكذلك سمح له بامتلاك بضع رؤوس من البقر.

أثار كل ذلك حفيظة بقية المـزارعين وغيـرهم مـن أزلام ذاك الرجل حيث بدأوا بحياكة المؤامرات بغية الإيقـاع بـه ليـتم طـرده، وبالأخص عندما قام مالك آخر بزيادة تلك الإقطاعية إذ أعجـب بتلـك الطريقة الجديدة بالزراعة. حيث قام بشق قناة صغيرة توزع المياه على الأرض دون جهد كونه كان قد جعل تلك المساحات علـى مـستويات مختلفة.

عندها استغل ذاك الزائر انشغال مضيفه بأمر ما ليبلغ يوسف بأنه يرغب في استخدامه هناك حيث إقطاعيته.

وكان لما قام به أولئك الحاقدون من أعمال تخريـب لممتلكاتـه الخاصة بالإضافة لتلك الدسائس الخسيسة الأثر الكبير في تأليـب ذاك البيك عليه وبالتالي الطلب منه مغادرة الإقطاعية.

لكن يوسف رفض تنفيذ ذلك قبل إنهاء موسمه وبالتالي ليحـصل على حصته من المحصول. عند ذلك وجه البيك بعضاً من أزلامه كـي يشددوا الحصار على يوسف ومضايقته كيفما اتجه، بل زاد على ذلـك بأن طلب منهم التخلص منه إن استدعى الأمر ذلك، حيث قاموا بإطلاق

النار بشكل عشوائي على منزله وحيواناته. الأمر الذي دفعه لأن يحسم أمره ويقرر المغادرة إلى حيث تقع إقطاعيات ذاك البيت.

ولمجرد وصوله قام المالك الجديد بتخصيص قطعة أرض كبيرة له ولعائلته وأسماها حوشاً، حملت لقبه حتى الآن.

– دخان يا سيد...دخان وطني وأجنبي ..ذاك الصوت رده لوعيه حيث وجد أمامه شاباً يحمل بسطة حوت كل أنواع الـــدخان بالإضـــافة لبعض الأكياس الصغيرة من المكسرات.

اشترى كيساً من المكسرات وغـــادر الحديقـــة قاصـــداً محطـــة الانطلاق حيث وجد إدريس بانتظاره.

- ٤ -

وما أن التم شمل الصديقين حتى قاما بحجز مقعدين على متن حافلة أقلتهما إلى ديارهما.

- هات طمئني... ما الذي قاله لك الطبيب؟

- الحمد لله كل شيء جيد ولكن يلزمني راحة لمدة طويلة والاعتناء بنفسي أكثر وعدم القيام بأي عمل مجهد.

- هذا ما كان عليك فعله منذ زمن بعيد.

- ولمن أترك مسؤولياتي؟

- لأولادك...ما شاء الله فهم كثر ويمكن الاعتماد عليهم.

- طالما لديّ همة للقيام بذلك فأنا بغنى عن كل مساعدة.

- بهذه الطريقة ستفني جسدك.

- المعين هو الله.

- ونعم بالله....ولكنه قال:"ولا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة"

- صدق الله العظيم.

- نعم صدق الله ولكن إن لم تعتن بنفسك فسيقع المحظور وبالأخص أن هذا هو العمل الجراحي الثاني الذي تجريه في هذه المنطقة الحساسة من جسدك.

- دع الأمور تسير والله هو الحامد.

- لا حول ولا قوة إلا بالله أنت كما أنت عنيد بطبعك.

– هذا طبعي..ما الذي باستطاعتي فعله...ولكن اسمع ما سأقوله لك.

– خيرٌ إن شاء الله.

– يا سيدي عندما دخلت المشفى وبالتحديد ذاك القسم الذي كنت قد أمضيت فيه فترة نقاهتي، شعرت بغصة كادت أن تودي بحياتي.

– دخول المشافي يترك في النفس أثراً سلبياً، لست وحدك من يشعر بذلك.

– أنا لا أقصد هذا بالذات بل قصدت أمراً آخر.

– ما هو؟

– تذكرت زميل سكناي آنذاك "سلطان".

– ومن سلطان هذا الذي تذكره بكل هذه الحرقة؟

– سلطان يا بن الحلال....وسرد له كل ما كان قد قام به سلطان من مغامرات حتى غادر المشفى.

– إن قصة ذاك الشاب تحزّ بالنفس، معك حق في إحساسك هذا.

– لقد كانت صدمتي كبيرة عندما عرجت على تلك الغرفة ولم أجده هناك.

سألت الممرضين الذين كنت أعرفهم جميعاً حيث أجابوا:

– لقد أحيل إلى منزله كون حالته باتت في غاية الحرج حيث يئس الأطباء من إمكانية تقديم إي شيء له، لذا فضلوا أن يمضي آخر ساعات عمره بين أهله وذويه.

عندها قصدت زاوية الجناح حيث يقع ذاك الهـــاتف العمـــومي وطلبت الرقم الذي كان قد أعطاني إياه سلطان قبل مغادرتي المشفى.

وكان ردهم بأن سلطان قد فارق الحياة بعد عدة أيام من مغادرته المشفى.

– بالتأكيد كانت صدمتك كبيرة عند سماعك ذاك النبأ.

– نعم ولولا اللياقة لأغلقت السماعة دون أن أودعهم.

– رحمه الله..هكذا أفضل له ولعائلته.

– نعم صدقت ولكن للوفاة وقع سيء في النفس وخـــصوصاً إن كان الفقيد من الأعزاء.

– معك حق وخصوصاً أنه كانت تربطك به علاقة قوية حسب ما فهمت.

– نعم لقد دخل ذاك الشاب إلى قلبي مذ رأيته أول مرة بالإضافة لما كنت قد لمسته وعرفته عنه من سجايا

" لقد كان رجلاً بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى "

– نعم فمثل هذا الشخص ويحمل كل تلك الصفات يـــستحق هـــذا التقدير حيّاً كان أم ميتاً.

- ٥ -

اسمع يا سيدي:

ذات يوم كلفتني السيدة منى البنت الصغرى لصاحب الفيلا بأن أرافق ولديها أثناء ذهابهما إلى حديقة الحي العامة كي يلعبا مع بعض زملائهما بعض الوقت.

وبالفعل دخلنا الحديقة بعد أن قام الولدان بشراء بعض الحلوى المعلبة والمكسرات. توجهنا نحو باحة الألعاب التي كانت تحوي عدة أراجيح وبعض المزالج وغيرها.

فوراً ركض الولدان حيث التقيا بزملاء لهما كانوا قد تجمعوا حول أرجوحة دائرية، بينما اتجهت أنا كالعادة نحو مقعد جانبي كانت شجرة صفصاف ترخي بظلالها عليه.

راقبتهما لفترة إلى أن تعبت لذا استلقيت على ذاك المقعد وأسندت رأسي على كفيّ وأنا أتابع المراقبة.

لعب الهواء العليل المحمل بأريج الزهور التي كانت تزخر بها أرض تلك الحديقة وأحواضها، دوراً هاماً في دفعي للاسترخاء حيث تواردت إلى مخيلتي ذكريات عدة وكان أهمها تلك التي عشتها في طفولتي حيث دفعتني إليها تلك الحركات التي يقوم بها هؤلاء الأطفال.

وكان أول ما ورد إلى ذهني تلك اللحظات القاسية من حياتي التي لفها الحرمان الجاف الذي لا يحس به إلا من فقد والديه وهو صغير.

وبالرغم من كل ذلك، فقد كانت تلك الأيام لا تخلوا من ذكرياتي اللذيذة لما كانت تحمله من شقاوات في طياتها...توقف شريط الذكريات عند مشهد محدد.

– ما هو؟...هات قص علينا بعضاً من نوادرك أيها البارد.

– أنا بارد يا أبا ديب.

– نعم أنت كذلك، ولكن ظرفك ولطافتك كانتا تغفران لك...المهم أكمل.

ذات يوم هربت من البيت قاصداً أنا وصديقي حسن مزرعة تقع على أطراف القرية

– حسن ذاته الذي ساعدك بهذا العمل؟

– نعم هو بعينه.

دخلنا المزرعة عبر فتحة في السور ومن مكان بعيد عن موقع الباب الذي كان يربض بالقرب منه كلب شرس كان أصحاب المزرعة يقيدونه نهاراً ويطلقونه ليلاً.

وكانت تتوسط تلك المزرعة بركة ماء واسعة تحيط بها مجموعة كبيرة من أشجار مثمرة متنوعة، وكانوا قد أشادوا مصطبة تحف بالبركة لإقامة الولائم وحفلات السمر، وكان أصحاب تلك المزرعة يقومون بتربية الأسماك في هذه البركة شتاءً.

وكون صيد السمك من أهم هواياتي، قمت بصناعة صنارة صيد خاصة بي حيث اقتطعت عود قصب ثخين من المقصبة التي كانت تنمو

على ما كان محرك الماء يصبه من فائض التبريد. وبعدها قمت بـــربط خيط من النايلون القوي برأس تلكم القصبة كما قمت بتصنيع صـــنارة معدنية كنت قد اقتطعتها من كبل معدني كان خالي قد رماه جانباً منـــذ زمن.

سرنا متجنبين أن يرانا أحداً من سكان المزرعة حتـــى وصـــلنا البركة ثم تسلقنا المسطبة وأخرجت قصبتي وقمت بتعليق قطعـــة مـــن العجين في رأسها، ومن ثم قمت بإلقائها في الماء، بينما قمت بتكليـــف حسن بالمراقبة.

أخذ حسن يسير قاطعاً حافة المصطبة ذهاباً وإياباً وهـــو يلـــوح بعصاً كان قد حملها معه أثناء دخولنا المزرعة .

بقيت هكذا فترة من الزمن إلى أن علقت سمكة بطرف الصنارة.

رفعتها بهدوء إلى أن أمسكتها من غلاصمها محاولاً نزع الصنارة من شفتها.

أثناء ذلك وبينما كان حسن يلوح بعصاه وهـــو يـــسير كحـــارس متمرس اعتاد مراقبة قصور النبلاء.

أصاب بطرف عصاه خلية زنابير حمراء، التي هاجت بـــدورها حيث قامت بمهاجمتنا بكل شراستها المعهودة إذ لم نجد مفراً منها سوى أن نلقي بأنفسنا في البركة ونحن نصيح طالبين النجدة.

أثناء ذلك أفلتت السمكة في الماء ناجية بحياتها حيـــث غاصـــت ولسان حالها يقول:"واشماتتاه....".

ووسط هياجنا وصراخنا وصل بعض من سكان المزرعة الـذين كان قد نبههم ذاك الكلب بنباحه وهو يحاول الإفلات من قيده.

قام أولئك برفعنا من الماء بعد أن قاموا ببذل جهد كبيـر لطـرد سرب الزنابير بواسطة خرطوم الماء القوي الذي كان يعمل على محرك رش المبيدات.

– هل عاقبوكم؟

– نعم ولكن العقوبة التي أنزلها فينا خالي كانت الأشـد كـونهم كانوا قد استدعوه حيث حضر مطأطئاً رأسه خجلاً من فعلتنا هذه.

إذ قام بصفعي وهو يقودني جرّاً إلى البيت بعد أن قدم اعتـذاره وأسفه الشديدين لسكان المزرعة.

أيقظني من حلمي هذا صفارة الحارس وهو يركض باتجاه ساحة الألعاب وأثناء مروره بالقرب مني.

عندما استعدت اتزاني نظرت إلى تلك الجهـة وإذ بـي أرى تجمعاً كبيراً.

ركضت وكل همي سلامة الطفلين...بحثت عنهما طويلاً إلـى أن وجدتهما وقد جلسا القرفصاء عند قاعدة الأرجوحة والخوف بادٍ عليهما، وكانا يشيران بيدهما ناحية السور

اتجهت إلى تلك الجهة وكان هناك حشدٌ كبيرٌ في الحديقـة وفـي الجهة المقابلة من الشارع وكلهم ينظرون باتجاه سيارة كانت قد ركنت

بجانب الرصيف وعلى مقدمتها اضجع شاب وكان ينزف دماً من كل أنحاء جسده وكان كما بدا لي فاقداً وعيه تماماً

سألت أحد المتواجدين عن ذلك فقال:

– لقد دخل هذا الشاب الأرعن بدراجته النارية مستعرضاً حركاته البهلوانية أمام رواد الحديقة، إلا أنه لم يكتف بذلك بل أراد أن يجتاز السور قفزاً بدراجته، وأثناء محاولته تلك وهو يرفع مقود الدراجة عالياً رافعاً بذلك عجلته الأمامية بحيث طارت به الدراجة متجاوزة السور بدولابه الأول بينما علق الثاني بطرف السور العلوي عندها وبنتيجة ذلك قذفته عالياً ليسقط على مقدمة تلك السيارة كما تراه.

– يا لطيف...ما الذي فعلته بعد ذلك؟

– أخذت الطفلين إلى حيث كانت الفيلا وقمت بسرد كل ما جرى للسيدة منى.

– ما كانت ردة فعلها؟

– أنبتني على سهوتي تلك وبما أنني قد ذكرت ذلك غفرت لي بعد أن وعدتها بعدم التكرار.

– مررت الموقف هكذا ببساطة؟

– نعم...ألم أقل لك...لقد كان كل من يقيم في الفيلا يكن لي شيئاً من المحبة لذا تظافرت الجهود كلها للتخفيف من حدة الموقف.

- ٦ -

- خمن يا سيد إدريس ما الذي كنت أفكر به وأنا أنتظر موعد لقائنا؟

- عجزت..قالها كعادته عندما يريد أن يتهرب من الإجابة.

- كعادتك طبعاً...أنا الملوم في ذلك كوني أعرفك جيداً لكني حسبت أن الزمن قد غيرك.

- الذي يأتي مع البدن يذهب مع الكفن.

- صحيح تماماً...المهم اسمع..لقد عدت بذاكرتي لأيام خلت وانقضت منذ زمن بعيد أيام كان فيها أولئك البكوات وأزلامهم يعيثون في الأرض فساداً.

- اتركنا من هذه الذكريات المؤلمة يا رجل، دعنا نعيش الواقع، ولكن قل لي ما الذي قادك لتفكر في ذلك.

- رأيت لوحة قادتني مباشرة إلى الأيام الأولى لقيام الثورة التي أنهت سيطرة أولئك المستغلين من إقطاعيين ورأسماليين وأزلامهم النهمين عديمي الكرامة.

- لعنهم الله جميعاً ولا رحمهم أبداً.

- معك حق الحمد لله الذي خلصنا منهم.

- يا سيدي نحن الآن نعيش رخاءً واضحاً إذ وزعت أملاك هؤلاء علينا وبالرغم من كل السلبيات التي نتجت عن ذلك وبالأخص ما قام به بعض المنتفعين والمستغلين لمناصبهم ووظائفهم ومهامهم أياً

كانت، إنما الأمر المهم حالياً ما يجب على قيادة البلد أن تقوم بـــه مـــن مهام جلّى.

إذ أول ما يجب فعله هو تصفية وتحييد أولئك عن ناصية القرار تمهيداً لمحاسبتهم على سوء سلوكهم وتصرفاتهم.

– نعم هذا هو المهم الآن لأن ما نشاهده ونعيشه هذه الأيام يجلب الغم للنفس كون ما يقوم به أولئك المستغلون مـــن تـــصرفات أســـاءت للثورة ولمن قام بها وضحى من أجلها كي ننعم نحن الفقـــراء بخيرهـــا الذي عم ليشمل الجميع بالرغم من كل ما كانت قد تركته تلك القرارات غير المدروسة من سلبيات.

– صح وبالأخص قانون الإصلاح الزراعي الذي كان منذ إنشائه وإقراره عادلاً. حيث وزعت أراضي المـــلاك علـــى الفلاحـــين لكـــن ولتواطؤ المشرفين والقيمين على ذلك المساندين من البيروقراطيين الذين غضوا الطرف عمداً عن تجاوزات كانت تحدث حيث قام الكثيرون ممن أنصفتهم الثورة وملكتهم أرضاً كانوا يعملون بها كمرابعين.

إذ أصبحوا بما آل إليهم ملاكاً جدداً تصرف معظمهم بتلك العهدة متحولين من عمال نشيطين إلى أشخاص مستهترين.

والذي أفلح منهم شق طريقه في مجال آخر غير العمل الزراعي ، فبذلك أجهضت تلك القرارات.

– نعم معك حق، إذ لا بد من وجود أمثال هؤلاء في كل مرحلة.

– صحيح ولكن إن لم يتم القضاء عليهم والتخلص منهم بـــشكل نهائي فكل شيء سيسير إلى الوراء وفي أحسن أحواله يقف مكانه ثابتاً، بينما الكون كله يتقدم.

– لكنهم يغيبون عن الساحة لفترة مختفين إثر صدور أي قـــرار يمسهم.

ولكن حين تتوضح الرؤية ويحسون بالأمان يظهـــرون كالنبـــات الطفيلي ذي الجذر العميق والذي تعرفه تماماً.

– نعم أعرفه "التيّين".

– أحسنت هو بالذات.

– والآن قل لي كيف كان لتلك الفيلا الفضل فيما أنت فيه؟..قالها أبو ديب محاولاً تغيير مجرى الحديث وموضعه

– نعم صحيح كدت أنسى ما كنت قد وعدتك به سابقاً.

– كدت تنسى أم تناسيت؟

– أنا...سامحك الله يا رجل.

– المهم هات ما عندك لقد حملتك وعليك أن تحملني بدورك حتى نصل.

– طيب حاضر...وقام بتركيز عقاله كإشارة منه عندما يريد البدء بحديث ما.

– خلصنا يا رجل...هل هي كيمياء؟

– كن طويل البال يا رجل واصبر فالصبر طيب.

- ٧ -

ذات يوم وبينما كنت أقوم بأعمالي كالعادة وبعد أن انتهيت من تقليم شجرة فتية متوسطة الحجم، وصل إلى مسمعي وقع خطى نسائية على بلاط الممر الموصل إلى باب الحديقة.

التفت لألمح حورية ممشوقة القوام تربط شعرها إلى الخلف بمنديل أحمر مفسحاً المجال لبروز وجهها المدور النابض بالحيوية والذي كان يضم في حناياه ثغراً صغيراً بالإضافة لعينين واسعتين فيهما سحر أخاذ سبحان الخلاق.

فوجئت بوجودي هكذا وأنا أحملق فيها كالأبله إذ وقفت حركة المقص في يدي هناك في أعلى الشجرة حيث كنت أقلم غصناً شاذاً.

تابعت سيرها من أمامي متجهة نحو الفيلا وهي ترمقني بنظرات خاطفة بطرف عينها بين الحين والآخر، وعند وصولها لبداية الدرج تلفتت لتراني متسمراً مكاني بفمي المفتوح وعينيّ الجاحظتين ويدي التي لم تزل ممدودة إلى الأعلى والمقص فيها منتظرٌ ينتظر أمر البدء بالحركة.

ضحكت لمرآي هكذا ثم استدارت متابعة طريقها صعوداً حيث باب الفيلا.

وما أن استعدت وعيي حتى تابعت بكل جد وسرعة ممكنة.

أنهيت أعمالي وغادرت إلى غرفتي حيث اغتسلت وبدلت ثيابي بأقصى سرعة وغادرت باتجاه الفيلا.

كل هذا وأبو ديب يراقب حركات إدريس التعبيرية إذ كان يمثل بكل جسده كل كلمة كان ينطق بها بشكل ظريف يلفت الانتباه لدرجة يدفع مستمعه لأن يعيش الحدث ذاته الإحساس نفسه.

انتبه إلى ذلك إدريس لذا سأل أبا ديب قائلاً:

– ما لك تحملق فيّ هكذا؟...هل أنت معي؟

– نعم معك تماماً لذا تابع حديثك المشوق هذا.

– دخلت الفيلا إذ كان الباب مواربا وقصدت المطبخ لا شعورياً كوني تعودت ذلك منذ أن باشرت عملي إذ كان المالكون كلفوني بالمهام من هناك.

وقفت بالباب لأجد تلك الفاتنة واقفة قبالة المجلى وتدير لي ظهرها وكانت ترتدي بزة غسل الأواني عرفت ذلك من تلك الربطات خلف ظهرها. وفي الوقت نفسه كانت تحضر الطعام إذ ما إن تنتهي من غسل آنية حتى تطل على القدور المتمركزة فوق فوهات ذاك الموقد الفاخر.

وقفت واجماً هكذا مجيل النظر في المكان وبها متفحصاً إياها من أسفل قدمها حتى ربطة شعرها الحمراء التي أظهرت سواد شعرها المتمايل عند كل حركة من حركات جسدها البض.

– ألم تنتبه لوجودك؟

– حتى تلك اللحظة لا لأنها كانت منهمكة بعملين معاً، وبنفس الوقت كانت تدندن مقاطع من أغنية شعبية حببتها منذ ذاك الوقت ولم

أكتف بذلك بل صرت أحب تلك المطربة صاحبة الأغنية والتي كنت لم أطق حتى سماع اسمها.

تنحنحت آملاً أن تنتبه لقدومي...التفتت نحوي جزعة مندهشة إذ وسعت كلتا عينيها لأقصى حد استغراباً، كيف دخلت هكذا دون إنذار وهي التي كانت تظن أنها الوحيدة في هذا المكان وحسب ما فهمت لاحقاً إنها لم تكن قد رأتني سابقاً في هذه الفيلا.

– ما كان تصرفك حيال ذلك؟

– بادرت مسلماً بغية تلطيف حدة الموقف والجو معاً.

– كيف كانت ردة فعلها؟

– لم ترد بل أشارت لي بيدها أن أجلس على كرسي قرب طاولة كانت تتوسط أرض المطبخ.

– ما الذي فعلته؟..هل نفذت؟

– جلست مفكراً بينما كانت تتابع عملها بكل رشاقة حيث كانت ترمقني بطرف عينها كلما استدارت.

بقيت هكذا فترة لا بأس بها بينما هي تابعت حركتها ساعية بين المجلى وذاك الموقد إلى أن أنهت عملها وبعد أن قامت بخفض شعلة الموقد كي ينضج الطعام بهدوء.

عرفتها بنفسي أثناء ذلك شارحاً طبيعة عملي الذي باشرته منذ فترة، عندها انفرجت أساريرها ارتياحاً ورضاً ولو بشكل بسيط كونها

اطمأنت لي لثقتها بمالكي الفيلا كونهم كانوا في غاية الحرص عند اختيار الأشخاص الذين يدخلون الفيلا وبالأخص للعمل.

نظرت نحوي وهي تعد القهوة وقالت وهي تفتر شفتيها عن ابتسامة وجلة.

– أعتذر عن تصرفي هذا كوني فوجئت بوجودك داخل المطبخ.

وضعت ما كانت قد جهزته على صينية حوت فنجانين فارغين وكأس ماء واتجهت بهم نحوي.

جلست قبالتي على الطاولة وقالت وهي تسكب القهوة في الفناجين ناثرة رائحتها الزكية في فضاء المكان.

– لم أشاهدك هنا قبلاً.

– أنا من مررت به وأنت تدخلين الفيلا.

نظرت إلي مستغربة كون مظهري الخارجي كان مغايراً وكذلك ملامحي وبالأخص تلك الكوفية التي كنت أدرأ بها أشعة الشمس الحارقة.

– لقد بدلت ثيابي بعد أن أنهيت عملي، وأنا هنا الآن بناء على طلب السيدة منى...هل استيقظت يا ترى؟

– لا أدري إذ أنها تصحو متأخرة وبالأخص عندما يكون زوجها هنا.

حملت الصينية بعد أن فرغنا من تناول القهوة واستدارت نحو المجلى لتضعها هناك، ومن ثم قامت بإلقاء نظرة على كل القدور

وبعدها عادت لتجلس قبالتي، ولكن هذه المرة كانت أساريرها قد انفرجت تماماً إذ أخذت حركاتها شكلاً طبيعياً.

– هل طالت جلستكم؟..قالها أبو ديب وهو يمص من مشربه شيئاً من الدخان.

– قليلاً حيث عرفتني بنفسها وبطبيعة عملها إذ كانت تحضر إلى الفيلا ليومين أو ثلاثة في الأسبوع تقوم خلالها بأعمال الطهو إذ كانت تعد وجبات تكفي لأسبوع بأكمله، بالإضافة لما يتبع ذلك من أعمال تنجز داخل المطبخ حصرياً لأن للمنزل خدمه الخاص، وقالت أنها ستأتي غداً لتتم ما بقي عليها من واجبات.

– هذا ما أفرحك بالتأكيد.

– نعم لذا قمت بعد أن رشفت قليلاً من الماء من كأس كان على الطاولة وغادرت قاصداً غرفتي وكلي تصميم أن ألقاها لاحقاً ولو في ممر الحديقة.

– هل نفذت ذلك؟

– نعم إذ أنهيت عملي باكراً كوني بدأته مذ أشرقت الشمس، واغتسلت ومن ثم بدلت ثيابي وخرجت لأجلس على مقعد وسط الحديقة وكل أحاسيسي مشدودة نحو الباب الخارجي حيث سيأتيني بما يثلج صدري ويطفئ نيراناً أخذت جذوتها تنشط بداخلي.

يا إلهي متى تنهي عملها؟...متى تخرج؟...هل ستنام هنا؟..لم تمضي كل هذا الوقت داخل الفيلا؟...آه ما أصعب الانتظار...كل تلك التساؤلات تواردت لمخيلتي دون أن أجد لها جواباً.

اقترب الوقت من العصر تقريباً وأنا أنتظر، لقد تناولوا طعامهم وانزووا لأخذ قيلولة، وبكل ما مر من الوقت يجب أن تكون قد أنهت كل وجباتها.

ما الذي أخر خروجها؟...ما أقسى لحظات الترقب والانتظار.

وأنا في حالتي هذه وإذا بها تفتح باب الفيلا وتخرج بكل عظمة وبهاء إذ كان وجهها أكثر إشراقاً مما كان عليه عندما رأيتها صباحا، وكأن كل ما قامت به من أعمال قد شحنها بقوة ونشاط إضافيين.

رأتني وهي تهبط درجات المدخل، تريثت قليلاً ثم تابعت طريقها متجاوزة ذاك الارتباك الذي اعتراها مذ رأتني برباطة جأش مصطنعة.

دنوت منها وهي تقترب حتى تلاشت المسافة فيما بيننا إلى أقصى حد.

أمسكت بيديها المرتعشتين اللتين انتقلت برودتهما لتسري في كل أنحاء جسدي الملتهب، الذي ما لبث أن عكس سيل الحرارة لتسري متسللة عبر كفيها صاعدة إذ كلما مرت بناحية من جسدها اللدن تنشط وزاد من حركته.

ازدادت دقات قلبها لدرجة بت أسمعها جليّة، وكان ما علا وجنتيها من حمرة قد زاد من بهائها بشكل لافت، وبذلك السيل الذي

انتقل إلى وجهها كادت حبات الدمع التي تدحرجت على خديها أن تتبخر قبل أن تصل بقية غضون ذاك الوجه البديع.

ومن حركتها أحسست أنها كادت تفقد توازنها، سحبتها من يديها نحو المقعد وضممتها بيدي إلى صدري ضمة أقرب ما تكون بعناق الأخوة والصداقة منها لما يتبادله المحبون فيما بينهم في مثل هكذا حالات.

شعرت عندها بأن نفسها بدأ يستكين ويهدأ. وما لبثت أن استرخت كلياً حيث بدأت أساريرها تنفرج وكأن يداً ملائكية قامت بمسح وجهها تاركة رطوبة تغلغل عبيرها ليفتح كل مسالك وعيها التي كانت قد سدت سابقاً.

حاولت النطق، إلا أنني رفعت إصبعي ووضعته على فمها مسكتاً إياها وكأن لسان حالي يقول:"اصمتي فالصمت في حرم الجمال جمال".

استجابت بكل الرضا إذ بدا ذلك على مقلتيها السوداوين الصافيتين اللتين تسمحان لامرأة طروب كي تتبرج أمامها.

لبثنا هكذا وبهذه الوضعية بعضاً من الوقت، إلى أن بدأت تتململ كونها أحست بأنها قد تأخرت عن موعد عودتها. لذا حسمت أمرها وانتصبت بعد أن خلصت نفسها من بين يدي اللتين لم تبديا أية مقاومة تذكر.

ودون أن تنطق بأية كلمة غادرت بكل ما قد تبديه الفاتنات من غنج.

– ما كان إحساسك لحظة مغادرتها؟

– أحسست وكأن خيطاً كان قد ضم كل ملكاتي قد حلّ وسار متعلقاً برسغها تاركاً إياي كآلة فككها طفل شقي إذ ألقى بها أرضاً دون اكتراث.

– ألهذا الحد؟

– بل أكثر كوني تهاويت على المقعد زائغ البصر وبأنفاس متسارعة كمن ركب عربة خيالية صعدت به لأعالي السماء ثم ما لبثت أن ألقت به فجأة في قعر بحر مظلم.

– هل قابلتها مجدداً؟

– نعم في اليوم التالي ولأنه كان اليوم الأخير الذي تأتي به إلى هذا المكان.

لذا تعمدت أن أنهي كل أعمالي باكراً وقبل موعد وصولها بالتحديد.

وبالفعل وبكل سرعة عدت إلى غرفتي وتجهزت تماماً، وبكل أناة جلست قرب النافذة أنتظر قدومها الذي تأخر بعض الشيء، وخلال ذلك شغلني صوت شجي قادم من بين الأشجار.

تتبعت مصدره وكان يأتيني مع نسمات ذاك الصباح المنعش والمحمل أصلاً بأريج زهور كنت قد بذلت جهدي كي تنمو وتطرح تلك البدع الإلهية.

بحثت لبعض الوقت إلى أن حددت مكـــان عـــش ذاك الـــشادي المبدع، والذي كان في زاوية خفية شكلتها بضع أغصان تشابكت لتصنع حاجزاً يحجب ما وراءه عن أعين المتطفلين.

راقبته لفترة وكان يضم في كنفه بضع أفراخ حديث التفقيس، ومن بعدها عدت إلى غرفتي وسكون ساحر كان قد سيطر على أعصابي بعد أن كانت قد شدت بعض الشيء إبان لحظات انتظاري.

– هل أتت بعد كل ذلك الانتظار؟

– نعم وصلت بعد لحظات من عودتي إلى غرفتي وجلوسي قرب النافذة حيث رأيتها وهي تفتح الباب الخارجي وتدخل كمهرة أفلتت مـــن قبضة سائس قوي الشكيمة.

عبرت الممر وهي تتلفت يمنة ويسرة الشيء الذي أنزل الـــسكينة إلى قلبي إذ تيقنت أن ما حدث يوم أمس ترك في نفسها أثراً حسناً.

دخلت الفيلا وسط مراقبتي الدقيقة دون أن أبدي أية حركة تثيـــر انتباهها.

انتظرت قليلاً مفسحاً المجال كي تقوم بتبديل ثيابها وتباشر عملها.

تسللت عبر الباب الذي كانت قد تركته مواربـــاً بعـــض الـــشيء وقصدت المطبخ مباشرة، وإذا بي أراها تجلس لتحتسي قهوتهـــا وهـــي تتكئ على مرفقها وكانت علامات القلق والتحفز بادية على كل سكناتها.

نظرت ناحية الكرسي الثاني وإذا بي أجد فنجاناً ثانياً وكأس مـــاء وكأنها كانت قد حضرتهما لشخص توقعت حضوره بعد قليل.

وبكل مكر تلفتت نحوي سادة علي طريق الهـرب، وبابتـسامتها الساحرة أشارت لي كي أجلس قبالتها.

تقدمت كمسلوب الإرادة وجلست دون أن أنطق بأي حرف. مدت يداها وسكبت لي فنجان قهوة:

- تفضل هذا لك.
- هذا لي!
- نعم لك أنت بالذات.
- ما أدراك بأني سأحضر في هذا الوقت بالذات؟
- العصفورة.
- أية عصفورة؟
- كنت أمازحك...لقد رأيتك وأنت تراقبني مـن خلـف زجـاج النافذة.
- كيف حصل ذلك دون أن أحس بأنك لمحتني؟
- هذا شيء نجيده نحن النساء دوناً عنكم يا معشر الرجال.
- صحيح...لقد صدق من قال:"إن كيدهن عظيم"
- إذاً كانت قد لاحظت وجودك في الغرفة دون أن تشعر بذلك.
- نعم هذا ما حدث يا أبا ديب، وكنت أظن أنني أنا من يراقبهـا وليس العكس.
- هذا أمر تجيده النساء أكثر منا كما قالت لك.
- معك حق.

– ما الذي حدث بعد ذلك؟

– جلسنا هكذا وكل منا كان يرشف من فنجانه وهو يختلس النظر للآخر بشكل أوتوماتيكي دون أية كلمة.

– وبعد ذلك.

– وضعت فنجانها على الطاولة وهي تنظر إليّ بحنـــوٍّ بعـــد أن بدأت تفتر شفتاها عن ابتسامة بسيطة ما لبثت أن اتسعت لتملأ وجههـــا بالكامل.

بشكل فجائي مدت يدها وبحركة سريعة أمسكت يـــدي وهزتهـــا وهي تقول:

– اصح أيها المسلوب...لقد مر طيف وسلبك أحد أصغريك.

سحبت يدي من يدها إذ أعادتني لوعيي لمستها تلك، وغادرت كما حضرت دون أن أنطق بأية كلمة، وسط ضحكاتها التي لم تزل تتـــردد على مسامعي أصداؤها حتى هذه اللحظة.

– لم تقل لي من تكون تلك الفتاة النادرة؟

– هي من أصبحت زوجتي وأم أطفالي لاحقاً.

– آه...لهذا السبب قلت أنك مدين لتلك العائلة بما أنت فيه الآن.

– نعم هذا ما قصدته.

– كيف أتممت ذلك؟

– بعد ذاك اللقاء تكررت لقاءاتنا ضمن الفيلا حيث توطدت علاقتنا بعد أن أزيلت كل الحواجز، وبالأخص النفسية منها وكان قد ساعد كثيراً بذلك كونها ابنة بيئة مماثلة لبيئتي.

توسعت دائرة لقاءاتنا بحيث صارت تحدث خارج الفيلا بين الحين والآخر وفي أماكن عامة بناءً على طلبها وتحديداً ضمن رحاب الحدائق العامة وما شابهها، وكنا في بعض الأحيان نسترق سويعات نلوذ بها في زاوية من زوايا صالة إحدى دور العرض السينمائي، وفهمك كفاية.

– هكذا إذاً أيها الماكر.

– نعم...قالها وهو يضحك كعادته عندما يحشر في موقف حرج.

– من أي المناطق أتت؟

– من منطقة مجاورة لقريتنا لذا تعرفت على كل متعلقات حياتها وأهلها بشكل عام والتي تشبه إلى حد كبير طبيعة ومجريات حياتنا نحن في القرية.

– هذا أمر طبيعي كونكم تنتمون لوسط اجتماعي واحد.

– نعم لذا كان لكل ما ذكرت التأثير الحسن إذ اطمأنّ كل منا للآخر لأن أكثر ما يثير قلق الشخص وبالأخص من له نفس ظروفنا هو تلك الرهبة التي يعانيها عند ولوج جو عام لأسرة تختلف بطبيعتها عن طباعه وبيئته.

– معك حق فكم من أناس من كلا الجنسين عانوا نتيجة ذلك.

– كل ما قلته صحيح لأننا إن أردنا استحضار أمثلة عن ذلك سنذكر الكثير.

لذا وبناءً على ما سبق تجرأت وفاتحتها بالموضوع.

– أين ومتى أقدمت على ذلك؟

– ذات يوم وبعد أن قلبت وداورت المسألة من كل جوانبها حيث كانت تمر عليّ ليال بأكملها وأنا أفحص وأتمحص، وكنت أتردد لدرجة وصلت لقرار مفاده أن ألغي كل ذلك وأعود لحياة السكينة والراحة، ولكن هيهات أن يهدأ بال من لامس شغاف قلبه الحب وداعب خياله في صحوه ومنامه طيف حبيب.

– إيه..أكمل دون أن تشطح في خيالاتك أيها العاطفي.

– أتسخر مني يا أبا ديب.

– معاذ الله أن أفعل ذلك، ولكن أريد أن أسمع بقية القصة قبل أن نصل.

– حاضر أيها اللجوج.

– لجوج يا إدريس..طيب...

– نعم أنت هكذا دائماً عديم الصبر في مثل هذه الحالات.

– كم سأكون مغفلاً إن تركتك دون أن أعرف بقية القصة وخصوصاً أننا سنفترق فور وصولنا...والله أعلم متى سيكون لقاؤنا التالي.

– قررت قبل أن أخلد إلى النوم أن أتكل على الله وأفاتحها بالأمر عند قدومها إلى الفيلا في اليوم التالي.

– وهل فعلت؟

– نعم إذ استيقظت باكراً وأنهيت كل مهامي وعدت لأجهز نفسي من كل النواحي وبالأخص الداخلية إذ شحذت همتي متحضراً لذلك، وبالفعل ما أن حطت قدمها أرض الممر حتى برزت أمامها بكل هيئتي وبشكل مفاجئ.

– كيف قابلتك آنذاك؟

– جفلت لظهوري المفاجئ هذا في البداية ولكنها استعادت اتزانها فوراً هذه طبيعة المرأة حيث قالت:

– خيرٌ إن شاء الله.

– كل الخير...كل الخير...أريد أن أحدثك بأمر هام.

– الآن..صعب جداً كوني قد كلفت منذ يوم أمس بإعداد وليمة صغيرة سيقيمها أصحاب الفيلا لمناسبة عائلية.

– أعرف ذلك.

– كيف عرفت؟

– أتنسين بأنني أنا من يقوم بإحضار كل الحاجات إلى البيت من الأسواق.

– نعم...لقد غاب عن ذهني ذلك، لذا أرجو أن تنتظر حتى أفرغ من كل أعمالي، وبعدها تعال لنتحدث.

– طيب كما تريدين وغادرت كمن صبّ على رأسه كأس ماء بارد.

– كيف أمضيت ذاك الوقت؟

– ضمن غرفتي وكان طويلاً.

– هل نفذت ما كانت قد طلبته منك.

– نعم دخلت الفيلا ومباشرة قصدت المطبخ حيث كانت تسعى بحركة لم ألحظها من قبل، إذ كانت تقوم بتجهيز عدة أشياء في آن واحد حيث كانت تطهو الطعام وتجهز قوالب الكاتو وكذلك كانت تقوم بفرم الخضار بدقة ومهارة لتحضر منها التبولة التي لم أذق ألذ منها في حياتي.

وقفت بالباب لفترة دون أن أقوم بأية حركة مستمتعاً بتلك الرشاقة والمهارة التي لم أكن أعهدها بها من قبل إذ كانت تقوم بعملها بكل أناة.

لذا أحبها أهل الفيلا صغاراً وكباراً ومنحوها ثقتهم.

التفتت فجأة لتراني متسمراً بالباب وعلائم الدهشة بادية علي، أشارت بيدها لي كي أدخل وأجلس كالعادة.

– لم فعلت ذلك؟

– في البداية استغربت الأمر لأن ما قامت به إن دل على شيء فإنه يدل على تجاهل وعدم اكتراث، بينما كنت في قرارة نفسي أتمنى أن تطول تلك اللحظات لأن ما أدخلته في نفسي تلك الحركات من سرور قد أراحتني تماماً.

- هل طال انتظارك هكذا؟

- لا لم يطل كثيراً إذ أنهت أعمالها ولم يبق أمامها سوى انتظار الطعام كي ينضج.

جلست قبالتي بعد أن غسلت يديها ونشفتهما بالبشكير المعلق على خصرها ونظرت نحوي متسائلة وهي تقدم لي صحناً صغيراً حوا قطعة كاتو من قالب لم يحقق رضاها لذا قامت بصنع آخر أحسن شكلاً، عندما لم أبادر قالت:

- خيرٌ إن شاء الله.

- لا شيء سوى الخير.

- هات أسمعني ما كنت تريد قوله.

- أريد محادثتك بأمر هام، ولخصوصيته وخطورته أطلب لقاءك خارج هذه الفيلا لبعض الوقت، وفي أي مكان تختارينه.

- ألهذا الحد الموضوع هام؟

- نعم فهو هام جداً وشخصي.

- طيب كما تريد...اليوم مساء بنفس الحديقة.

- اتفقنا...قلتها وأنا أغادر وكأن حملاً ثقيلاً قد انزاح عن كاهلي.

- هل جاءت؟

- نعم وكنت بانتظارها في ركننا المعهود والذي كان يقابل مدخل الحديقة الفرعي.

أطلت بقامتها الهيفاء كظبية جفلة تبحث عن ملاذ، وما إن رأتني حتى ارتسمت على محياها تلك الابتسامة الخجولة.

جلست بالقرب مني وكان قلقها واضحاً رغم ما كانت تظهره من تماسك.

أمسكت يدها بكلتا يدي كالعادة وأنا أنظر في وجهها الذي ما لبثت أن أنزلته خجلاً وحياءً...قلت لها بعد أن قمت بهزّ كفها:

– اسمعي يا غاليتي، لقد حسمت أمري وعزمت على أن أطـــرح عليك أمراً أرجو أن توافقيني عليه وتساعديني على تنفيذه.

– قل ما هو؟

– أريد أن أتقدم لخطبتك هكذا وبدون مقدمات.

– فاجأتني بهذا الطلب...قالتها مقلدة معظم النساء حين يوضـــعن في نفس الموقف.

– أعلم ذلك ولكن أريد أن أرسوا على بر كما يقولون فمـــا هـــو رأيك؟

– أنت تعرف مكانتك عندي ولكن مثل هذا الأمر لا يعـــود لـــي القرار فيه إذ هناك عائلتي وأنت أعلم بذلك.

– معك حق ولكن أريد موافقتك مبدئياً.

صمتت ولم ترد وهي مطرقة الرأس.

كررت...أريد موافقتك...والآن حصرياً.

– ألا تدعني أفكر لبضعة أيام.

– لن أدعك تغادرين هذا المكان من دون أن تقرري.

– صعب علي ذلك.

– لا شيء صعب، فأنت أصبحت مطلعة على كل مجريات ومتعلقات حياتي، إلا إذا كان لديك أي استفسار فأنا جاهز للرد.

– لا...لا شيء محدد ولكن.....

– لا تترددي، انطقي هذه الجوهرة...قلتها وأنا أهز كفها بيديّ.

– طيب كما تريد، لا مانع عندي...قالتها وهي مستمرة في إطراقتها.

– كيف تلقيت ردها؟

– لا أستطيع وصف شعوري آنذاك، وصدق لو لم نكن في مكان عام لكنت حملتها وأنا أضمها إلى صدري بعناق أبدي.

– ممتاز ها أنت قد حققت مرادك.

– نعم...وافترقنا بعد أن غادرنا الحديقة على أن تتشاور في الأمر مع أهلها وترد عليّ في أقرب وقت.

– هل انتظرت كثيراً ذاك الردّ؟

– بالعكس، ففي اليوم التالي حضرت إلى الفيلا على غير عادتها لتبلغني بموافقة أهلها المبدئية على الأمر.

– بهذه السرعة!؟

– نعم كونهم ينتمون إلى نفس المنطقة وتربط والدها بخالي علاقة صداقة قديمة، لذا تم كل شيء بسهولة، كما كان لأصحاب الفيلا الدور

الأكبر في إتمام الأمر، حيث قاموا ببناء غرفة إضافية جانب غرفتي لتكون مقراً لي ولزوجتي ولأطفالي لاحقاً، كوننا تابعنا عملنا داخل الفيلا كل حسب تخصصه حتى يومنا هذا.

– أهنئك من كل قلبي، فأنت تستحق أكثر من ذلك.

– شكراً أبا ديب.

نظر أبو ديب غرباً فشاهد سحابة دخان أبيض تتصاعد وكانت تصطحبها رائحة نفاذة...وقال:

– هذه مصفاة النفط الرئيسية في هذا البلد.

– نعم، أتذكر يوم قصفت من قبل طيران العدو؟

– نعم وهل ينسى مشهدٌ كهذا، إذ شوهد الدخان الأسود من مسافات بعيدة.

– ولكن يجب أن لا ننسى الرد السريع الذي قام به سلاحنا الجوي حيث قصف مصفاة حيفا.

– نعم وكانت صدمة العدو وقتها كبيرة.

– ما أحلى أيام الانتصار، رغم كل ما تتركه الحرب من مآس.

– هذا قدرنا...إذ لا مهرب من القدر.

.....

الفصل الثالث

" جنح اليمام "

- ١ -

وصل أبو ديب قريته مساءً، وكان بانتظاره أمام المحل ابن عمه أبو أحمد وكان في غاية القلق...سأله أبو ديب بعد أن سلم عليه وعلى الموجودين:

- خيراً إن شاء الله، مالي أراك قلقاً؟..هل حدث شيء؟

- نعم ولكن اذهب الآن وخذ قسطاً من الراحة..لكن وقبل كل شيء هات طمئنا على وضعك الصحي.

- الحمد لله، كل شيء على ما يرام ولكن أزعجني ما قاله الطبيب.

- ما هو؟

- طلب مني أن أخلد للراحة، لأن أية انتكاسة لاحقة ستكون وخيمة العاقبة.

- بسيطة جداً، التزم بما طلبه منك لأن صحتك شيء هام.

- نعم ولكن لمن أترك واجباتي ومسؤولياتي؟

- للذين حولك فهم مستعدون لتحمل ذلك.

- كيف ذلك، وأنت تعلم بأنني لا أقنع إلا بعمل يدي.

- لا مانع ولكن بهدوء، اجلس وخطط لهم كيف ما تريد.

- اتعب جسدك ولا تتعب لسانك.

– لم أتعب نفسي، فأنا أعلم بأنه لا فائدة منم الكلام معك وخصوصاً فيما يتعلق بذلك...قالها أبو أحمد وهو يغادر على أمل أن يعود بعد قليل.

– ما الذي حدث لعمكم أبي أحمد...قالها أبو ديب موجهاً كلامه لأولاده وبالأخص لصابر.

– ألا تعلم مشكلته الدائمة؟..قالها صابر.

– منهل ثانية.

– نعم.

– ما الذي قام به هذا الشقي؟

– قام بالعديد من المشاغبات وآخرها ما ترك جروحاً ورضوضاً في كافة أنحاء جسده وجسد شقيقه مسعد.

– كيف صار ذلك؟

– كان مسعد عائداً بعد أن ابتاع بضعة أغراض كانت ولدته قد كلفته بشرائها، وأثناء ذلك صادف في طريقه منهل وكان يركب دراجته الهوائية التي تعرفها جيداً تلك المجردة من أغطية الدواليب وكذلك الفرملة.

وقف بجانبه وسأله بعد أن أسند قائمتيه على الأرض:

– أين كنت؟

– في الدكان.

– ما الذي تحمله معك؟

- حاجات كلفتني أمي بشرائها.
- ألم يزد معك شيء من النقود؟
- لا أبداً.
- لعنك الله.
- لماذا؟
- هكذا...اركب.
- لا أريد.
- اركب كما أقول لك.
- لا أريد فأنا أخاف من السقوط.
- اصعد يا رجل ولا تخف، ألا تعلم أنني سيد من ركب الدراجة.
- لا أريد..لا أريد..قالها مسعد وهو يحاول الهرب.
- اركب وإلا...قالها مهدداً وهو يحاول النزول عن الدراجة، لذا رضخ مسعد خوفاً من ردة فعل أخيه الشرس.

وما أن استوى منهل على الدراجة حتى قام عن مقعده محركاً جسده ورجليه بقوة مما زاد في سرعة الدراجة، ومسعد يتمسك فيه وهو يرتجف خوفاً.

- انتبه هناك مفرق...قالها مسعد.
- أراه جيداً، لا عليك وزاد من سرعة دراجته. عند الانعطاف وبسبب السرعة انزلقت الدراجة على حصى الطريق، وكانت النتيجة تمزيق ثيابهما وسيلان الدم من كل أنحاء جسديهما.

– لا حول ولا قوة إلى بالله...متى يعقل هذا الولد.

– أمره عجيب يا والدي، بالرغم من كل محاولاتنا أنا وشقيقه أحمد إذ ذهبنا إلى المكان الذي كان يختلي بنفسه به بالعادة، فوجداناه شارداً بينما كانت قطع الشاش تلف وتغطي معظم مناطق جسده من رأسه حتى قدميه حيث بادرته قائلاً:

– الله..ما هذه الجلسة الشاعرية يا منهل..استوى في جلسته ورد مرحباً ومستفسراً عن سبب مجيئهما..رد أحمد:

– جئنا أولاً لنستمتع وإياك بهذا المشهد الرائع، وثانياً لنحدثك بأمر ما؟

– بخصوص أي شيء.

– بشأن ما تقوم به من تصرفات تزعج الجميع، وبالأخص والديك.

– أنا لا أقوم بأي عمل شاذ.

– كيف ذلك؟...ولماذا تعاقب يومياً إذاً؟

– أنا أحاول تحصيل حقي فقط.

– لماذا، وهل تتعرض لأي غبن؟

– نعم...لماذا نحن نتميز عن الجميع...ألأننا فقراء، فكل أهل القرية فقراء بل نحن أفضل وأحسن حال من أكثرهم، رغم ذلك فأولادهم يحصلون على كل ما يرغبون به دون أية مشاكل.

– مثل ماذا؟

– مثلاً أنا أريد مصروفاً يومياً كبقية أقراني في القرية، وهذا لـــم يحصل أبداً إلا عندما أبتدع المشاكل.

وثانياً لماذا كل ولد يستطيع الدخول إلى المطبخ ويأكل ما يريـــد ويستقبل من يريد إلا نحن فكل شيء مراقب ومقفل عليه وفوق ذلك كله ذاك "الشاويش".

قل لي بربك بالرغم من أنك أكبرنا، هل تستطيع دعوة أحدٍ مـــن أصدقائك وأن تقدم له كأس شاي على سبيل المثال؟

– نعم معك حق، ولكن يجب أن نتصرف بهدوء كي لا نزيد من هموم والدينا ونسيء إلى سمعتهم.

– هذا غير مقنع، سأقوم بكل شيء من شأنه أن يحقق رغباتي إذ لا يوجد في هذا الكون من هو أفضل مني.

– يا أخي أهلك يعانون كثيراً نتيجة لتصرفاتك هذه.

– أنا لا أعتدي على أحد.

– كيف ذلك، فما تسمي الذي فعلته بأبي أكرم وأبي حسن إذاً؟

– قمت بذلك لأعاقبهم على رفضهم بيعي ما كنت قد طلبته منهم رغم كل ما كنت قد قدمته لهم من مغريات.

– يا أخي هذا حقهم وتلك ملكيتهم، فنحن لا نستطيع فـــرض مـــا نريد على أحد.

– لماذا لا نملك كما يملكون، لماذا نحن نحس دائماً بأننا أقل منهم شأناً.

– نحن وأنتم بخير، كون حالنا أفضل بكثير من أحوال من هــم حولنا.

– نعم ولكن أولئك لا يوجد في بيتهم شاويش يراقب كل شيء.

– لكل أسرة وضعها، لذا يجب ألا نقارن أنفــسنا بأحــد...قالهــا صابر.

– هذا كلام سمعته كثيرا.

– حسب ما فهمنا، أنك لا تريد أن تهدئ الأوضاع.

– سأفعل ما من شأنه تحقيق رغباتي أياً كانت النتائج.

– لقد أعييتنا يا رجل...قلتها ونحن نغادر وكلنا قناعة بأن كل ما قلناه ذهب هباء.

– إذاً لم تصلوا معه لأية نتيجة.

– لا، ولكن اسمع ما كان قد قام به هو وحيان ابن عمه.

– ما الذي فعله هذان الشقيان.

– حسب ما رواه لي حيان إذ قال:

وبينما كنا جالسين على الصخرة كالعادة، بادرني منهل قائلاً:

– كيف كان محصول العنب عندكم هذا العام؟

– جيد جداً، إذ باع والدي القسم الأكبر منه، وما تبقى صنعت منه والدتي زبيباً.

– هل أصبح الزبيب جاهزاً؟

– أعتقد ذلك لأني لم أر ذلك بعيني كون والدتي كانت تقوم برفع السلم عن حافة السطح بعد انتهائها من تفقد الزبيب.

– لماذا لم ترافق والدتك أثناء قيامها بذلك.

– لأنها كانت قد حظرت علينا ذلك بالإضافة لقيامها برفع السلم الطويل والثقيل جداً.

– ما رأيك بالذي يدلك على طريقة تمكنك من الحصول على الزبيب بدون سلم.

– كيف؟

– اقترب وسأشرح لك ذلك.

– ها أنا اقتربت قل لي ما هي فكرتك يا أبا الأفكار.

– هل عندكم قطة في البيت؟

– نعم لدينا أكثر من واحدة.

– اذهب واحضرها واجلب معك أيضاً حبل رفيع بعض الشيء وقطعة جبن.

– لم كل هذا؟

– اذهب واجلب ما طلبته وسترى ذلك بأم عينك.

– حاضر. وانطلقنا كل باتجاه بيته على أن نلتقي قرب منزلنا بعد قليل.

وعندما التم شملنا قال منهل:

– أرني ما أحضرت.

ناولته كيساً حوا كل ما كان قد طلبه...تفقده وهو يهز رأسه استحساناً. قادني نحو منطقة تقع خلف بيتنا مباشرة حيث تجاوزنا سور التحويشة إلى أن صرنا قرب حائط بيتنا تماماً عندها أخرج منهل الحبل وقال لي:

– أمسك القطة من أطرافها الأمامية ودعها تتدلى.

فعلت ذلك عندها قام بربط الحبل حول جسمها من تحت إبطيها وبعد ذلك أعطاني طرف الحبل وقال لي:

– تمسك به جيداً.

ثم أخذ مني القطة ثم ما لبث أن أخرج قطعة الجبن من الكيس وقام بتمريرها من أمام أنف القطة، تململت محاولة الإفلات لتنقض على قطعة الجبن تلك عندها قام بإلقائها على السطح.

والقطة تراقبها عندها أفلتها لتتسلق الحائط قليل العلو ومنه إلى السطح باحثة عن قطعة الجبن. وما أن صارت هناك حتى قام بشد الحبل قليلاً حتى بانت مؤخرتها وهي تحرك أطرافها بسرعة خشية السقوط.

أرخى الخبل قليلاً ثم أخذ بشده بينما القطة تحاول التشبث بالسطح وذلك عن طريق تحريك أطرافها ومن جراء ذلك بدأ الزبيب يتساقط إلى أن صارت كميته كافية، عندها قام بشدها وتلقفها بيديه وهي تموء مواءً يائساً كونها فقدت قطعة الجبن.

– الله أكبر على ذاك الولد...فكرة لم تخطر على بال إبليس.

– نعم.

– كيف كانت ردة فعل أهله عند اكتشاف ذلك؟

– عاقبه والده بعد أن قامت جدته بإبلاغه بذلك.

– هل سكت عن تلك الوشاية؟

– لا أبداً.

– ماذا فعل؟

– استغل فرصة انشغال الجميع في الحقل، فدخل غرفة جدته حيث بادرها:

– هل أفرغت سمك وانشرح صدرك لعقوبتي؟

– اذهب يا ولد، فأنت بحاجة لإعادة تربية...قالتها صائحة.

– أنا يا عجوز يا شمطاء، واقترب منها عندها قامت ورفعت عكازها في وجهه مهددة.

– أمسك العكاز بيده اليسرى، وقام بصفعها بيده اليمنى بكل ما أوتي من قوة، حيث جعلتها تلك الصفعة تترنح ثم تسقط أرضاً دون حراك.

– راعه الموقف لدرجة أنه غادر قاصداً الحقل حيث كان أهله. اقترب من شقيقه مسعد هامساً:

– لقد ضربت الشمطاء حيث سقطت دون حراك، وأظنها ماتت، إن حدث ذلك سيذبحني والدي.

غادر مسعد الحقل في الحال ليستطلع الأمر، وعندما دخل المنزل وجد جدته تجلس كعادتها في غرفتها، وبدا كل شيء هادئـــاً وطبيعيـــاً عندها عاد ليطمئن منهل الذي تنفس الصعداء فور سماعه ذلك...

– حسناً..قالها وهو يغادر إلى حيث تكون صخرته.

– بكل تأكيد عاقبه والده على عمله المشين هذا.

– نعم، وكان قد حضر لإخبارك بذلك آملاً أن تتدخل وتقنع منهل بالعدول عن تلك التصرفات كونه يعلم بأنه يطيعك ولا يرفض لك طلباً.

– سأكلمه وسأعاقبه إن لزم الأمر وسيسمع مني لأني أحبه رغم كل ما يقوم به من تلك الشقاوات.

– نعم حاول معه، كون تصرفاته زادت عن الحد.

– معك حق...قالها وهو يغادر باتجاه البيت ليبدل ثيابه ويـــستحم طرداً لكل متعلقات السفر.

.....

- ٢ -

استغل أحمد الهدوء الحاصل كون منهل لزم غرفة الجلوس حيث انزوى في إحدى الزوايا، وهو يلف نفسه ببطانية رقيقة لقدمها وكثرة استعمالها التي كانت من أهم الأشياء المحببة إلى قلبه، إذ كان يحتفظ بها بمكان قصي من الخزانة مانعاً أي شخص من أن يلمسها، لدرجة صارت معها ذات هالة كما الأجرام السماوية، خشية ردة فعل منهل والتي غالباً ما تكون قاسية.

شرد وهو يراقب الجميع وكان قد أسند رأسه على كف يده ناقلاً نظره من شخص لآخر بهدوء وسط صمت الجميع.

في الوقت الذي كان أحمد ينهي واجباته الدراسية إذ كان يعد نفسه للتقدم لامتحان الشهادة الثانوية، إذ أنه ولولا ردة فعله مما آل إليه معظم أقرانه في القرية لما كان حقق ذاك التقدم والتميز إذ حصل على تلك الشهادة في العام نفسه وبمحصلة أهلته للالتحاق بكلية الهندسة، والتي تخرج منها بعد عدة سنوات كونه قام بقطع تلك المرحلة ليسافر إلى لبنان حيث يعمل ليوفر مصاريف دراسته.

وبالرغم من كل ذلك ولما تمتع به من قوة إرادة وتصميم حقق هدفه، إذ تخرج من تلك الكلية مهندساً وليباشر عمله لدى إحدى أهم القطاعات الاقتصادية في هذا البلد، حيث شق طريقه في هذه الحياة مستقلاً عن كل من حوله، إلا من بعض الأعمال التي ألزم نفسه بها مشاركة لبقية أفراد الأسرة.

لفت نظر منهل وهو يجيل نظره في كل أنحاء الغرفة ثوب أخته الصغيرة المعلق خلف الباب وتذكر كيف قام بتمثيليته التي كاد من جرائها أن يخسر أمه، إذ تسلل إلى غرفة والدته حيث كانت تحتفظ بصندوق مليء بثياب الأطفال التي كانت لم تزل تحتفظ بشيء من رونقها.

مد يده داخل الصندوق وأخرج ثوباً صغيراً كانت والدته تلبسه لأخته الرضيعة دائماً، عندها قام بحشوه ببعض قطع القماش حتى صار على شكل دمية حمله بين يديه وصعد السطح وكان لمن ينظر إليه يظن بأنه يحمل طفلاً صغيراً.

اقترب من الحافة ونادى على أهل البيت وخصص جدته بالذات كي تشهد ما سيحدث.

وبالفعل تجمع كل من كان في المنزل وهم ينظرون إليه والارتباك باد عليهم بالدرجة الأولى لخوفهم على تلك الصغيرة وثانياً كون لا أحد في هذا العالم يستطيع التنبؤ بما سيقوم به.

اقترب من حافة السطح أكثر، وأخذ يهدهد أخته المزعومة بهدوء ما لبث أن زادت وتيرته، وهنا بدأ الصراخ والتهديد له. بقي هكذا إلى أن تأكد من أن كل من كان في المنزل قد حضر. زاد من سرعة هزه هذه، ووسط صراخ وعويل الجميع قام بإلقاء دميته لتسقط أرضاً،

عندها فقدت أمه وعيها وسقطت أرضاً مغمياً عليها، ووسط تراكض الجميع نحو الطفلة نزل عن السطح وغادر. هز رأسه وهو يبتسم حيث حدث نفسه قائلاً:

" سأجعلكم تلقون عصا الطاعة "

– ٣ –

في هذا الوقت كانت تعقد جلسة أمام دكان أبي ديب بينه وبين ابن عمه أبي أحمد، والذي قام بطرح ما كان قد نغّص حياته طيلة الفترة الماضية.

– هات يا بن العم ما الذي تقترحه حيال ذلك؟

– عليك التحلي بالصبر مبدئياً لأن أمثال منهل لا تنفع معهم الشدة والعصبية. إذ ينفع الاستيعاب مع قليل من التوجيه ريثما تمر هذه المرحلة لأن بعض الأولاد تكون تصرفاتهم تحمل شيئاً من التهور وللأسف ينحرف أكثرهم لعدم دراية ذويهم بكيفية التعامل معهم، لذا كل ما أرجوه أن تتسلح بالصبر كي لا نقع في المحظور، وأنا سأساعدك في ذلك عسى أن تسفر جهودنا عن خير ما.

– معك حق يا أبا ديب، ولكن لقد أعياني هذا الولد.

– نعم ولكن كي ننجح في مهمتنا يجب أن نتصف جميعنا بسعة الأفق ورحابة الصدر.

– طيب كما تريد...آه كدت أنسى ما كنت قد أتيت لأجله.

– ما هو؟عسى أن يكون خيراً.

– كانت النتيجة خيراً إذ تدخلت العناية الإلهية في الوقت المحدد، ولولا ذلك لكانت العواقب وخيمة إذ كانت ستقع كارثة.

– أين وكيف؟ تحدث يا رجل بدأت تشغل بالي.

– في القرية المجاورة قام بعض خفافيش الظلام بوضع اسطوانتي غاز مفخختين، واحدة بالقرب من دكان أبي سائد والثانية في ساحة القرية حيث انفجرت الأولى لتودي بحياة زوجة أبي سائد مع الكثير من الأضرار أما الثانية والتي كان قد اكتشف مكان وجودها مصادفة من قبل بعض الشبان الذين قاموا بالاتصال بمراكز الأمن، ولكن هؤلاء تأخروا بعض الشيء لذا قام كهل من رجال القرية "فلان" تعرفه بعد أن خلع كوفيته وهو يصيح سأكون فداء لكم، وهجم على الاسطوانة معطلاً جهازها وسط ذهول ودهشة الجميع.

– عظيم ما قام به هذا الرجل رغم تهوره.

– من أجل هذا الأمر جئتك.

– ما علاقتي أنا بذلك؟

– أنت ولكونك من نشطاء الجمعية الفلاحية لذا أرجو أن تطرح هذا الأمر على المجتمعين هناك.

– أي أمر؟

– إنه يتوجب علينا تنظيم عملية حراسة القرية ليلاً منعاً لتسلل الغرباء.

– فكرة جيدة، ولا حاجة للجمعية إذ أننا نستطيع تنظيم ذلك بأنفسنا وبنفس الوقت نستطيع التنسيق مع جيراننا في القرى المجاورة لنتبادل الإنذار في حال وقوع الخطر.

– معك حق.

- دعنا إذاً ندعو لاجتماع عام قريباً.
- اتكل على الله.
- اليوم مساء.
- اتفقنا، والآن إلى اللقاء وسأقوم بتبليغ كل من أصادفه في طريقي.
- وأنا كذلك سأبلغ كل من يحضر إلى الدكان.
- تمام...وداعاً.
- مع السلامة.

وصل أبو أحمد منزله ليجد أبناء عمه بانتظاره...تـوجس من حضورهم المفاجئ هذا، لكنهم تقدم مصافحاً مرحباً حيث قال:

- أهلاً بكما، لم هذه القطيعة يا أبناء العم؟
- أهلاً بك يا أبا أحمد، في الواقع جئناك لأمر هام.
- خيرٌ إن شاء الله.
- أتينا نشكو لك من تصرفات ولدكم منهل.
- ما الذي فعله ذاك الولد؟
- يا سيدي بينما كان ولدي حسين ومجموعة من رفاقه يحاولون تشكيل فريق كرة قدم قرب الحرش، كان منهل كعادته يجلس ضمن شجرته التي تعرفها جيداً.

هز أبو أحمد رأسه موافقاً.

وما أن قاموا بتشكيل ذاك الفريق حتى قفز من فوق غصنه صائحاً:

- أريد أن ألعب معكم.
- لن تلعب معنا...قالها ولدي حسين.
- سألعب رغم أنفك.
- لن أسمح لك بذلك، فالكرة لي وأنا حرٌّ في من أختار للّعب معي.
- سألعب بالقوة شئت أم أبيت.
- لن أسمح لك مطلقاً.
- سألعب، ونقدم ليشتبك معه بيديه، وبحركة سريعة من ابني الذي يتمتع بقوة جسدية مقبولة ألقاه أرضاً حيث تعاركا وكانت الغلبة لابني الذي وضعه تحته كونه الأضخم جثة.

عندها تململ محاولاً إفلات يديه اللتين كان قد ثبتهما حسين، وهدده قائلاً:

- سأؤذيك إن لم تتركني.
- لن أتركك حتى تقر بالهزيمة وتغادر.
- اتركني أقول لك.
- لن أفعل.

وبحركة خاطفة أفلت يده اليمنى، وبكل ما أوتي من قوة قام بلكم حسين تحت فكه لكمة أفقدته وعيه حيث قلبه، وقام مغادراً ومهدداً.

عندها قام أحد الأولاد برش قليل من الماء على وجه حسين من مطرة كان يحملها معه بالعادة، حيث قام حسين وغادر مطأطئاً رأسه خجلاً.

ومن ذاك الوقت يلزم غرفته بائساً حزيناً، لذا قم بتوجيهنا يا بن العم بالذي سنفعله حيال ذلك.

– يبقى الأمر كله لعب أطفال، وبالرغم من كل ذلك سأنزل فيه عقاباً شديداً، وسألزمه بمصالحة ابن عمه.

بالمناسبة سأستغل فرصة لقاءنا هذا لأطرح عليكما أمراً هاماً كنت قد اتفقت عليه وأبو ديب.

– خيراً يا أبا أحمد..قالها أبو حسين.

– كنت قد اقترحت عليه أن نقوم بتشكيل فرق حراسة من رجال وشبان القرية لنمنع المتسللين من دخول القرية ليلاً، فما رأيكما.

– نعم الرأي نحن موافقان، بل قم بتسجيل اسمينا على رأس القائمة ومن بعدنا أولادنا لنكون قدوة لكل رجل في هذه القرية لأننا لا نريد أن نتعرض لما تعرضت له القرية المجاورة.

– معكم حق، فالمرحلة خطيرة، وما يدبر لنا غاية في الخسة.

– اتفقنا إذاً.

– نعم اتفقنا...قالوها وهم يغادرون..عندها خاطبهم أبـــو أحمـــد قائلاً:

– علينا جميعاً أن نقوم بإبلاغ كل الرجال فـــي القريـــة بموعـــد الاجتماع بعد غد مساء.

– حسناً سنقوم بما يترتب علينا حيال ذلك..إلى اللقاء.

- ٤ -

بعد مغادرة أبناء عمه جلس أبو أحمد وزوجته الطيبة أمام الغرف على المصطبة بعد أن قامت بتنظيفها ورش الماء حولها أثناء سقايتها لأصص الأزهار التي صفت بشكل متناسق على حواف تلك المصطبة.

وصلتهما أثناء ذلك نسمات رطبة محملة بأريج تلك الورود، تلفت أبو أحمد ناحية زوجته التي كانت تعد كؤوس المتة بتأن ظاهر قائلاً:

- ما رأيك يا أم أحمد بهذا الولد الشقي؟

- تصبّر يا رجل فهو لم يزل صغيراً، ويعقل مع مرور الوقت.

- متى يحصل ذلك؟.. لم هذا الولد شاذ هكذا؟

- كل ولد منحه الله عقلاً وطبيعة خاصة.

- حسب ما أرى، والله أعلم، وبكل ما يقوم به من تصرفات فإنه من قصار العمر.

- وكّل الله يا رجل، ربنا يمنحه العمر المديد.

- ونعم بالله، ولكن لا أظن ذلك لأن كل تصرفاته تدل على ذلك.

- سلم أمرك لله، وادع له بأن يهبه الله السكينة وسعة العقل.

- إن شاء الله.

رفعت صينية المتة ليحل محلها طبقٌ واسعٌ حوا عشاء ريفياً زاخراً بألذ الأصناف، وكان على رأسها ذاك البطيخ الأحمر بالإضافة للعنب الطازج والجبن، كما كانت هناك بضع صحون مليئة بما كان يجود به مطبخ تلك الأسرة.

وبعد ذلك نودي للجميع ليتناولوا عشاءهم.

حضر الجميع إلا منهل الذي كان قد تسلل سراً وانزوى في الغرفة خوفاً من عقوبة والده بعد الشكوى التي تقدم بها أعمامه.

– قم يا مسعد واستدعي منهل، وقل له بأنني لن أعاقبه.

– حاضر...وغادر إلى حيث كان منهل.

غاب للحظات ثم عاد برفقة منهل الذي حضر مطأطئاً رأسه خجلاً كطفل ضبط في موقف حرج.

- ٥ -

عصراً كان أبو ديب منهمكاً ببعض الأعمال ضمن دكانه إذ كان يقوم كالعادة بترتيب وتنسيق البضائع بشكل أنيق فوق الرفوف وفي واجهة المحل البلورية

وبنفس الوقت كان جهاز الراديو يعمل كعادته على موجة إذاعة"بيبي سي" هيئة الإذاعة البريطانية وكانت تبث أغنية لفريد الأطرش.

توقف البث فجأة لتذيع نبأ عاجلاً مفاده أن إسرائيل تقوم بهجوم كبير على الأراضي اللبنانية، رداً على عمل قامت به سرايا المقاومة.

وكانت ترتكب الفظائع مستخدمة كل ما كانت تختزنه من أسلحة فتاكة من تلك التي كانت تزودها بها أمها الحنون.

توقف عن العمل واستدار ليجلس خلف طاولته بفكر شارد، إذ تداعى لمخيلته ما كانت قد قامت به تلك الدولة الغاصبة من اعتداءات شملت كل بلاد المشرق، وكان أهم وأخطر تلك الاعتداءات عندما وصلت عاصمة ذاك البلد واحتلتها طاردة مواطنين كانت قد هجرتهم من ديارهم سابقاً لتقيم هناك دولتها.

وتذكر كيف هبّ شرفاء الوطن من كل مكان لصد ذاك العدوان حيث قام كل شخص بتقديم ما يمكن تقديمه حتى النفس، كما فعل ذاك الشاب الشهم الذي لم يستطع كبح جماح غضبه عند رؤيته لعناصر من جيش العدو يتبخترون وسط الشارع أمامه وبكل وقاحة، حيث قام

بإطلاق النار عليهم من مسدس كان يحمله تحت ثيابه مردياً إياهم بين قتيل وجريح.

وبالرغم مما آلت إليه نهايته إلا أنه قام بتسجيل ذلك للتاريخ ليعلم الكون كله أن الإنسان الأبيّ لن يقبل الضيم أبداً.

– يا إلهي متى نتخلص من تلك الكتلة الخبيثة؟...إلى متى نبقى نتحمل كل أفعالها؟...قالها محدثاً نفسه.

وهو بوضعه هذا دخل أبو أحمد وكان مكفهر الوجه حيث بادره قائلاً:

– أسمعت الأخبار؟

– نعم أنا أسمع.

– ما هو رأيك؟

– شيء تعودنا عليه.

– لم تصمت كل الدول العربية على ذلك؟

– لكل دولة ظروفها الخاصة، والتي تجبرها على ذلك.

– أية ظروف يا رجل تجعل من الإنسان أداة طيعة، فما بالك بالحكومة.

– الدنيا هكذا يا بن العم، كان الله في عون أولئك الفقراء الذين يتحملون كل تلك المآسي، وسدد خطا كل شخص انتفض مقاوماً أياً كان ميله واتجاهه.

– صحيح...الله على الظالم.

استمر ذاك العدوان أياماً عدة سجّل خلالها العدو رقماً قياسياً في اختراق كافة المواثيق والقوانين الدولية، وبنفس الوقت كان رجال المقاومة قد سجلوا وسطروا ملاحم خالدة تذكر ما دام هناك حياة.

لم تنته تلك المعمعة إلا عندما قام العدو بارتكاب جريمة يندى لها جبين كل من يجري في شرايينه دم إنساني، إذ قام بقصف مقر منظمة دولية كان قد التجأ إليها العديد من الأسر، ليسفر ذلك عن عشرات من الضحايا، وكان جلهم من النساء والشيوخ والأطفال.

مما اضطر تلك المنظمة المتقاعسة والخاملة منذ زمن بعيد، لتنفض عن كاهلها غبار صمت طال مكوثه، حيث اتخذت قراراً أدان ذاك العدوان.

وبنتيجة ذلك دفع أمينها العام ثمناً شخصياً، وبذلك عادت الأمور إلى ما كانت عليه بعد توقيع اتفاق جنّب المدنيين كل شرور الحرب.

سمع ذلك كل من أبو أحمد وأبو ديب إذ كان ذاك الجهاز يبث هذا النبأ المريح.

– حيّا الله ذاك الشعب وجيشه ومقاومته على بسالتهم وصبرهم في صد ذاك العدوان الغاشم.

– نعم صحيح يا أبا ديب، إذ لا يمكن لشعب أن يهزم طالما تمتع بروح المقاومة.

– صحيح ولكن.....

– ولكن ماذا؟

– ولكن لولا كثرة المتآمرين في عالمنا، والذين يقومون بإفراغ كل نصرٍ من مضمونه ومحتواه، مجيّرين ذلك لصالح الأعداء داخليين كانوا أم خارجيين.

– نعم هؤلاء هم سبب البلاء في كل زمان ومكان.

– صحيح ولولا ما قام ويقوم به أولئك لكانت قد توحدت كل القوى الوطنية الشريفة مشكلة قوة كبرى تستطيع الوقوف في وجه كل تلك الهجمات.

– كيف يسمح ضعاف النفوس أولئك بقيام تلك الحركة لأنها إن حدثت ستعوق مخططاتهم وتهدم مصالحهم، لذا تراهم يبذلون أقصى إمكاناتهم في سبيل عدم حصول ذلك.

– هل سنبقى هكذا؟

– سنبقى إلى أن تقوم الساعة، إن لم يستفق أولئك النيام من سباتهم.

– إذاً أمامنا وقت طويل.

– نعم ولكن بالتصميم وبذل الجهد نستطيع فعل شيء مهما كان صغيراً كونه سيترك أثراً فعالاً في نفس كل نظيف وشريف في عالمنا.

– معك حق، ولكن دعنا من كل هذا الآن....هل تشرب المتة؟

– نعم، وهل فعل الخير يحتاج لمشورة؟

– ظننتك سترفض، وبذلك توفر علينا كأس متة.

– من يسمعك تقول هذا يظن أنك بخيل.

– من قال لك بأنني لست ببخيل.

– أنا، لأني لم أعهدك هكذا، فأنا أعرف كرمك واندفاعك إن قام أحداً بزيارتك.

– نعم، ولكن لكل مقام مقال.

– آه هكذا إذاً، أنت كريم على بعض الناس وبخيل على بعـــضهم الآخر.

– نعم، لأنني يا صاحبي أعيش على مبدأ "كما تراني يا جميـــل أراك".

– هذه حكمة ولكن أحياناً تفرض الظروف نفسها.

– إن فرضت ذلك سنرضخ صاغرين...قالها وهو يعـــد كـــأس المتة.

– أتذكر منهل رحمه الله...قالها أبو أحمد مقاطعاً.

– ما الذي ذكرك به الآن؟

– لا أدري، لكنه خطر على بالي الآن، ربما الظروف التي نمر بها حالياً هي التي استحضرت ذكراه كونه كان يقوم بمعظم شقاواته في الفترة التي كانت إسرائيل تقدم على أعمال عدوانية، كالتي تحدث الآن.

– ما الرابط بين ما كان يقوم به وما تفعله تلك الدولة من أعمال مشينة؟

– لا أدري بالضبط، ولكن قد يكون يستغل انشغال الناس بالـــذي يجري ليقوم بتنفيذ مخططاته بهدوء.

– ربما، لا شيء يمكن تكذيبه عنه...رحمه الله.

– نعم رحمه الله فقد كان خفيف الظل رغم كل أفعاله.

– نعم لأنني لم ألتق بأحد حتى الآن ممن احتكوا بـــه يكـــن لـــه الكراهية.

– صحيح فأنت تقول الحقيقة.

– أذكر يوم وقع ذاك الحادث الذي أودى بحياته.

– فليذكر ولا يعاد...أدعوتني لاحتساء كأس متة أم لتنبش تلـــك المواجع.

– طالما الإنسان حياً يرزق...يظل يتذكر.

– صحيح...أتعرف أنني حتى هذه اللحظة لم أسأل كيف وقع ذاك الحادث كوني وكما تعلم لم أكن موجوداً حينها، إذ لم يطـــاوعني قلبـــي على ذلك.

– حدث ذلك كشريط سينمائي، وكأن القدر كان قد أعد كل شيء بدقة متناهية.

– كيف؟..أتستطيع تذكر ذلك؟

– نعم أذكره جيداً وكأنه حدث البارحة.

– هل يزعجك سرد ما حدث؟

– كلا أبداً.

- ٦ -

صباح ذاك اليوم استيقظ منهل باكراً ولبس ثيابه ومن ثم قام بإيقاظ شقيقه مسعد، مذكراً إياه بالاتفاق الذي تم بينهم وبين الشلة بخصوص رحلة الصيد.

- رحلة صيد!..إذاً كانوا يقومون برحلة صيد وليس كما ذكرتم أمامي أنهم كانوا يلعبون.

- كان صيدهم هذا أقرب إلى اللعب منه للصيد المتعارف عليه.

المهم وبعد أن تناولا فطورهما قام منهل بدس سكينة في جيبه مع علبة الكبريت بالإضافة لعدد من أرغفة الخبز، وغادرا إلى حيث كان الموعد.

وكالعادة وقعت القرعة عليه كونه أمهر الجميع في تسلق الأشجار وكبس أعشاش الطيور، لذا قام بالبحث عن شجرة كثيفة الأغصان ويصدر عنها أصواتٌ متنوعة لطيور عدة.

وعندما حدد الهدف قام بالصعود فأمسك بأول غصن مستخدماً أضخم رفاقه جسدياً حيث داس على ظهره ومنه صار على ذاك الغصن لينتقل إلى آخر حتى وصلت يده لأول عش حيث أخذ يلقي بالأفراخ الواحد تلو الآخر بعد أن يقوم بذبحه، ليقوم بقية رفاقه بنتفها وتنظيفها ليتم شيّها لاحقاً.

ونتيجة لنجاحه هذا أفرغ أكثر من عش وسط تصفيق رفاقه.

أحس بنشوة كبيرة شعر من خلالها أنه يستطيع إفلات يده اليسرى والاكتفاء بيده اليمنى كي تضم الجذع بقوة، وقام بتلويح يده اليسرى في الهواء وهو يصيح قائلاً:

– أنا سيد من قام بصيد الطيور وتسلق الأشجار.

وهو بحالة النشوة هذه شعر بخدر في أعلى رأسه، تجاهل الأمر في البداية حيث تابع حركاته وصراخه ذاك وسط تحذيرات شقيقه مسعد وابن خاله حيان اللذان كانا يراقباه بتحفز وكأنهما استشعرا الخطر.

استمر في حركاته هذه حيث دفعه غروره للغلو أكثر فيما كان يقوم به، أثناء ذلك سرى الخدر في كل أنحاء جسده عابراً رقبته التي بدأ الشدّ فيها والألم الذي ارتفع ليطوق رأسه من الأسفل وصاعداً.

دفع ذاك الطارئ غشاوة بسيطة إلى عينيه والتي ما لبثت أن بدأت تتكاثف شيئاً فشيئاً، ومن بعدها بدأ دماغه يدور.

كل ذلك حدث ورفاقه يصفقون له إذ كانوا حتى تلك اللحظة يظنون بأن كل ما يقوم به من حركات وما يطلقه من صرخات هو عبارة عن وصلات تمثيلية كان قد عودهم على مثلها سابقاً.

نظر إلى الأسفل متجاهلاً أعراض مرضه التي بات يعرفها جيداً، ونادى بأعلى صوته:

– حيان أمسكني...سألقي بنفسي إليك.

– اعقل يا مجنون...انتبه..قالها حيان صائحاً.

– سألقي بنفسي إليك أقول لك.....وهوى لارتخاء عضلات يده نتيجة نوبة صرعٍ وافته عندما كان في قمة نشوته.

صاح حيان وكذلك فعل الجميع ذعراً، وبالأخص عندما رأوه يتخبط بدمائه التي سالت من كل أنحاء جسده.

ركض حيان باتجاه القرية طالباً النجدة، بينما قام مسعد باحتضان أخيه محاولاً وقف نزيفه وسط ذهول كل رفاقه الذين تحلقوا حوله بأفواه فاغرة.

أبلغني حيان بالأمر وعلى الفور وافيناهم بالطرطورة، وبعد أن وضعناه في الصندوق قصدنا مركز الناحية الذي حولنا بدوره إلى مشفى المدينة بعد أن قام المركز الصحي هناك بما عليه من إجراءات.

ولأجل ذلك استخدمنا سيارة أجرة كبيرة، وبعد انطلاقنا بوقت قصير ساءت حالته إذ صعب عليه التنفس رغم كل محاولاتنا حيث قمنا بالضغط على صدره لمساعدته قدر الإمكان، إلا أنه فارق الحياة إثر نوبة تشنج زادت من ضيق تنفسه وكذلك من تقلصات عضلاته وبالأخص يديه اللتين كانتا تحتفظان بأغصان من تلك الشجرة.

وبعد أن سلم ذاك السر الإلهي، ارتخت عضلاته بشكل واضح، إذ انفرجت كل معالم وجهه راسماً ابتسامة بدت على شفتيه، ومن النظرة الأولى يعرف كل من تعاطى معه أن لسان حاله يقول:

– لقد حققت كل ما أريد وأصبو إليه.....رحمه الله لقد كان محبباً إلى قلبي...قالها أبو ديب بغصة واضحة.

– نعم لقد كان محبوباً رغم كل شقاواته ونوادره...قالها أبو أحمد وهو يضع كأس المتة على الصينية ويستقيم مغادراً دون كلام، كون ما كان قد مرّ قبل قليل أيقظ عنده شيئاً تعب كثيراً كي يجبره على النوم فيما مضى من الزمن.

تابعه أبو ديب وهو يغادر إلى أن غاب في نهاية ذاك الطريق الذي كان يلتف مشكلاً زاوية ضمت بين جنباتها مجموعة بيوت قديمة.

– مسكين ابن عمي هذا، لقد أتعبه ذاك الشقي في حياته ومماته...رحمه الله...قالها وهو يدخل الدكان خلف زبون حضر لابتياع حاجات تلزمه.

كان جهاز الراديو يبث نبأً هاماً لفت انتباه أبي ديب الذي صمت وأنصت متابعاً، وكان فحواه أن ذاك الحاكم قد وافق على وقف إطلاق نار حرب دامت لسنوات عدة والتي كان قد شنها على دولة فتية كانت تسعى لإعادة بناء ذاتها بعد أن تخلصت من حكم استبدادي دام عقوداً.

وكان الهدف الذي أعلنه عند قيامه بذلك، هو منع تلك الدولة من نشر مبادئ وأفكار ثورتها لتعم المنطقة كما كانت قد أعلنت.

الأمر الذي أثار حفيظة كل حكومات المنطقة، وكونها لم يكن بمقدورها وقف ذلك، ولإبعاد هذا الخطر المحدق بعروشها وكراسي حكمها لجأت لذاك الحاكم الذي وجدت فيه ضالتها المنشودة حيث كلفوه بذلك مقدمين له كل التسهيلات اللازمة وعلى رأسها دعم وموافقة تلك

الدولة التي تقبع هناك في أقصى شمال الكرة الأرضية، والتي كانت تتحين الفرصة للانقضاض على ما كان قد تم تفكيكه وإضعافه من دول وبالأخص تلك التي كانت تحوي في جوف أرضها ثروات لم تكن قد اكتشفتها بعد لضعف إمكاناتها بشكل عام وانشغالها بمعارك جانبية فرضت عليها. ذاك العمل المتهور والذي كان قد أطلق عليه صفات وألقاب رمزت فيما مضى لنقاط مضيئة من مراحل تاريخنا ناسباً لنفسه ذلك،

الأمر الذي كبد بلاده بالدرجة الأولى جل مواردها وأفقدها خيرة شبابها الذين طحنتهم تلك الحرب الضروس، وكذلك الأمر بالنسبة لتلك الدولة الفتية والتي ما أن استفاقت من صدمتها حتى ردته على أعقابه إلى ما بعد حدوده حيث توغلت عميقاً هناك

باءت كل محاولاته بالفشل، والضحية كان ذاك الشعب الصامت والمغلوب على أمره، حيث كان واقعاً بين سندان تلك القوى المتحكمة بكل مقدرات هذا العالم ومطرقة ذاك المتهور والجاهل لأبسط مبادئ القيادة، وبالتالي اللعبة السياسية والحكم الذي تبوّأ سدته إثر حركة شبه انقلابية والذي كان يلزمه شخص ذو حكمة وحنكة ويتمتع بفكر نيّر، وهذا ما لم يكن متوفراً فيه قط.

– متى نرتاح من كل هذا؟..قالها وهو يحول تحويل مؤشر المذياع إلى حيث تبث إذاعة أخرى بعضاً من أنبائها.

دخل بعض الأولاد الدكان...أسكتهم بإشارة من يده إذ كان يحاول تركيز صوت ذاك المذياع.

- ماذا تريدون؟
- نريد بعضاً من العلكة وقليلاً من السكاكر.
- حاضر...هاتوا نقودكم.
- تفضل.
- خذوا هذه لكم وانصرفوا.

غادروا دون أية كلمة كونهم خبروا عادته عندما يكون مـــشغولاً في أمر ما.

جلس خلف طاولة متهادياً على كرسيٍّ مستمعاً بكل شغف إلى ما كانت تبثه تلك الإذاعة الشهيرة.

.....

- ٧ -

ما إن بدأ بتنفيذ ما فرض عليه من شروط كانت قد حددت سابقاً عبر ذاك الاتفاق الذي قام بإبرامه مع قياد تلك الدولة الفتية، حتى بدأ يتحضر للقيام بأمر أكثر خطورة، كون ما فرضه ذاك الاتفاق بالدرجة الأولى هو سحب جنوده الموجودين فوق أراضي تلك الدولة والذين كانوا يعدون بمئات الآلاف.

ولإتمام ذلك وتحسباً لردة فعل شعبه الكامن، وبالرغم من كل الضغوط التي كان قد مارسها عليه، كان ينتظر مثل تلك الفرصة كي ينتفض في وجه ذاك الحاكم ونظامه، لذا قام وكبار ساسته ومفكريه بتخطيط وترتيب مؤامرة كانت قد عرفت فيما بعد بأنها مدعومة من تلك الدولة المهيمنة على مقدرات كل العالم.

وكان مغزاها أن يقوم باجتياح أراضي دولة صغيرة مجاورة له، بحجة استرجاع بعض حقوق بلده التي وحسب ادعائه كانت تلك الدولة قد سرقتها.

- يا إلهي ما الذي يقدم عليه ذاك المتهور...قالها أبو ديب وهو يسمع ذاك البلاغ الذي سماه ذاك الحاكم بالبلاغ رقم "١" والذي كان يؤيد ثورة قام بها بعض من شبان وضباط ذاك البلد الصغير ضد حكامهم.

وهو بحالته هذه لفت انتباهه ما كان ينطق به ذاك المذيع عن عدة محاولات ومبادرات قام بها الكثير من القيادات والشخصيات المحلية والعالمية لردعه ودفعه لإعادة النظر بما قام به والرجوع عنه، تلافياً لما

قد يحدث لاحقاً وبحسب كل استطلاعات الرأي أنها ستجلب الويلات له ولشعبه وللمنطقة بشكل عام.

إلا أنه رفض كل تلك المحاولات والمبادرات، إذ أمعن في غيّه وعنجهيته الفارغة مثبتاً لكل مطلع على ما يدور في المنطقة بأنه يفتقد لكل مقومات القائد، بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى

لذا وبناءً على كل ما حدث تم تأليف تحالف ضده قادته تلك الدولة صاحبة المصلحة في كل ما حدث، لطرده من ذاك البلد بعد أن أنذرته لمرات عدة، وبنفس الوقت كانت تسرب له عبر أقنيتها بأنها ستلاحقه شخصياً حتى وإن قام بتنفيذ ذلك.

لذا وكردة فعل لما سمعه ويسمعه رفض كل ما كان قد عرض عليه من مبادرات وأفكار.

عندها قامت تلك القوات بطرده وجنوده من أراضي تلك الدولة، ولم تكتف بذلك بل قامت بملاحقته ضمن أراضيه وضرب قواته بواسطة طيرانها الذي دمّر معظم ترسانته التي كان يتفاخر ويهدد بها جيرانه، وبالأخص تلك التي قام بسحب قواته من أراضيها قبل فترة.

وبموجب ذلك قامت قوى التحالف تلك بفرض شروط المنتصر عليه وعلى شعبه الذي عانى كثيراً في سابق الزمن من جور وتسلط أمثال هذا المتهور وسيعيش ذات الحالة حتماً.

إذ أصبح الإنسان هناك مضطراً لبيع أعضاء من جسده كان قد منحها الله له بحيث صارت تلك التجارة رائجة تماماً، بل من أهم وأكثر الأعمال التجارية ربحاً ومردوداً.

في الوقت ذاته كان يقبع في قصور فارهة يعيش فيها حياة الأباطرة دون أن يأبه لأي شيء مما كان قد عرض عليه من عدة جهات، وأهم العروض تلك التي نصت على أن يغادر البلد كون مصيره ومصير بلده أصبح واضحاً تماماً لأولئك المهتمين.

.....

- ٨ -

بينما كان أبو ديب كعادته يحتسي المتة داخل دكانه ويستمع لأغنية شعبية كان يصدح بها ذاك الجهاز المحبب إلى قلبه ومن تلك الإذاعة العتيقة.

ما لبث ذاك البث أن انقطع فجأة...انتبه متحفزاً إذ استشعر الخطر:

- إليكم النبأ التالي من هيئة الإذاعة البريطانية:

قامت صباح اليوم طائرتان مدنيتان بصدم برجين عاليين في مدينة كبيرة من مدن تلك الدولة، مما أدى لهدمهما تماماً مخلفين ضحايا كثر من قاطني هذين البرجين بالإضافة لركاب الطائرتين.

صفق كف بكف قائلاً:

- هذا ما كان ينقصنا...فتح الباب الذي كان يوصل الدكان ببقية أجزاء البيت وهو يصيح:

- افتحوا جهاز التلفاز وارفعوا صوته قليلاً كي أسمعه.

- خيرٌ إن شاء الله هل من جديد...قالها هيثم من الداخل.

- شغل الجهاز وشاهد ما الذي حدث.

- ما هذا؟...قالها هيثم صائحاً وموجهاً كلامه لوالده.

- اسمع ما يرويه ذاك المعلق...أو أقول لك تعال لنتبادل الأدوار.

- حاضر.

وبالفعل انتقل أبو ديب إلى حيث كان التلفاز يبث تلك المشاهد مباشرة من موقع الحدث.

آلمه المشهد كثيراً، كون هكذا أعمال لابد أن تجر وراءها الويلات لشعوب منطقتنا بالذات، لأن كل الأنظار متجهة إلى هنا منذ فترة طويلة.

وقف هكذا فترة لا بأس بها صامتاً ومفكراً بالذي سيحدث إلى أن رده لواقعه رجع صوت آت من الدكان حيث كان هيثم يرد على طفل دخل الدكان وهو يصيح:

- أين أنت يا أبا ديب؟

عندها رد من مكانه وبحكم العادة:

- أنا هنا سأوافيك حالاً...وبالفعل غادر الغرفة قاصداً الدكان ليتابع كل المستجدات عن طريق جهازه المفضل.

جلس خلف طاولته شارداً هكذا إلى أن دخل أحمد طارقاً على زجاج واجهة المحل كعادته حينما يريد لفت انتباه خاله أبو ديب إن كان شارداً.

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام...تفضل واجلس.
- أدامك الله...قالها أحمد وهو يراقب حركات خاله المضطربة.
- كيف حالك يا أحمد؟
- الحمد لله...أسمعت ما حدث اليوم؟

- نعم ورأيت بعض مشاهده في التلفزيون.
- ما هو رأيك بالذي سمعته ورأيته؟
- ويلات قادمة إلى منطقتنا.
- وما علاقتنا بذلك؟
- ستنسب لنا كلها أو بعضها.
- برأيك هل سيستخدم ذلك لتصفية الحسابات؟
- بالتأكيد.
- بمن سيبدؤون أولاً؟
- لا أدري ولكن سيظهر ذلك قريباً إذ ستحدد تلك الدولة هـدفها الأول.
- سننتظر ونرى.
- أرجو أن تمر هذه المحنة على خير، وإن كنت أظـن عكـس ذلك.
- هذا رأيي أنا أيضاً.

هز رأسه موافقاً وصمت لبرهة من الزمن ثم قال:

- أين والدك؟..لم أره منذ عدة أيام.
- إنه مشغول جداً هذه الأيام.
- ما الذي يشغله؟
- يريد تأسيس شبكة للري بالتنقيط.
- صحيح؟!..خطوة ممتازة.

- لكنها مكلفة جداً.

- صحيح مكلفة، إلا أنها توفر الجهد والماء.

- لا أدري...فهو أدرى بصالح عمله.

وفي هذه الأثناء دخلت الدكان عجوزٌ كان أبو ديب يكن لها كراهية واضحة، نتيجة لبخلها الشديد ومجادلتها إياه كثيراً من أجل أمر تافه.

- مساء الخير...قالتها بلهجتها الخاصة.

- مساء النور...قالها بجفاء..ما الذي تريدينه؟

- بضع قطع من الصابون.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، الآن ستجعلني أعرض عليها كل مخزون الدكان من الصابون...قالها متمتماً.

- تفضلي.

- ليس من هذا النوع...أريد ذاك وأشارت بيدها التي طغى اللون الأصفر على نصف اصبعيها نتيجة لسيكارتها الدائمة الاشتعال.

- من هذا النوع؟

- نعم.

- تفضلي.

- فليسلم الله يدك...قالتها وهي تغادر بعد أن أنقدته ثمنها.

تلفت نحو أحمد فرآه يبتسم ابتسامة العارف بالذي سيقوله خاله بعد مغادرة تلك العجوز.

– يا رجل...أقصى ما أتمناه أن يمر يـــومي دون أن أرى تلـــك المرأة.

– معك حق، ولكن هذا الدكان الوحيد في هذه القرية، لذا عليك أن تكون أكثر تفهماً للناس.

– لقد استنفذت كل ما أوتيت من ملكات كالصبر والأناة والروية معها إلا أنها تبقى تجادلني حتى تخرجني عن طوري...كـــان الله فـــي عون من تعاشرهم وتقاسمهم حياتهم.

– نعم كان الله في عونهم....وهم في غمرة هـــذا دخـــل بعـــض الصبية محدثين ضجة كبيرة مما اضطر أبو ديب لزجرهم...عندها قام أحمد وساعد خاله بتلبية طلبات أولئك الأطفال، وغيرهم ممـــن حـــضر لاحقاً، والذين كانوا يغادرون محملين بتوجيهات وملاحظات أبي ديـــب والتي كانت جلها محقة رغم قسوتها في بعض الأحيان.

– قل لي يا أحمد متى ستلتحق بقطعتك الجديدة؟

– بعد عدة أيام.

– هل تعرفت على مكان تواجدها؟

– نعم.

– هل تدبرت أمورك كلها وبالأخص.....

– نعم.

– كم تبقى لك كي تنهي خدمتك هذه؟

– بضعة أشهر.

- المعين هو الله...الوقت يمضي بسرعة لذا لا تفكر في هذا.
- لقد تعودت ذلك.
- تمام...أتحتسي المتة.
- نعم.
- قم وجهز ذلك ريثما أقوم بترتيب هذا الرف.
- حاضر يا سيدي...قالها وهو يحمل الإبريق كي يملأه من زجاجة كانت قد ركنت فوق ثلاجة الواجهة.

-٩ -

لم تلبث تلك الدولة أن حددت مجموعة أهداف قامت بترتيبها حسب أولوياتها من كل النواحي، حيث كان أول مكان قررت معاقبته تلك الدولة المنهكة من حروب قامت على أرضها لمدة عقدين من الزمن، والتي كان زعيم تلك الجماعة التي ارتكبت ذاك العمل الفظيع قد اتخذها مقراً دائماً له ولجماعته، مستغلاً وعورة أرضها وتنوع تضاريسها، والتي كانت هي قد تبنته وجماعته ودعمتهم مادياً ومعنوياً إبان احتلال دولة كبرى كانت تمثل إحدى القطبين اللذين كانا قد قسما العالم كله فيما بينهما.

حيث أجلت بقية الأهداف إلى ما بعد الانتهاء من تلك المعضلة، التي باتت تهدد كل مصالحها في هذه المنطقة الحيوية، مع تذكير العالم بشكل دائم ويومي تقريباً وعلى لسان أكبر قادتها بأن دور تلك الدول قادم.

لذا قامت بتأليف حلف ضم عدة دول لها ذات المصالح والمطامع في هذه المنطقة، حيث قامت بهجوم كاسح على ذاك البلد الذي رفض وبشكل قاطع تسليم قادة ذاك التنظيم الذي كان قد أكد تبنيه لذاك العمل وعلى الملأ.

وما هي إلا عدة أسابيع حتى استولى ذاك التحالف على معظم أراضي تلك الدولة عدا مناطق جبلية وعرة كان قد تحصل فيها زعيم ذاك التنظيم وعناصره.

وقامت بتشكيل حكومة ترأسها أحد أزلامهم ليصير في سدة حكم كانوا قد أسسوه ونظموه ودعموه بكل شيء كي يبقى مستمراً وقائماً ليتولى مكافحة ذاك التنظيم وأشباهه.

ومن هنا بدأت سلسلة جديدة من المآسي تنزل بشعب ذاك البلد الصابر والذي تحمل عقوداً من الحروب التي تولى قيادته إبانها جماعات تبدلت اتجاهاتها السياسية من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين حيث التعصب الذي وفر التربة الصالحة لنمو تلك الجماعات المتطرفة التي بدأت تمارس نشاطاتها بأمان وأريحية، مستغلة تنوع تضاريس ذاك البلد وسعة أراضيه وكذلك حدوده الطويلة مع دول عدة، مما زاد في صعوبة ملاحقتهم وتصفيتهم.

– كم من الوقت يلزم لتلك الدولة كي تستطيع ضرب وإبادة واجتثاث هذه الظاهرة؟...قالها محدثاً نفسه وهو يجلس كعادته أمام دكانه عصراً، والراديو في الداخل يصدح بأغاني متنوعة كانت تقطع بين الحين والآخر لبث موجزاً لآخر الأخبار والتي كان محورها الهام ما تقوم به تلك الدولة وحلفاؤها هناك في تلك المنطقة التي تتوسط قارة آسيا هذه القارة الغنية بكل ما منح الله الأرض من خيرات.

وكانت قد وضعت على خارطة بحث ذاك التحالف، إذ كانت ترسم إشارات تدل على مكان تموضع تلك الثروات وإلى جانبها إشارات كانت تدل على رمز الدولة المشاركة في ذاك الحلف، بالإضافة لإشارات كانت تدل على مواقع تمركز خلايا ذاك التنظيم.

بحيث كان أي تقدم لتلك الإشارات يعتبر نـــصراً لأن المحـــصلة واحدة حيث الاستيلاء على مراكز ومواقع تلك الثروات تعادل النـــصر العسكري.

وكانت قد استغلت ذاك الوضع المضطرب هناك مجموعات عدة لتدخل أراضي ذاك البلد كي تصفي حساباتها حسب مصالحها ومآربها.

لذا عمت الفوضى ذاك المكان والتي ستدوم لأعوام عـــدة، كـــون البلد الذي تفرط قيادته بقوتها المتمثلة بدعمها الشعبي المؤسس لجـــيش قوي وموحد فكرياً واستراتيجياً، تكون نهايتها هكذا.

" **والعبرة لمن اعتبر** "

- ١٠ -

دخل هيثم على والده وكان مهموماً...حيث بادره والده قائلاً:

- مالك يا هيثم؟

- حدث شيء أزعجني هذا اليوم.

- ما هو؟

- كنت في زيارة لأحد أصدقائي يوم أمس، حيث حضر أحـــدهم وكانت تربطه بصديقي علاقة قرابة ولكن من بعيد...كما يقال.

- من كان ذاك الزائر؟

- حسب ما قاله...أنه ابن عم والده.

- ما الذي حدث ليثير قلقك هكذا؟

- ما كان قد طرحه وقاله.

- ما الذي أتى لطرحه؟

- أول ما بدأ به كلامه هو أن استعرض كل ما حدث في الآونـــة الأخيرة مفنداً الأسباب والخلفيات معتبراً أن كل ما حدث ويحدث ما هو إلا مؤامرة تدبر لنا نحن وعلى معتقداتنا كون ما تقوم به تلـــك الـــدول يهدف ضرب كل ما آمنا به منذ قرون عدة.

- حتى الآن كل ما قاله صحيح إذ أن الهدف الظاهر حالياً هو ما كان قد حدده صديقكم هذا أما ما كانوا قد أخفي فـــي بـــواطن الأمـــور سيكشف لاحقاً كون الغايات والأهداف ستظهر في مستقبل الأيام.

- معك حق ولكن ما كان قد طرحه لاحقاً هو الخطير.

– ما الذي طرحه وكان بهذه الخطورة؟

– جاء داعياً لتأليف وتشكيل مجموعات تسافر إلى ذاك البلد وغيره من بلدان قد تتعرض لاحقاً لمثل ما تعرض له، بحيث تقوم بأعمال قتالية وبحسب ما وصفها أعمالاً جهادية، كون كل تعاليم ديننا تدعو لذلك.

– ما الذي تقوله يا هذا؟

– ما سمعت تماماً، وكان في غاية الجدية، حيث كان قد حضر جواباً لكل تساءل تقدمنا به.

– ما الذي سألتموه عنه؟

– أول ما قلته له...ما هي علاقتنا بالذي يحدث هناك؟

– ما كانت إجابته؟

– قال: يوجد هناك أخوة لنا في الدين يتعرضون لشتى أنواع التنكيل والضغوط، ومن أولويات واجباتنا مساندتهم ودعمهم.

– سندعمهم بالمال إن لزم الأمر...قالها صديقي.

– هذا لا يكفي، هناك يحتاجون للرجال أكثر من المال، كونهم يتلقون الدعم المالي من جهات عدة ظاهرة ومتخفية.

– كيف سينتقل هؤلاء إلى هناك وفي جو الحصار هذا؟

– هذه مهمتنا.

– من أنتم؟...قلتها له.

– نحن دعاة الجهاد ونصرة المظلومين في هذا العالم.

– من تمثلون؟

– نحن نمثل نواة حركة ستنمو وتكبر لتشمل كل الجيل الـصاعد من أبناء مجتمعنا وبقية المجتمعات الأخرى.

– هل لكم مقر؟

– نعم لنا أكثر من مقر ويرتبط كل ذلك بالمقر الرئيـسي هنـاك حيث يتمركز قادتنا.

– ألم يزالوا هناك بالرغم من كل ما جرى.

– نعم.

– كيف لم يتم كشف مواقعهم ومقراتهم رغم كل الإمكانات التـي كانت قد وضعتها وسخرتها تلك الدول المتحالفة والتي كانت بمعظمهـا تشكل عصبة الدول المتقدمة صناعياً ومعلوماتياً.

لأنهم يقبعون في مقرات كان مهندسونا قد أنشأوها بشكل سـري ومدروس.

– من هناك يتم توجيه كل شيء؟

– نعم.

– هل ذهبت إلى هناك؟

– نعم عدة مرات.

– كيف لم تكتشف دوائر الأمن هنا ذلك؟

– كنت كالبقية أسافر بحجج عدة إلى الدول المجـــاورة وتحديـــداً لتلك الدولة الإسلامية والتي كانت وما زالت تدعم أولئك ولكن بـــشكل سري عبر حدودها المفتوحة والطويلة والوعرة جداً مع ذاك البلد.

كنا نجتمع بشكل سري في أمكنة محاذية للحدود حيث يتولى أناس متخصصون مهمة نقلنا عبر مسالك خاصة كانوا قد أسسوها عبر تلـــك الحدود.

وما أن نصل أراضي تلك الدولة حتى تتولى مهمة نقلنا إلى تلـــك المقرات سيارات مغلقة ومموهة، وفي معظم الأحيان تكون قد ســـرقت من معسكرات ذاك البلد المجاور والتي تشبه إلى حد كبير الآليات التي كانت تستخدم من قبل قوات التحالف.

– أصحيح كانت تعصب عيونكم أثناء ذلك؟

– نعم وبالأخص عندما كنا نمر بأماكن يمكن تمييزها عن غيرها.

– ما الغاية من ذلك؟

– كون كل المناطق متشابهة إلا بعض الأمكنة المغايرة، لذا ولكي لا تكون نقاط علام قد يستخدمها أيٌّ المندسين في صفوفنا لتحديد مواقعنا لاحقاً.

– ألهذا الحد أنتم حذرون؟

– بل منظمون، ولهذا السبب لم تستطع كل تلك القوى وبـــالرغم من كل ما تملكه من إمكانات من تحديد ولو موقع واحد مـــن مواقعنـــا حتى الآن.

– وهل كانت تلك السيارات تقلكم حتى تلك المقرات؟

– لا طبعاً.

– لماذا؟

– كون تلك المقرات كانت قد أسست في بطون تلك الجبال بحيث لا يتم الوصول إليها إلا سيراً على الأقدام.

– وهل كانت المسافة التي كنتم تقطعونها ســـيراً علـــى الأقـــدام طويلة؟

– نعم في كثير من الأحيان...والعصابات على أعينهم.

ولكن ما أن نصل إلى مكان التجمع حتى تفك تلك الأربطة لنجـــد أنفسنا مع الكثيرين في منطقة تكون في الغالب محصورة بين جبلين من ذوات الجروف الصخرية الناتئة والتي تستخدم كملاجئ إيـــان مـــرور طائرات الاستطلاع.

– ألهذا الحد كانت تلك الجروف كبيرة؟

– نعم، إذ كانت تخفي مئات من البشر دون أن يتمكن من كشفهم أحد.

– ألهذا الحد؟

– قل أكثر من ذلك ، لذا نحن بحاجة إلى جهدكم ومساعيكم كـــي ننفذ ذلك فننال الرضا في الدنيا والآخرة.

عندها تلفت صاحبي نحوي غامزاً...أي أنه عليّ أن أغادر.

قمت مستأذناً بحجة أنه لدي عمل هام، سأنجزه وأعود.

– خذ راحتك فنحن بأمس الحاجة لك ولأمثالك كونكم الجيل الذي على عاتقه ستشاد أركان هذه الأمة الشريفة

– هززت رأسي مؤيداً وغادرت الغرفة برفقة صاحبي الذي مـــا أن ابتعدنا قليلاً حتى أمسك بكتفي كي يسرّ لي بشيء ما.

– ما الذي قاله لك؟

– حذرني من ذاك الشخص، كونه اعتاد التطفل عليه وبـــالأخص إن استشعر بوجود شخص غريب عنده.

– لم يتركه يفعل ذلك؟

– سألته حيث قال:...وسطنا ضيق ومحافظ إذ يحاســب المــرء على أقل هفوة فما بالك أن تقوم بطرد شخص من منزل تعيش فيه.

– ألم يحاول إقناعهم بعدم جدوى حركاته هذه؟

– قال لي أنه فعل ذلك ولكن دون جدوى.

– أفهم من حديثك أن صديقك هذا غير متورط بما يسعى إليه ابن عمه؟

– نعم أنا متأكد من ذلك.

– كيف انتهى لقاؤك هذا مع صديقك؟

– غادرت بعد أن حذرني من العودة، وعلى الأقل لفترة من الزمن.

– خيراً فعل...صديقك هذا إنسان متفهم.

– نعم صدقت...فهو واقع بي نارين.

– بسيطة...قم واستحم وخذ قسطاً من الراحة الآن.

– حاضر...إلى اللقاء.

– مع السلامة...قالها وهو يتحرك قاصداً تلك الطاولة داخل المحل حيث كان جهاز الهاتف.

مد يده والتقط السماعة وأخذ يدير الأرقام وهو يحدث نفسه:

– ما الذي يرتبه هذا الشاب وأمثاله؟...فظيع ذلك كون من قام وتمكن من التغرير بهم كثر كما فهمت.

– مساء الخير.

– مساء النور...كان الرد من الطرف الآخر.

– أريدك بأمر هام إن لم يكن لديك عمل.

– هل الأمر ضروري، أم يمكن تأجيله لساعتين.

– لا عليك...بعد ساعتين.

– اتفقنا.

– نعم إلى اللقاء. أغلق السماعة وعاد إلى حيث كانت جلسته أمام الدكان، وكان شارداً وعلامات القلق بادية على كل حركاته إذ كان يسحب الدخان من مشربه ويقوم بنفخه عالياً على غير عادته، بحيث

كان يرد السلام على المارين هكذا تلقائياً دون أن يركز انتباهه علـــيهم، إذ كانوا يمرون دون توقف إلا واحداً بعد أن قطع المسافة توقف وعـــاد حيث قال:

– مساء الخير أبا ديب.

– مساء النور يا أبا النور.

– كيف حالك...أراك شارداً عسى الأمر خيراً.

– خيرٌ إن شاء الله...هل من خدمة أقدمها لك.

– نعم أريد علبة دخان.

– حاضر يا سيدي...قالها وهو يدخل الدكان أمام أبي النور الذي تبعه بدوره كي ينقده ثمن ما طلب.

– أسمعت آخر الأخبار؟

– نعم منذ قليل.

– ما هو رأيك بالذي يحدث؟

– شيء خطير يا أبا ديب..فالمخطط المرسوم لنـــا غايـــة فـــي التعاسة.

– معك حق...هل سمعت ما قاله رئيس تلك الدولة؟

– نعم سمعته.

– هل سينفذه؟

– نعم ولكن بعد فترة إذ أن الأولوية الآن لما يجري هناك حيـــث تتمركز تلك الجماعة التي أعلنت عداءها صراحة لتلك الدولة.

– كم يلزمهم من الوقت لإنهاء تلك الظاهرة نهائياً؟

– هم بحاجة لكثير من الوقت والمال كونهم يحاربون أشباحاً لا هيئة ولا مكان ولا مقر واضح وثابت لهم.

– نعم، ولكنهم أقوياء بما يملكون من تقنيات.

– كل ما ذكرت له أهمية ولكن لا يكفي إذ يلزم للقضاء على هكذا تنظيم جماعات مماثلة وتنتمي لنفس البيئة الاجتماعية والطبيعية.

– يستطيعون إنشاء وتنظيم مثل تلك المجموعات.

– أنت مخطئ.

– لماذا؟

– لأنه من أصعب الأمور تنفيذ ذلك كون التعاطف الشعبي والديني قد وصل أقصى حد له لما تقوم به تلك القوات من فظائع هناك.

– ربما...قالها وهو يستلم علبة الدخان ويغادر.

مد أبو ديب يده محركاً مفتاح الموجات ليثبته على ما كانت تبثه إذاعة "مونت كارلو" من أنباء كونه كان قد برمج ساعته الداخلية على مواعيد نشرات الأخبار.

دخل الدكان أثناء ذلك العديد من الأشخاص وكانوا يبتاعون حاجياتهم ويغادرون دون توقف، وسط تساؤلاتهم عن الذي حصل وجعل أبا ديب يبدو هكذا صامتاً وشارداً.

بقي هكذا حتى حضر ابن عمه أبو سالم الذي كان يعمل في تعداد جهاز أمن يهتم بمثل تلك القضايا.

– مساء الخير يا بن العم.

– مساء النور...أهلاً وسهلاً بك أبا سالم...قالها وهو ينتقل من خلف الطاولة ويتجه خارجاً.

– خيرٌ إن شاء الله...لقد أقلقني اتصالك لدرجة أني تركت ما كنت أقوم به من أعمال.

– إن شاء الله يكون خيراً...تفضل واجلس..قالها وهو يشير له إلى كرسي جانبي.

– اتكل يا رجل.

– لقد حضر هيثم قبل قليل وسرد لي قصة وكان فحواها كالآتي، وقام بسرد كل ما كان قد سمعه من ابنه بالتفصيل على مسامع أبي سالم الذي انتفض واقفاً وقال:

– ناد لنا على هيثم.

– لماذا؟

– أريد أن أطرح عليه بعض الأسئلة.

– حاضر سأنادي...اجلس ريثما يصل.

جلس أبو سالم والقلق يربك حركاته، إذ ما إن رأى هيثم قادماً حتى عاد وانتصب واقفاً ليقوده إلى حيث يقع بيته ليغيبا بعض الوقت ومن ثم يعودان ليجدا أبا ديب وقد استبد به القلق، والذي بادرهما قائلاً:

– عدتم أخيراً.

– نعم، واعتبر أن الأمر سيصبح تحت السيطرة تماماً.

– إن شاء الله لأني أخاف هؤلاء كونهم شباناً متهورين بأغلبيتهم، ولأنهم قد غرر بهم من قبل عتاة متمرسين في هذا المجال.

– معك حق...ولكن الجهات الرسمية ستقوم بما يلزم على أكمل وجه ولكن يجب على هيثم الحضور إلى المركز لكي يدلي بما عنده من معلومات في وقت أحدده له لاحقاً وهذا ما كنت قد اتفقت معه عليه منذ قليل.

– لن يتأخر أبداً...ولكن ألا يتبع ذلك أية مسؤولية عليه؟

– عليه!؟..لا فالكل هناك سيشكرون فعله ويثنون عليه.

– إن شاء الله.

– أنا جاهز ولكن كما وسبق أن قلت.....

– لا عليك لن نأتي بذكر اسم صديقك أبداً إلا إذا أثبتت التحقيقات لاحقاً ضلوعه في أي عمل كان.

– عندها يكون هو الجاني على نفسه.

– اتكل على الله.

– حسناً إلى اللقاء عمي العزيز.

– مع السلامة...قالها أبو سالم وهو يعود لجلسته قبالة أبو ديب حيث قال مازحاً كعادته:

– ما الذي ستضيفنا إياه؟

– لا شيء...إن كان معك شيء فهاته.

– يا رجل لم تتغير إطلاقاً.

– إني أمازحك يا رجل .. اطلب أي شيء وسيكون تحت أمرك.

– قدم لنا كأس متة إذاً، فاحتساء المتة في مثل هذا الجو البديع شيء ممتع

– حاضر سيدي...لا يأتيني من ورائكم غير الخسائر.

– هذا قدرك...فما الذي أستطيع فعله من أجلك؟

– الأمر لله...قالها وهو يدخل الدكان ليحضر ما كان قد طلبه أبو سالم.

– لا تتأخر كعادتك.

– لم أنت دائم العجلة؟

– لست مستعجلاً ولكني أذكرك كي لا تنسى وجودي وتلهي نفسك في الداخل كعادتك.

– حاضر...قالها وهو يحمل غازاً صغيراً وصينية حوت إبريقاً وكأسين بالإضافة لعدة المتة.

– منحك الله العافية ورضي عنك في الدنيا والآخرة...قالها وهو يغمز لأبي ديب عينه.

– شكراً لك...تفضل قم بما ترغب فعله وعلى طريقتك...قالها وهو يناوله كأس كان قد ملأ نصفه بالمتة الجافة.

– شكراً...ما نوع هذه المتة؟

– الخارطة.

– فعلاً إنها ذات طعم مميز.

– نعم...

- ١١ -

حضر أبو سالم إلى مقر تلك الشركة الخاص حيث كان يعمل هيثم وقام بطلبه بحجة أنه يحتاجه لأمر هام، وما إن حضر حتى قام بإبلاغه بما يلي:

- نحن بحاجة لك الآن، خذ إذناً بأية وسيلة أو حجة والحق بـــي فأنا أنتظرك على ناصية الشارع.

- لم كل هذه الإجراءات؟

- كي لا تثير الشبهات من حولك.

- حاضر سأوافيك في الحال...وعاد ليقصد مكتب رب عملـــه، حيث قرع الباب ودخل:

- خيرٌ إن شاء الله يا هيثم.

- جئتك بطلب أرجو الموافقة عليه.

- ما هو؟

- أطلب إذناً بالمغادرة لبقية هذا اليوم.

- لماذا؟...عسى السبب خيراً.

- خير إن شاء الله...أريد موافاة والدتي حيث هي.

- أين؟

- عند أقارب لنا، إذ أنهت واجباً اجتماعياً، وكنت قد وعدتها بأن أرافقها إلى محطة الانطلاق كونها ترتبك من السير في هذه الـــشوارع المزدحمة.

– بسيطة..لك ما تريد..مع السلامة.

– شكراً لك أستاذ.

– العفو...سمع ذلك من مديره وهو يغادر مقر ذاك المعمل قاصداً المكان الذي حدده له عمه أبو سالم الذي لاقاه لمجرد أن رآه، وقاده ليستقلا سيارة أجرة أوصلتهما إلى مكان قريب من مدخل ذاك المركز الأمني الحساس عرف ذلك من الحراسات المنتشرة في كل مكان.

دخلا بعد أن قدم أبو سالم بطاقته الخاصة، وتابعا طريقهما إلى حيث يقع مكتب أبو سالم، والذي قام على الفور باتصالات عدة، وكان من نتيجتها أن قاد هيثم بعد أن قدم له شراباً بارداً الذي هدّأ من روعه قليلاً...همس أثناء ذلك بأذنه قائلاً:

– لم أنت مرتبك هكذا؟..هدئ من روعك.

– أي تهدئة يا رجل، من يسترخي في هكذا مكان؟

– لا عليك استرخ فأنت موضع ترحيب هنا كونك تقوم بعمل جيد.

– حسناً.

استوقفه أبو سالم قبل أن يدخلا مكتباً كان يتصدر ذاك "الكوريدور" قائلاً:

– أريدك أن تجيب على كل أسئلة الشخص الذي ستقابله وتفهم منه كل ما سيقوله لك وسيكلفك به بدقة متناهية،

– حاضر يا سيدي..."الله يمرر هذه اللحظات على خير".

قرع أبو سالم على باب ذاك المكتب بعد أن استأذن مسؤول الاستقبال هناك.

- ادخل.

فتح الباب، وقال بعد أن وقف بانتصاب..احترامي سيدي.

- أهلاً أبا سالم...هذا هو البطل الذي حدثتني عنه؟..قالها بابتسامة لكسر حاجز الارتباك الذي كان يعانيه هيثم.

- نعم سيدي.

- تفضلا...اجلسا هناك ريثما أنهي بعض الأمور الهامة.

- حاضر...جلسا وكان هيثم وقتها قد شعر بشيء من الراحة لملاقاة هذا الشخص المريح.

التفت نحوه بعد برهة من الزمن ووجه كلامه لهيثم وهو يغلق قلمه ويضعه جانباً.

- هات يا بني..حدثني عن كل ما كنت قد أعلمت به عمك أبا سالم.

قام هيثم بسرد كل ما كان قد قاله لوالده وعمه أبو سالم بكل دقة، وكان يجيب عن تساؤلات واستفسارات ذاك السيد بدقة واختصار، والذي كان يدون بعضها على ورقة كانت أمامه.

- هذا كل شيء؟

- نعم سيدي.

– حسناً فعلت يا هيثم إذ أعلمت عمك أبا سالم، فلو أنك تكتمت أو تأخرت بعض الوقت، لكان الأمر قد زاد تعقيداً ولفلت من أيدينا.

– الحمد لله الذي ألهمني ذلك وجعلني أصارح والدي الذي قام بدوره بإعلام عمي.

– نعم الحمد لله كون الأمر لم يزل تحت السيطرة، لذا سأكلفك ببعض المهام، فهل أنت جاهز؟

– كل الجاهزية...قالها هيثم بشيء من الإباء بعد جرعة الدعم المعنوي الذي كان قد تلقاه من ذاك السيد.

– اسمع يا هيثم أريد منك أن تعاود الاتصال بصديقك هذا وكأن شيئاً لم يكن وستصلك كل التعليمات عن طريق عمك أبي سالم الذي سيكون صلة الوصل بيننا وبينك كي لا تثير الانتباه.

– أنا تحت أمركم، وبخدمة الوطن دائماً.

– ممتاز...لقد تشرفت بمعرفتك يا هيثم...قالها وهو يمد يده مودعاً بعد أن قام واقفاً من وراء مكتبه.

– أنا من حصل على الشرف سيدي...وداعاً.

– مع السلامة.

– احترامي...قالها أبو سالم وهو يقود هيثم مغادراً.

– مع السلامة أبا سالم.

وفي مكتبه كلف أبو سالم هيثم ببعض الأمور مبدئياً قبل أن يغادر ذاك المقر.

وعندما وصل هيثم إلى قريته مر من أمام دكان والـــده فوجـــده يجلس عند الواجهة كعادته، والقلق باد على محياه.

- مساء الخير.
- مساء النور...هات أخبرني بالذي حدث معك.
- كيف علمت؟
- من عمك أبي سالم.
- وهل قال لك بأنه سيقودني إلى ذاك المقر.
- نعم.
- لماذا لم تقم بإعلامي بذلك؟
- كي لا نقلقك باكراً.
- ماشي الحال...يا سيدي قمنا بزيارة ذاك المقر وقدمت كل مـــا عندي.
- كيف كان لقاءك بالمسؤولين هناك؟
- كانوا في غاية اللطف والرقة معي.
- ممتاز...ألم تشعر بشيء من الرهبة هناك؟
- نعم في البداية، إلى أن قابلت ذاك السيد اللطيف.
- نتيجة حسنة...لقد أقلقني الأمر كثيراً.
- الحمد لله لأن الأمر انتهى على هذا الشكل.
- نعم...قم وخذ قسطاً من الراحة...ولكـــن أريـــد أن أنـــصحك بشيء.

– ما هو؟

– أريدك أن تكون حذراً جداً، لأن أية هفوة أو زلة لسان قد تخرب كل مخططات ذاك الجهاز.

– اطمئن يا والدي، فأنا أعلم ذلك جيداً.

– حسناً هذا ما أريده منك.

– وداعاً.

– مع السلامة.

وبعد أن غادر هيثم الدكان قام من مكانه ليتفقد البضائع التي كانت تحويها واجهة المحل وهو يدخن، حيث ذؤابة تلك السيكارة تكاد تدخل في فوهة المشرب.

هزّ رأسه أثناء ذلك مظهراً علامات رضاه عن تلك النتيجة التي كانت قد أقلقته بداية هذا اليوم.

عندها دخل رجل من أقارب أبي ديب من المستظرفين والذين لم يكن يحب أمثالهم، وبالأخص ابن عمه هذا والذي قام بشراء بعض المكسرات وزجاجة مياه غازية وغادر، كونه لم يلق ترحيباً من أبي ديب.

– مع السلامة...قالها أبو ديب بينه وبين نفسه مبدياً سروره لعدم بقاء ابن عمه هذا فترة أطول.

أما هيثم الذي انزوى في زاوية الغرفة ليتابع برنامجاً كان يعرضه جهاز التلفاز بعد أن استحم وتناول طعامه.

لبث هكذا فترة من الزمن شرد خلالها في مجريات نهاره الـــذي كان طويل نسبياً، وبدأ بترتيب أولوياته تنفيذاً لتعليمات عمه أبي سالم، إذ توجب عليه أولاً معاودة الاتصال بصديقه، ومن خلاله عليه إقامة علاقة مع قريبه ذاك ساعياً منه لاستجرار أكبر قدر من المعلومات

وهو بحالته هذه استلقى حيث داعب الكرى جفنيه، نـــام لـــبعض الوقت ولم يستفق إلا بعد أن نادته شقيقته الصغرى كي يشاركها جلـــسة احتساء المتة.

عاد هيثم في اليوم التالي ليلتحق بعمله كالمعتاد، بحيث تسلم كـــل مهامه من مشرف ورشته الذي كان قد خصص له عملاً يحتاج للدقـــة والمهارة، كونه يؤسس لوضع اللمسات الأخيرة على ذاك المنـــتج قبـــل نزوله إلى الأسواق.

راقبه من بعيد صديقه محسن دون أن ينتبه فرآه طبيعياً وعلـــى عادته كما عهده طيلة الفترة الماضية.

بقيا هكذا حتى انتهت الفترة الأولى من الدوام، حيث يلوذ الجميع إلى قاعة جانبية ليتناولوا طعامهم ويأخذوا قسطاً من الراحة قبل العودة للعمل مجدداً.

اقترب محسن من هيثم بكل هدوء، وبادره بالـــسلام والابتـــسامة ترتسم على شفتيه.

– صباح الخير يا هيثم...كيف حالك؟

– أهلاً محسن...الحمد لله.

– لم نرك منذ مدة...قالها بصوت واضح ليسمعه من كان يجلس قربهم، وليبدو الأمر طبيعياً.

– لقد انشغلت بأمر هام هذه الفترة لذا اعذرني على ذلك.

– لا عليك يا رجل...المهم اطمأننا عنك.

– شكراً محسن.

– هل ستذهب إلى القرية بعد انتهاء الدوام؟

– اليوم نعم.

– لماذا؟

– لأني لم أنهِ ما كنت قد بدأت به هناك.

– ما الذي تفعله؟

– نقوم بمد شبكة للري بالتنقيط، وأساعد أنا والدي بذلك.

– ممتاز...باركك الله.

– شكراً لك.

– ومتى ستنتهي من عملك هذا؟

– خلال يومين لا أكثر.

– تمام..إذاً أستطيع أن أعد نفسي بزيارة منك، وهذه المرة ستنام عندي.

– إن شاء الله.

وعندها انطلق منبه المعمل لينهي تلك الاستراحة بحيث عاد كل منهم إلى عمله.

عند وصول هيثم إلى القرية كالعادة وجد والده يجلس أمام الدكان ويحتسي المتة، ولكن هذه المرة كان يشاركه بذلك عمه أبو سالم، الذي ما أن رآه حتى بادره قائلاً:

– الحمد لله على السلامة يا بني.

– سلمك الله ورعاك يا عم.

– كيف سارت الأمور هذا اليوم.

– ممتازة.

– هل أظهرت شيئاً تجاه صديقك محسن.

– كلا، إلا أنه هو من قام بمبادرة تجاهي.

– ما الذي فعله؟

– بعد أن سلم عليّ بصوت عال وكأنه كان يقصد أن يسمعه أكبر عدد من رفاقنا ودعاني لزيارته، وأكثر من ذلك فقد اشترط عليّ أن أمضي ليلة بضيافته.

– ممتاز...لقد جاءت الأمور كما كنا نخطط.

– كيف؟

– كنت سأطلب منك القيام بذلك تماماً.

– صحيح، إذاً كما قلت لقد جاءت مبادرته في مكانها.

– نعم لذا عليك التزام أمرين هامين.

– ما هما؟

– أولاً أن تبدو طبيعياً معه ومع كل من سيقوم بزيارتـــه وقـــت ذلك، وثانياً أن تحاول بكل طاقتك أن تكسب ودهم وبالتالي ثقتهم التي لن تمنح لك بسهولة.

– حاضر.

– أكرر، عليك الحذر وأنا سأقوم بدوري بإبلاغ المسؤولين بذلك.

– تمام إلى اللقاء.

– مع السلامة...قالاها معاً.

.....

- ١٢ -

بعد بضعة أيام كان هيثم يتناول طعام الإفطار إبان الاستراحة، حيث اختلى بصديقه ليبلغه أنه قرر القيام بزيارة أحد أقاربه بعد الدوام ومن بعدها سيزوره بالبيت.

رحب محسن بالفكرة، حيث غادر المكان دون أن يلوي على شيء.

استغرب هيثم هذا التصرف من صديقه، إلا أنه برر ذلك كون ما كان قد حدث أخاف محسن من أن يقطع علاقته به.

مط شفته استهجاناً وقام ليلتحق بعمله بعد أن نظف مكانه جيداً من بقايا الطعام.

وعند المساء قرع هيثم الجرس، ليرد محسن من الداخل:

- حاضر...من الطارق؟

- أنا هيثم يا محسن.

- أهلاً بك يا صاحبي...قالها وهو يفتح الباب وبابتسامة في محاولة منه إخفاء ارتباك قد استبد به.

دخل أمام هيثم الذي تبعه كعادته عندما يقوم بزيارة أي شخص، وكانت دهشته الكبرى إذ وجد قريب محسن ذاته موجوداً بالإضافة لبعض الشبان غريبي المظهر.

- السلام عليكم...بادر الجميع بكل جرأة.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته...هكذا ردّ الجميع.

– هذا هيثم صاحبي وصديقي، والذي كنت قد حدثتكم عنه سابقاً.

– أهلاً وسهلاً بك يا سيد هيثم...قالها ابن عم محسن.

– أهلاً بكم جميعاً.

قام محسن مباشرة بتقديم كل الموجودين له، ليكسر حاجز الرهبة وليسمح بتبادل الأسئلة و الاستفسارات، والتي تبدأ عادة بالسؤال عن الصحة وبقية الأحوال، وبعدها غادر نحو المطبخ ليعد شيئاً يشربه الجميع.

– كيف حالك؟...قالها هيثم لذاك الشخص.

– الحمد لله نحن بألف خير طالما حظينا بأمثالك من الشبان المقدامين، وأشار بيده إلى بقية الموجودين.

– شكراً على ثقتكم يا أخي.

– هل فكرت بالذي طرحته عليك يا سيد هيثم؟

– نعم.

– هل أنت موافق للانضمام لنا؟

– نعم وبكل قناعة.

– ممتاز...بارك الله فيك يا أخي.

– وبكم أيضاً.

عندها دخل محسن وهو يحمل صينية حوت إبريقا كبيراً وعدداً من الكؤوس بالإضافة لصحن ملئ بقطع الليمون التي وزعت على

الكؤوس ومن ثم أضيف إليها الشاي وقدمت للجميع مع عبارات الترحيب وبالأخص هيثم الذي اعتبر معرفته مكسباً كبيراً.

– شكراً يا محسن لقد أخجلت تواضعي فأنا لا أستحق كل هذا الثناء.

– على العكس، فأنت تستحق أكثر من ذلك.

– أكرر شكري لك ولجميع الحضور، كوني تشرفت كثيراً بمعرفتهم.

– ونحن كذلك...ردها الجميع.

– المهم يا سادتي الأفاضل، دعونا من كل هذه المجاملات ولنلتفت إلى ما هو أهم من كل ذلك.

– تفضل يا بن العم...قالها محسن.

– يا أخوتي لا أريد أن أكرر على مسامعكم ما كنت قد قلته سابقاً، لذا سأبدأ بما هو أهم ألا وهو الخطوة التالية.

– ما هي؟...سأل أحد الحضور.

– يا أخي نحن كما تعلمون نمر بمرحلة صعبة جداً بل حرجة، لذا يتوجب علينا بذل أقصى جهد نستطيعه لنسمو بأرواحنا عالياً حيث الملكوت الأعلى.

– نحن جاهزون لأي أمر تكلفوننا به...قالها الجميع تقريباً.

– وأنت يا سيد هيثم؟

– وأنا كذلك.

– ممتاز جداً...إذاً انتظروا التعليمات...قالها وهو يغـــادر، ومـــا لبث أن تبعه الآخرون الواحد تلو الآخر.

وبعد أن خلت الغرفة تماماً سأل هيثم صديقه محسن:

– هل نستطيع فعل شيء حسب رأيك؟

– نعم إن قمنا بتوحيد جهودنا.

– معك حق...ولكن هؤلاء الشبان لم يتسنَّ لهم خدمة العلم بعـــد، فكيف سيتمكنون من استخدام السلاح؟

– سنخضعهم لدوران تدريبية.

– أين؟

– هنا.

– هنا في هذا البلد؟!

– نعم، ولم تستغرب ذلك؟

– فعلاً أنا أستغرب كل ما ذكرته، إذ أين وكيف ستتمكنون مـــن فعل ذلك؟

– لنا أساليبنا، لذا لا تقلق.

– ألم تلفتوا انتباه أجهزة الأمن؟

– إطلاقاً، وإلا كنا الآن في السجون.

– معك حق، ولكن يبقى الأمر وعلى الدوام محفوفاً بالمخاطر.

– مهمتنا بالمطلق تحفها المخاطر على الدوام، كوننا نحارب على أكثر من جبهة.

- أكثر من جبهة؟!
- نعم، فأعداء الداخل أكثر خطراً من أعداء الخارج.
- ومن هم أعداء الداخل أولئك؟
- كل من يقف في طريق حركتنا النبيلة.
- مثل من؟
- بالدرجة الأولى أولئك الوجوديون والعلمانيون الذين يرفضون كل ما نؤمن به من مبادئ وقيم روحية، كونهم يشوهون تفكير هذا الجيل الذي كنا نعقد عليه الآمال العظيمة لبناء أمة الإيمان والتوحيد والقيم الإنسانية.
- وهل تلقون آذان صاغية؟
- نعم، وبالأخص في أوساط الفقراء والمعوزين، حيث تغيب الخدمات
- كيف؟...ولم هؤلاء بالذات؟
- لأننا نقوم بمد أولئك بالمعونات المادية والمعنوية وبذلك نكسب ودهم ودعمهم.
- منذ متى وأنت تعمل ضمن هذا المجال؟
- منذ زمن طويل.
- قبل أن أتعرف عليك؟
- بأكثر من خمس سنوات.
- أي مذ كنت يافعاً.

- نعم.
- كيف اهتديت إليهم؟
- هم من قاموا بتأهيلي.
- كيف حصل ذلك؟
- أنت تعرف أنني يتيم الأب، وكون الحالة التي آلت إليها أوضاعنا المالية باتت صعبة جداً، إذ اضطرت والدتي للعمل كي تعولنا، بالإضافة لما كانت تقدمه لنا العديد من الجهات الخيرية من مساعدات،

حيث كان المندوبون التابعون لتلك الجهات يترددون إلى منزلنا كبقية منازل المحتاجين عندها لفتُّ انتباه أحدهم وكان ثلاثينياً، ذا هيبة وجلال لما كان يتفوه به عندما يقوم بزيارتنا، حيث طلب من والدتي بأن تسمح له باصطحابي إلى مركز تابع لإحدى دور العبادة، حيث يلقن أمثالي أصول الدين وبعض التعاليم التي تدعو للصلاح والاستقامة.

وافقت والدتي على الفور كونها وجدت في ذلك الأمر منفذاً لي كي أستنير بآراء وأفكار هؤلاء النقاة حسب ما كانت تقول.

ومن تلك اللحظة تم غرس كل ما أصبحت أؤمن به في ذهني، مكرِّسين ذلك بالتطبيق العملي الملزم لدرجة الصرامة.

- هل أنت مقتنع بكل ما تقوم به؟
- نعم.
- ألم تفكر بطريقة أخرى ترضي بموجبها الخالق، وبالتالي نفسك؟

– نعم، لقد فكرت كثيراً، لكني لم أتوصل إلى ما هو أفضل من الذي نقوم به.

– قد تكون محقاً بذلك...قالها هيثم كي لا يثير ريبة محسن.

– أرجو أن تكون قد تولدت لديك نفس القناعة.

– كل شيء في هذه الحياة يحتاج لوقت كاف كي ينضج، لذا اتكل على الله فهو خبير بعباده.

– ونعم بالله.

مساء اجتمع هيثم بعمه أبي سالم في منزله، وقام بإبلاغه بكل ما استجد معه يوم أمس.

شرد أبو سالم لبعض الوقت وهو ينظر نحو الأفق، كون جلستهم كانت على شرفة المنزل الذي كان يطل على القرية من جهة الجنوب، بحيث بدت المساحات التي غرست بالأشجار كدوحات وسط بحر من الخضرة.

– عمي، هل أنت معي...قالها هيثم وهو يحاول تنبيه عمه.

– آ..آه..أنا معك.

– بم شردت إذاً؟

– بأولئك الغافلين ومغيبي العقل كون معظمهم ممن تم استغلال أحوالهم المضطربة وبالأخص المادية منها ليتم استجرارهم واستقطابهم ليستخدموا لاحقاً في تنفيذ ما كانت تلك الجهات قد خططت له.

– برأيك من يقف وراء أولئك ويدعمهم مادياً؟

– جهات عليا داخلية وخارجية، أقول عليا إذ أنهم من أولئك الميسورين الذين تُستغل ميولهم وعواطفهم كي يقوموا بدعم تلك الجهات مادياً وتحت أسماء عدة، منها التبرعات لعائلات مستورة وغيرها من مصطلحات تصاغ بمهارة كي تفي بالغرض.

أما الجهات الخارجية، فتلك الحكومات التي يخدم ما يقوم به أولئك مصالحهم، وبالأخص تلك القوى الكبرى لهذا العالم، ومن ورائها دهاة تمكنوا من الإمساك بكل مقدرات ومقاليد الأمور في هذا العالم، مستخدمين كل ما كان قد تفتق عنه ذهنهم من أساليب قد توصلهم لهدفهم ومن أقصر الطرق، وأهم تلك الدروب على الإطلاق هو طريق الفتنة الطائفية، إذ تؤجج الخلاف وتذكي نار البغضاء بين أتباع المذاهب المختلفة والمنبثقة عن دين واحد.

– آه..لذا تراهم يرددون وبشكل دائم...أعداء الداخل أخطر من أعداء الخارج.

– تماماً..هذا ما كانوا يقصدون.

– هل تريدني لأي أمر...قالها هيثم وهو يغادر.

– لا شكراً...غداً سأقوم بما يجب وبعدها أعلمك بالنتائج وكذلك التعليمات.

– وداعاً مع السلامة.

أثناء عودته مر بالقرب من أرض عمه أبي أحمد حيث لفت انتباهه حركة غير طبيعية تجري هناك، لذا قرر تغيير اتجاهه ليقف

على الحقيقة حيث شاهد ولمجرد وصوله حركة مكوكية يقوم بها بعض أخوته وأبناء عمه، إذ كانوا يقومون بنقل مواد بناء كالحصى والرمل والأحجار، عندها وعلى الفور خلع سترته وانخرط في سياق ذاك الجيش الزاحف.

تكرر ذلك في اليوم التالي حيث قاموا جميعاً بكل ما كان قد طلب منهم معلم البناء لإنجاز تلك البركة الواسعة.

تم كل ذلك وسط تعليقات أبي أحمد الطريفة حيث كان يوجه هذا وينهر ذاك ويكيل سيلاً من السباب على الآخرين وخاصة ولديه أحمد ومسعد اللذين كانا يتهامسان خلسة كلما سمحت لهما الفرصة لينفثوا ما اعتمر صدرهم من غيظ، الذي زال تماماً إذ انشرحت صدورهم حيث أولم لهم جميعاً والدهم كتحلية لإنجاز ذاك العمل الناجح.

حضر تلك الوليمة كل من أبي ديب وأعمامهم، إذ لم يباشروا طعامهم حتى قرأ أبو ديب آية من القرآن الكريم جلباً للبركة وصوناً لهذه اللّمة.

بعد الانتهاء من كل تلك المراسم اصطحب أبو ديب ولده هيثم أثناء عودته حيث سأله:

– هل أبلغت عمك بكل شيء؟

– نعم.

- ١٣ -

في اليوم التالي اقترب محسن من هيثم حيث كان يعمل ليعلمه بضرورة الاجتماع قريباً.

انتظر هيثم حتى أنهى كل ما كان قد كلف به عندها قصد المكان الذي يعمل فيه محسن ليبلغه بعدم تمكنه من تحقيق ذلك هذا اليوم كونه لم يقم بإبلاغ عائلته بشأن تغيبه، لذا طلب أن يؤجل ذلك إلى يوم آخر.

- لا عليك الأمر ليس بهذه الأهمية، لذا يمكن التأجيل...قالها كي لا يثير شكوك هيثم.

- ممتاز...لقد أرحتني أراحك الله في الدنيا والآخرة.

- شكراً لهذا الدعاء.

- العفو...قالها وهو يغادر.

عند المساء قام بإبلاغ عمه بالأمر ليكون على بينة من أمره، كون ما قد يستجد لاحقاً مجهولاً تماماً بالنسبة له.

- لا عليك تابع معهم بشكل عادي كي لا تثير ريبتهم، وبعد ذلك نتصرف بموجب المستجدات.

عندها غادر هيثم ليقوم بزيارة لبيت عمه أبو أحمد حيث وجد مسعد وقد اكتنفه الغم...سأله:

- خيراً يا سيد مسعد...

- خيراً.

- تكلم يا رجل لم أنت كئيب هكذا.

– يا سيدي لا أريد أن أحملك همومي، لذا دعني هكذا صامت.

– لن أتركك قبل أن أعرف ما بك.

– لقد وضع القدر في طريقي فتاة تنحدر من وسط مماثل لوسطنا وقد أعجبتني.

– وما المزعج في هذا؟

– أريد أن أتقدم لخطبتها والسيد الوالد يرفض مساعدتي.

– بسيطة قد يكون في عسرة من أمره هذه الأيام، لذا عليك بالصبر.

– أعلم أنه يعاني هذه الأيام من ضائقة مالية، لكن ما العمل حيال ما أنوي فعله.

– لا عليك سأتدبر الأمر بمفردي لذا ابتسم يا رجل لا شيء في هذه الدنيا يستحق كل هذا الغم.

– شكراً من كل قلبي على كل شيء.

وبالفعل تم تأمين المبلغ المطلوب، وبالإضافة إلى ما كان قد قدمه والده تم ذاك الأمر بهدوء تام، وأسفر ذلك عن طفل مميز من كل النواحي إذ كان يتمتع ببنية جسدية رائعة، ثم لسان سليط لا يسلم منه أحدٌ أياً كان.

وكان لقدومه الأثر المفرح في نفس أبي أحمد لأن الحفيد أغلى من والده.

.....

- ١٤ -

مساء اجتمع في منزل محسن بالإضافة لهيثم مجموعة من الشبان وكانوا في هذه المرة يرتدون ثياباً عادية كما أنهم كانوا قد حلقوا ذقونهم لدرجة أنه لم يتعرف عليهم رغم أنه كان قد التقى بهم سابقاً.

استغرب الأمر كثيراً لأن ما يراه مغايراً تماماً عن السابق.

وهو بحالة ذهوله هذه دخل شاب ثلاثيني يرتدي نظارة سوداء على عينيه وكان قد مشط شعره اللامع إلى الخلف ويتأبط على كتفه حقيبة فردية كالتي يحملها شبان هذه الأيام.

-أهلاً يا بن العم...قالها محسن.

- أهلاً بك...رد عليه وهو يرفع تلك النظارة عن عينيه عندها عرفه هيثم حيث قال:

- أهذا أنت يا أخانا العظيم؟

- نعم...غريب شكلي هذا...أليس كذلك.

- نعم تصور أنني لم أتعرف عليك بادئ الأمر.

- معك حق...هكذا أفضل...ثم التفت نحو البقية وقال:

- هل كل شيء جاهز؟

- نعم.

- هيا بنا.

- انتظروا قليلاً...إلى أين نحن ذاهبون...قالها هيثم.

- سنقوم برحلة سياحية.

- إلى أين؟
- باتجاه الصحراء.
- لماذا لم تخبروني بالأمر قبلاً؟
- لا عليك فنحن وفرنا كل شيء..
- أنا لا أقبل بهذا إن لم أساهم في كل ذلك...لن أشاركك هذه الرحلة.
- موافقون...يا سيدي عندما نعود نقوم بحساب مجمل التكلفة ومن بعدها نتقاسمها فيما بيننا..هل يرضيك هذا؟...قالها محسن.
- نعم هكذا أنا معكم حتى النهاية.
- هذا أملنا بك.
- إن شاء الله أكون عند حسن ظنكم.
- وكل الله يا رجل فأنت إنسان مميز.
- شكراً...ما دام الأمر هكذا اسمحوا لي ببعض الوقت كي أبلغ عائلتي حتى لا ينشغل بالهم...هل أستطيع استخدام جهاز الهاتف يا محسن؟
- تفضل يا رجل فالمنزل منزلك.
- شكراً قالها وهو يتجه نحو الهاتف القابع على طاولة في زاوية الغرفة رفع السماعة وأدار القرص ومن ثم قال محدثاً شخصاً على الطرف الآخر وبصوت عال نسبياً ليسمعه الجميع.
- مساء الخير يا أبي.

- مساء النور.

- والدي أعتذر عن عدم قدومي هذه الليلة لأني سأرافق أصحاباً لي في رحلة.

- إلى أين؟

- على الأغلب إلى المنطقة الشرقية.

- هل ستتأخرون؟

- سنمضي نهاراً كاملاً، وإن طاب لنا المقام قد نمض أكثر من ذلك.

- بالتوفيق لك ولأصدقائك..هل يلزمك شيء.

- شكراً لا يلزمنا سوى دعاءكم ورضاكم...أغلق السماعة وعاد ليجلس مكانه وإشراقة راحة ترتسم على محياه.

عند الفجر قام ابن عم محسن بإيقاظ الجميع كي يؤدوا صلاة الفجر جماعة طلباً للتوفيق في هذه الرحلة.

وبالفعل أمَّ بهم تلك الصلاة، ومن فضل الله كان هيثم يجيد ذاك الطقس، لذا جرى كل شيء بشكل عادي.

وبعد الانتهاء من الصلاة وما تلاها من طقوس كالابتهالات وبعض الأدعية التي تقال في مثل هذه الحالات.

تجمعوا كلهم حول مائدة قامت والدة محسن بإعدادها من بعض حواضر البيت "ليكسروا الصفرة" كما قالت قبل سفرهم، والذي رجت الله أن يكون ميسراً وموفقاً.

- ١٥ -

استقلوا حافلة حديثة كان محسن وابن عمه قد تعاقدا مع شركة النقل التي تتولى تسيير عمل تلك الحافلات، وكان يقودها سائق أنيق المظهر إذ ارتدى الثياب الرسمية المخصصة للسائقين العاملين في تلك الشركة وكذلك كان مساعده، الذي بدا لهيثم شاباً كامل الحيوية والنشاط وكان يضع نظارة طبية مزدوجة العمل على عينيه، إذ كانت تبدو مثل النظارة الشمسية في ضوء النهار وعادية عندما يكون المكان مغلق.

تفرس ذاك المعاون في وجوه الجميع إلى أن وصل الدور عند هيثم، حيث ركز نظره عليه أكثر من الجميع لبرهة، ثم تابع حركاته وعمله بشكل طبيعي كمعاون حافلة مخضرم.

لفت انتباه هيثم ما قام به ذاك الشخص وبالأخص عندما ميزه عن البقية إلا أنه مرر الأمر ليبدو طبيعياً أمام رفاقه.

انطلقت الرحلة وسط هرج ومرج الجميع بمن فيهم هيثم الذي باشر بترديد بعضاً المقاطع الغنائية الشعبية التي تتناقلها حناجر وأفواه أهل الريف في المناسبات العامة والخاصة.

دارت بهم الحافلة مجتازة طرقاً خارجية لتصل إلى نقطة تلاقي ذاك الطريق القادم من العاصمة مع تلك الشبكة المتداخلة من التفرعات التي تؤدي بدورها إلى مناطق عدة من تلك المدينة.

سلكت الحافلة إحدى تلك الطرق تاركة كل ضوضاء وملوثات البيئة خلفها وهي تخب ذاك الطريق الذي بدأ يمعن متوغلاً في أراض

حفت جوانبها بقايا رمال مما كانت قد تركته تلك الهبّات الممتعضة مما تحوكه أجواء تلك المنطقة من حبائل ذاك الحر الخانق الذي يكاد يكتم على أنفاس الطبيعة، إذ يحس المرء بأياد خفية تضغط على صدره دافعة ذاك العرق اللزج ليسيل من كل أنحاء جسده شاداً ثيابه عليه عائقاً حركاته أكثر مضيفاً على تلك الضغوط والمعاناة معاناة أخرى.

تابعت الحافلة سيرها حتى بدأت معالم تلك الحاضرة تظهر جلياً، وبالأخص تبك المدافن التي أسست وحفرت في بطن ذاك الجبل.

وعندما صاروا بالقرب من ذاك المفترق الذي بني في وسطه وبشكل فني رمزٌ مهم من رموز ضيافتنا العربية الأصيلة.

استدارت الحافلة لتدخل رحاب تلك المدينة الساحرة والشابة دائماً، تاركةً ذاك الطريق الذي يربط جنوب القطر بشماله وشرقه خلف ظهرها كفتاة مغناج كرست دلعها وغنجها على عاشق وَلِهْ أبدى كلّ ما جاشت به نفسه من أحاسيس وعواطف آملاً بشيء من الرضا واللين.

أمعنت فيما كانت قد قررت فعله لتصل إلى تلك الساحة الواسعة التي تحد ذاك المدخل الشاهد على تلك الحضارة الراقية.

ترجل الجميع بمن فيهم السائق ومعاونه حيث تجوّلوا في جميع أنحاء ذاك الموقع ومن ثم قصدوا جميعاً ذاك المعبد الشهير حيث تفرق الجميع كل في اتجاه إلا السائق ومعاونه اللذين اختارا مكاناً قصياً ليحتسيا شراباً ساخناً كانا قد أحضراه معهما في محفظة يدوية

تلفت هيثم متفقداً الجميع الذين وجدهم إلا محسن وابن عمه فقد كانا مختفيين.

ظلا هكذا لأكثر من ساعة ثم عادا وعلائم الفرح والغبطة بادية تماماً على وجهيهما، إذ دعوا الجميع لاجتماع تقرر فيه تناول طعام الغداء في ربوع أحد البساتين التي تم استئجارها لثلاث ساعات من قبل القيمين عليه.

هناك وأثناء تجهيز وجبة الغداء حيث توزع الجميع كلٌّ في مهمة، فهذا تفرغ لتجهيز السلطات والمقبلات وأولئك قاموا بالشواء بحيث كانت جلسة رائعة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى.

وهم بقمة فرحتهم تلك حضر إلى ذاك ثلاثة أشخاص، ما إن رأوا محسن وابن عمه حتى هبوا مسرعين لمصافحتهم مبدين عظيم فرحتهم بلقائهم هذا

مدعين بأن الفترة التي قد تفرقوا بها طال أملها، ورغم كل ما بذلوه من جهد إلا أن الظروف كانت أقوى منهم وباعدت فيما بينهم.

ألحقوا كل ذلك بدعوتهم الجميع لوليمة عشاء في مزرعته الكائنة خارج النطاق الإداري للمنطقة.

أبدى كل من محسن وابن عمه الرفض معللين ذلك بضيق الوقت وأنه يتوجب عليهم العودة جميعاً هذا اليوم مساءً، إلا أن هؤلاء الأشخاص أصروا على تلك الدعوى رافضين كل حجة ساقها محسن وابن عمه.

عندها توجه محسن إلى كل من سائق الحافلة ومساعده مستطلعاً رأيهم بالأمر، والذي كان إذا قام القيمون على تلك الرحلة بدفع بدل عن هذا التأخير فلا مانع، لذا وافق الجميع على ذلك.

مساء وصلوا جميعاً إلى ذاك المكان، وكان يبعد عشرات الكيلومترات عن مركز المدينة حيث تم إيداع السيارة في باحة كبيرة سقف قسماً منها كمرآب للسيارات، ومن ثم يكون ذاك المدخل الفخم قائماً ليفصل بين تلك الباحة وبقية أقسام المزرعة.

عندها اقتاد بعض الشبان الذين بدوا كعمال للمزرعة كل من السائق ومساعده إلى مكان يقع خارج المزرعة ليقوموا بتأمين كل المتطلبات حيث جهزت لهم وليمة ضمت بالإضافة إليهم عدداً ممن تم تقديمهم على أنهم من مستخدمي تلك المزرعة حيث دارت تلك الحلقات مما كانت تختزنه مخيلاتهم من بدع وابتكارات، إذ قام ذاك المعاون بوصلات تمثيلية فكاهية قلّد من خلالها العديد من الفنانين وبعض من الشخصيات المعروفة، ومن ثم ترك لغيره الدور كي يقدم ما يمكنه فعله.

استغل تلك الحفل ليتسلل دون أن يحس به أحد ويتغيب لفترة لا بأس بها ثم عاد وعلامات القلق بادية على كل حركاته رغم تعمده عدم إظهارها.

جلس قليلاً ومن ثم قام وانخرط في تلك الجوقة الصاخبة مشاركاً إياهم ما يفعلونه.

استمرت تلك الجلسة ساعات تسلل خلالها المعاون مرة ثانيـــة، ولكن هذه المرة هذه المرة قصد الحافلة، إذ قام بإبلاغ قادته بكل ما رآه في تلك المزرعة والذي كان على الشكل الآتي، وكما رآه إذ قام الجميع بالتجمع ضمن قاعة كبيرة بنيت على شكل صالة تـــصلح للمناســـبات الكبيرة حيث قام أحد الثلاثة من الذين قدموا إلى المزرعة بشرح نظري لمواقع عدة كانت مرمزة على خريطة تفصيلية لمناطق عدة من العالم.

من بعدها انتقل الجميع إلى مكان أقل سعة وضعت وسطه عـــدة طاولات مستطيلة، كان على سطح كل منها نوع من الأسلحة حيث قام اثنان من أصحاب تلك المزرعة بشرح توضيحي للجميع عن كل مـــا شاهدوه من أسلحة وعندما همّ الجميع بالمغادرة، ترك مكانـــه وعـــاد مسرعاً كي لا يلفت انتباههم.

نام الجميع ليلتهم تلك، وعند شروق الشمس قـــام مـــن حـــسبوه صاحب المزرعة بإيقاظهم ليتناولوا طعامهم، كونهم سيقومون برحلـــة صيد إذ تسعى الطرائد في هذه الفترة.

وبالفعل تم توزيع الجميع على عدة سيارات مكشوفة وتم تـــسليم كل منهم بندقية صيد حديثة جداً من ذاك النوع الذي يذخر آلياً والتـــي تحوي جهاز أشعة يحدد الهدف فتكون الإصابة محققة تماماً.

غادر الجميع إلا المعاون بحجة عدم تمكنه كونه كلف من قبل إدارة الشركة بحراسة الحافلة والحفاظ عليها بكل محتوياتها.

وما أن غادروا ذاك المكان حتى قام بمفاجئة الشخصين اللذين بقيا للحراسة واللذان كان النعاس والتعب قد نال منهما نتيجة تلك السهرة الصاخبة حيث خلدا مستسلمين لغفوة لذيذة.

استغل الموقف وتسلل ثانية إلى الداخل باحثاً ومفتشاً في ذاك المكان الذي رأى فيه العجب، إذ كان معسكراً تدريب بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.

عاد ليجد كلاً من الحارسين على وضعهما إذ كان النعاس قد سيطر عليهما فاستسلما لنوم عميق.

أعاد الاتصال مرة ثانية ليزودهم بمشاهداته تلك، ومن بعدها استلقى على المقعد الأمامي ماداً ساقيه على غطاء محرك واستسلم مسترخياً.

استفاق الثلاثة على تلك الضوضاء التي أحدثتها سيارات الصيادين العائدين من رحلة كانت وكما شاهدها موفقة تماماً، إذ كانت حصيلتها بضع أرانب والكثير من الطيور.

ولمجرد وصول الجميع إلى حيث المبنى الداخلي ليغتسلوا ويأخذوا قسطاً من الراحة بينما قام المعاون والحارسان بتجهيز تلك الطرائد بعد تنظيفها لتكون وجبة غداء دسمة.

وبعد أن تناولوا طعام غدائهم والذي كان لذيذاً بكل المعايير والمقاييس كون كل منهم أكل ما كان قد اصطاده بيديه.

غادروا ذاك المكان عائدين باتجاه تلك المدينة حيث قصدوا الينابيع الكبريتية حيث أخذوا قسطاً من الراحة حولها.

وعند الأصيل حيث بدأت الشمس تتحضر للمغادرة تاركة عرشها لتلبث ليلة كاملة ومن ثم تعود، تاركة كل الكون يسبح في بحر سكونه الساحر.

كانت تلك الحافلة تخب الطريق عائدة أدراجها بكل هدوء وروية.

بعد أن حطت رحالهم أمام منزل محسن حيث تفرق الجميع كل باتجاه منزله، ولم يبق حينها سوى هيثم ومحسن وابن عمه والسائق ومعاونه اللذين كان ابن عم محسن قد رجاهما بأن يقوما بإيصال هيثم إلى حيث تقع محطة الانطلاق، بعد أن رفض كل دعواتهم له كي يبقى في ضيافتهم لتلك الليلة.

وصل هيثم قريته ليلاً حيث وجد والده وعمه أبا سالم يحتسون المتة كعادتهم في مثل هذا الوقت أمام الدكان.

- كيف كانت رحلتكم يا هيثم؟
- ممتازة يا عم.
- هل سعدتم خلالها؟..سأله والده.
- نعم كثيراً وبالأخص رحلة الصيد تلك.
- وهل قمتم بذلك حقاً؟

- نعم.
- ومن أين جئتم بالأسلحة؟
- زودنا بها أصدقاء محسن وابن عمه هناك.
- وكيف كانت حصيلة تلك الرحلة؟
- الكثير من الطرائد.
- مم تألفت؟
- من بضع أرانب والكثير من الطيور
- وهل أكلت من تلك الأرانب.
- نعم.
- وهل كانت لذيذة الطعم؟
- نعم.
- "صحة وعافية" قالها أبو ديب وهو يمط شفتيه استهجاناً...ادخل واستحم واسترح.
- معك حق...إلى اللقاء.
- مع السلامة

في هذه الفترة كانت تلك الدولة المتغطرسة قد حددت هدفها الثاني، والذي كانت قد هيأت لذاك الأمر كل الشروط وحضرت نفسها ومن يدور في فلكها من حكومات ودول مجبرة تلك الهيئة الدولية على الرضوخ صاغرة كي تصمت رغم رفضها لتلك المبررات وكل ما كانت قد رتبته وحاكته تلك الدولة من حجج وبراهين لتبرر عملها هذا،

وكذلك قامت بتجاهل كل الاعتراضات التي قامت بها معظم دول العالم وهيئاته ومؤسساته ساعية لحشد تحالف ضم العديد من القادة المأجورين لتنفيذ ذلك العدوان.

ورغم ظهور ذاك الشخص وبعنجهيته المعهودة لبث روح الصمود وإثارة العواطف لصد ذاك الهجوم المحتمل في أية لحظة.

ورغم كل تصريحات معاونيه ومساعديهم والتي صبت في ذات المنحى إلا أن ما كان قد قرر سابقاً قد حددت ساعة الصفر له.

بدئ ذاك الاجتياح من عدة محاور وعبر حدود تلك البلدان الشقيقة والتي كانت حكوماتها قد دعمت وباركت تلك الخطوة، رغم رفض عدة دول من تلك التي تحيط بذاك البلد السماح لقوات ذاك التحالف من استخدام أراضيها ومياهها الإقليمية في ذلك.

صمدت قرية صغيرة أياماً عدة في وجه ذاك الزحف المدمر الكاسح معرقلة حركته ومسطرة بطولات سيحفظ التاريخ تفاصيلها ومجرياتها لأمد بعيد.

– هزّ أبو ديب رأسه وقال محدثاً نفسه:وقعت الواقعة...فويل لذاك البلد وأهله من متعلقاتها ومجرياتها...أجارنا الله من شظاياها.

عندها دخل أبو أحمد مكفهراً...بادره أبو ديب قائلاً:

– أسمعت ما حدث يا بن العم؟

–نعم...ما الذي سيحدث لنا؟

– سندفع الثمن كما كل مرة يتعرض فيها بلد مجاور لعدوان...ألا ترانا ندفع ثمن نكبة فلسطين حتى هذه اللحظة؟

– نعم، ولكن ما ذنب هؤلاء الأبرياء؟

– ذنبهم أنهم رضخوا مستسلمين لتلك القيادة المتهورة والتي جرتهم لمعارك جانبية خسروا خلالها وبسببها كل مقدرات بلدهم البشرية والمادية.

– ما الذي في استطاعتهم فعله؟

– كانوا يستطيعون ذلك لو أنهم اتحدوا ضد قيادتهم.

– ألم تسمع عن فظائع أجهزة ذاك النظام، وتبك المجازر التي ارتكبها بحقهم؟

– نعم، ولكن أليس من الأفضل لهم لو أنهم قاموا بطرد هذه الطغمة بأنفسهم، بدلاً من دخول ذاك المستعمر الجديد على هذا الخط والذي سيجرهم لويلات لم يعرفوها من قبل.

– أكثر من الذي لاقوه ومروا به سابقاً.

– قل أكثر بكثير، وستثبت لك الأيام ذلك.

– أجارهم الله وإيانا تلك الويلات.

– نعم ولكن الكارثة وقعت والنهوض منها يحتاج لجهد ووقت كبيرين.

– لا حول ولا قوة.....

– هل ستتحرك الدول المجاورة لمساعدة ذاك البلد؟

– لا أظن، إذ أن أكثر ما يمكنهم فعله هو فتح الحـــدود لنـــزوح السكان من هناك.

– فقط!.

– نعم، ألا يكفي ذلك، إذ إن ما ستتحمله تلك البلدان مـــن جـــراء ذلك كبيراً، وسيسبب ذلك ضائقة ستتلمسها شعوبها لاحقاً.

– نعم صحيح.

تقدمت تلك الجموع الزاحفة والتي ضمت عسكراً من جنسيات مختلفة كاسحة كل مواقع المقاومة، وبعض الجيوب التي اتخذها من بقي محافظاً على شعوره وإحساسه الوطني حيث صمد مدافعاً ومقاوماً ذاك الزحف. وبالرغم من تصريحات أبواق دعاية ذاك الرجل، إلا أن الأحداث على الأرض كانت تخالف ذلك تماماً، حيث شوهدت دبابات مركبات العدو تحث السير في الطريق المؤدي إلى عاصمة ذاك البلد، والتي امتد سلطانها حتى حدود الصين وأواسط آسيا وأوروبا ومعظم مناطق إفريقيا الشمالية، دون أية مقاومة تذكر.

– أين ذاك الجيش الذي اعتبر ولفترة بسيطة من الزمن سادس جيش في العالم من حيث تعداده وعتاده...قالها أبو ديب موجهاً كلامه لأبي أحمد الذي اعتاد زيارته مساء ليتداول معه في مجريات الأمور كلها مستغلين ذاك الوقت لينفثوا ما اعتمر به صدرهم من غيظ وقهر.

– لا أدري...شيء يذهل المرء...إننا ولأيام خلت كنا نظن أنهم سيحيلون أرض ورمال ذاك البلد العريق مقبرة لجنودهم ومعداتهم، إلا أننا نرى العكس تماماً.

– أظن أنهم يستجرونهم للتوغل أكثر حيث يطبقون عليهم من كل الجهات.

– لا أظن ذلك "لو أرادت المطر لراكمت غيمها ورعدت".

– أتعتقد ذلك حقاً؟

– نعم وإن كنت في قرارة نفسي أتمنى عكس ذلك.

- ١٦ -

ظهراً كان أبو ديب يقوم ببعض الأعمال الروتينية في دكانه، مستغلاً ذاك الفراغ الحاصل من اعتكاف معظم أهل القرية لفترة قيلولة بين مرحلتين من جولات العمل، وإذ به يقف جانباً في مكانه وهو يشنف أذنيه لما يذيعه ذاك الجهاز من أنباء بدأها بالعاجلة:

- الآن دخلت القوات المتحالفة عاصمة ذاك البلد وسط ذهول معظم المواطنين، وإن مشهد تلك الدبابة الرابضة فوق ذاك الجسر الشهير الذي يصل بين ضفتي ذاك النهر العريق، والذي سيبقى هكذا خالداً خلود أرض ومياه ذاك البلد شاهد على جبن وتخاذل هذا الرجل ومعاونيه، وبالأخص قادة قطعات جيشه الجرار، الذي استنزف جل خيرات ذاك البلد.

- يا إلهي، تكررت النكبة...قالها وهو يضرب كفاً بكف أثناء مغادرته باتجاه الغرفة حيث التلفاز الذي كان يبث ذاك المشهد المذل.

صمت هكذا مندهشاً للحظات وهو يستمع لذاك الدعي الهزلي وهو يتوعد ويهدد بكلامه المنتقى جيداً والظريف بعض الشيء، وبالأخص عندما كان يقوم باستعراضاته تلك، وهو يشير إلى الطائرات المغيرة على جل مناطق العاصمة مزدرياً بها وغير آبه، كمن ملك من زمام أموره وأحكم سيطرته عليها، والتي ما لبثت أن انفلتت من يديه متسربة من بين أصابعه كحبات رمل جاف، حيث اختفى كأقرانه الذين كانوا

ولأيام عدة خلت يحكمون سيطرتهم ويرزحون على رقاب وصدور أولئك الفقراء المعدمين.

أعاده لوعيه طرقات على زجاج الواجهة والتي ترافقت بنداء من جاره أبي محمد الذي حضر لابتياع علبة دخان.

كثرت في تلك الآونة الإشاعات والتخمينات التي كان يطلقها بعض ممن غيَّب عقلهم ذاك الرجل، لدرجة صار فيها بالنسبة لهم كالمخلّص الأكبر وكذلك ما كان يأمله من تحكمت بهم مفاعيل ونتائج تلك الهزائم التي توالت على هذه المنطقة وعبر كلّ تلك العقود.

إلا أن ما كان قد حصل على الأرض، غير نسبياً من تلك المفاهيم هادماً هذه الآمال، لدرجة أصبح فيها الإنسان يسير وهو يكلم نفسه قائلاً:

" ألهذا الحد وصلت الأمور "

– أبو ديب...هل شاهدت آخر ما تفتق عنه ذهن أولئك الغاصبون؟...قالها أبو أحمد وهو يدخل الدكان.

– خيراً...ما الذي حدث وجعلك تبدو هكذا؟

– قم وشاهد ما يعرضه التلفاز.

قام من مكانه وفتح الباب الفاصل بين الدكان وغرفته، حيث شاهد ذاك المشهد المقزز والذي تضمن أوراق لعب رسمت عليها صور كل المطلوبين ورقمت حسب أهمية كل شخص، وأولوية القبض عليه حياً أم ميتاً، وكان في مقدمة أولئك ذاك الزعيم، حيث أرفقت الصور بمكافآت

مغرية تصل لملايين الدولارات تخصص لمن يدلي بأية معلومات أو يساهم بالقبض على هؤلاء.

- يا للذل.

- أتظن أن بمقدورهم إلقاء القبض عليه...قالها أبو ديب.

- ببساطة ولن يطول انتظارنا ذلك...لأن ضعاف النفوس وخصوصاً هناك كثر جداً.

- أتظن ذلك؟

- نعم.

بعد فترة ليست بالقصيرة مرت حاملة معها مآسي لا تعد ولا تحصى لذاك الشعب المسكين، حيث شاهد الجميع ما كانت تبثه من هناك وسائل الإعلام العربية والأجنبية عما يحدث ،وما كان قد حدث سابقاً، وبالأخص اكتشاف تلك المقابر الجماعية التي خلفها ذاك الرجل وأعوانه عبر سنوات حكمهم.

لم تطل فترة انتظارنا كثيراً، حيث قام ذاك الدعي ببث بيان مسجل قدم من خلاله ولديه وحفيده كقرابين على مذبح الوطن.

استغرب الناس جميعاً ما كان يحدث، أين ذهبت كلّ تلك الجحافل من قوات ذاك الرجل، والتي كان يتفاخر بها عندما كان يظهر وهو يستعرضها وهي تمر من تحت شرفة قصره الفاخر.

– أين تبخر ذاك السلاح؟.....أين اختفت تلك الطـــائرات التـــي كانت يده الطولى عندما كان يرغب في معاقبة أي جزء مـــن أجـــزاء بلده؟..... هذه الأسئلة كلها كانت تتردد على ألسن الجميـــع، والتـــي كانت لم تلق الرد المقنع عليها أبداً، فلم يكن بمقدور أي شخص أو جهة تقديم الإيضاح المريح.

– ١٧ –

ظهرت تلك المذيعة وبأناقتها المعهودة لتبث هذا النبأ العاجل.

– لقد تم إلقاء القبض على الرئيس صباح هـذا اليـوم، وكـان متحصناً ضمن حفرة صغيرة الحجم وسط مزرعة خاصة تقـع علـى مشارف تلك العاصمة.

سمع ذاك النبأ أبو ديب وهو يقلب مفتاح محطات التلفزيون، حيث استوقفه ذلك ليلبث بعض الوقت مندهشاً.

– هكذا آلت حالتك أيها التعس... قالها وهو يحدث نفسه.

تحرك باتجاه الدكان ليبلغ ولده بذلك وهو يلوح برأسـه إحباطـاً واشمئزازاً إن ذاك الرجل كان حتى هذه اللحظة يمثل لفئة كبيـرة مـن مجتمعنا رمزاً فريداً ومخلصاً منتظراً، عقدوا عليـه الآمـال العظـام، وبالأخص ما كانوا يتوقعونه منه من تصرفات، إذ أنهـم حـسبوا أنـه باختفائه عن ساحة المعركة كان يحضر لحملة مضادة تـردع الغـزاة وتكبدهم أفدح الخسائر.

– أسمعت آخر الأنباء؟

– أية أنباء؟

– تعال وشاهد بأم عينك.

فتح أبو ديب الباب الذي يفصل المحل عـن الغرفـة المجـاورة ووقف عند عتبته متسمراً مشدوهاً لما يراه من مشاهد مؤذيـة للنظـر،

حيث كان أحد جنود تلك الدولة يفتش في شعره عن حشرات وغيرهـا مما يثير الاشمئزاز.

– يا إلهي إلى هذا الحد وصلت بك الأمور؟..قالها وهـو يلـوح برأسه...أطفئ هذا الجهاز لأن ما يعرضه يثير بالنفس كل الشجن.

– لماذا؟...دعنا نرى ما يبثه...أليست هذه النهاية الحتمية لهكـذا رجل.

– نعم، ولكن ما نشاهده يشعرنا بالذل والإهانة.

– لماذا؟.

– لأن شعبه سيدفع الثمن

– معك حق، فالشعب المسكين هو مـن يـدفع الـثمن دائمـاً، وبالأخص إبان المحن والكوارث، حيث القادة يقبعون فـي قـصورهم وحصونهم ويتمتعون بملذات الدنيا، بينما ذاك الشعب الفقير الذي تسحقه أقدام المصائب على الدوام هو من يتحمل ذلك ومع كل هذا يبقى صابراً متحملاً...أليس ذلك من أعجب العجائب؟

– كيف؟...وهل يستطيع أحد رفع صوته والمطالبة بذلك؟

– يستطيع إن كان هناك تضامن وتحالف شعبي، عندها يـستطيع من يكونوا قد أوكلوه نيابة عنهم، إذ أنه يعتمد عليهم وعلى مـواقفهم إن تعرض لأي ضغط كان.

– لم لا يفعل أولئك ذلك؟

– هذه قضية كل البلدان المتخلفة.

– نعم، لذا ترانا نصطدم بين الحين والآخر بالذي نراه ونعيشه هذه الأيام.

– أوتظن أن الأوضاع هناك ستصير وتتحول إلى الأفضل بعد عملية الاعتقال هذه؟

– لا أظن، لأن أتباعه سيسعون لإطلاق سراحه بأية وسيلة.

– أتعتقد ذلك؟

– هذا ما يقوله المنطق.

– لا أدري، ولكن ما أظنه عكس ذلك ،لأنهم لو أرادوا ذلك لفعلوا وما كانت وصلت بهم الحال وببلدهم إلى هذا الدرك المذل.

– أظنك تنطق بالواقع...لأنهم لو فعلوا ذلك لكان الحال غير الذي نراه.

–الذي أستغربه يا والدي ويشغل تفكيري، هو أنه عندما هزم قبل عقد من الزمن إبان مغامرته المشؤومة تلك، كان قد ألقى اللوم على بعض المتخاذلين من أعوانه ومساعديه، وها نحن نسمع ونرى ذات الشيء الآن.

ألم يتعلم من الدروس التي مرّ بها؟

– لا أعتقد ذلك، إذ عندما تكون مقاليد الأمور بيدهم يظنون أنهم قد ملكوا زمام العالم، ويكونوا قد أقنعوا أنفسهم بأن مسألة الخيانة شيء مرفوض وملغى من قاموسهم، كون الشخص الذي تسول له نفسه فعل ذلك يعرف ما سيؤول إليه مصيره.

– ما الفائدة من كل ذلك الآن؟..فقد سبق السيف العذل.

– المهم أن يتعلم غيره من ذلك ويتعظ ويصلح من تصرفاته وأفعاله.

– نعم صحيح.

– أوتظن بأنه سيحاكم علناً؟

– أعتقد ذلك كي يعطي من بيده مقاليد الأمور التبرير المنطقي والمقنع لما سيصدر عن تلك المحاكمات من أحكام.

– ألم يتعرض طاقم تلك المحاكم للتهديد وبالتالي للخطر؟

– بالتأكيد، ولكن سيتم توفير الحماية اللازمة لهم.

– برأيك هل سيثيرون كل المواضيع وكل القضايا خلال هذه المحاكمة؟

– نعم، ولكن كي لا تطول السجالات سيختارون ذاك الشخص الأكثر ارتكاباً للجرائم فظاعة ليتم الحكم عليه وعلى أعوانه بسرعة.

– وستكون تلك الأحكام قاسية؟

– بالطبع.

في هذه اللحظة دخل أبو أحمد وهو يحمل بين يديه حفيده الأول من باب الدكان بابتسامته المعهودة...وقال:

– كنتم تشاهدون التلفاز؟

– نعم.

– هات أعطنا علبة بسكويت لهذا السيد.

– أمرك...قالها أبو ديب وهو يتجه نحو الطاولة التي كان قد صفّ عليها علب البسكويت بشكل أنيق...تفضل يا سيد، هذه من النوع الفاخر.

– شكراً لك...تفضل...وناوله ثمن ذلك.

– دعك من هذا، فهذه هدية لهذا السيد حفيدكم.

– أنا لا أقبل.

– عليك بالقبول يا عم، ألم تعرف عادة وطبع والدي.

– أعرفه جيداً فهو رفيق العمر.

– لذا اقبل بالذي قاله.

– لا حول ولا قوة إلا بالله...المهم ما هو رأيك بالذي حدث هذا الصباح؟

– شيء مخزٍ يا رجل.

– لم تقول ذلك؟...أفلا يستحق ما جرى له؟

– نعم، ولكن كنت أرغب بأن يحاسب من قبل شعبه، وليس من قبل أولئك الأوغاد.

– يجب أن يحاسب على ماضيه، وبأي طريقة ووسيلة كانت.

– يبقى تدخل أولئك سيئاً.

– مهما كانت الأمور يجب أن يعاقب ليتعظ أمثاله ممن أداروا ظهورهم لشعوبهم وأوطانهم.

– يا أخي كل ما تقوله صحيح، ولكن لو تم ما حدث على أيــدي أبناء بلده حتى وإن كان تعرض وعلى الفور للمحاسبة، ليكــون وقعــه على النفس أفضل وللأيام أسلم، كون ما ستجره هذه الحركة من مشاكل لاحقاً لا يمكن أن يحمد عقباها، كون تركيبة مجتمعاتنــا وكمــا تعلــم عشائرية وطائفية.

– هنا مصدر الخطر الحقيقي...أجارنا الله وإياهم شر ذلك.

– آمين.

- ١٨ -

زار هيثم عمه أبا سالم في منزله مساء بعد عدة أيام من رحلتـــه الشهيرة تلك

- لم تقل لي يا عم شيئاً بخصوص تلك الرحلة وما جرى فيها.

- لا يوجد شيء حتى الآن.

- ما هو رأيك بالذي حدث؟

- كل شيء تحت السيطرة، المهم أن تبقى على تواصل مع أولئك والأهم من كل ذلك أن تكون تصرفاتك طبيعية جداً.

- أنا ألتزم بذلك، وبكل دقة، ولكن قل لي هل لـــديكم معلومـــات مسبقة عن ذاك المكان.

- كما قلت لك...كل شيء تحت السيطرة.

- هل أستطيع تقديم أي شيء الآن.

- كلا، ولكن كن جاهزاً على الدوام.

- أنا جاهز، وبالأخص بعد الذي كنت قد رأيته هناك.

- معك حق، فالأمر يثير الحفيظة، ولكن ما تفكر بـــه الأجهـــزة المختصة له علاقة بالخطط وما شابه، إذ لا يهمهم ما يجيش في النفس من انفعالات، المهم عندهم هي النتيجة فقط.

- نعم وإلا لما كانوا حققوا تلك النجاحات سابقاً.

- لهذا أكرر، عليك التزام الهدوء لأن لكل حركة موعدها المحدد.

- حاضر إلى اللقاء.

– مع السلامة.

– سلمك الله...قالها وهو يغادر قاصداً منزل أحد أصدقائه في القرية والذي كان قد وعده بتلك الزيارة من قبل.

وعند وصوله إلى باب المنزل التقى ببعض من أقرانه حيث كان صديقه حسان قد أولم لهم كعادته، كونه من محبي شيّ الدجاج واحتساء المُدامْ.

دخل الجميع وسط ترحيب حسان بهم حيث اقتادهم نحو عريشة عنب كبيرة كان قد فرش تحتها حصيرة كبيرة مع بعض الفرش الإسفنجية.

وعلى الفور بدأت تلك العمليات التي اعتاد القيام بها كل الحاضرين إذ قسموا وبشكل تلقائي المهام فيما بينهم ولتبدأ حفلة سمر دامت حتى آخر الليل.

أثناء استراحة الغداء، اقترب محسن من هيثم وجلس بجواره على طاولة ضمت بالإضافة لهما عدداً من زملائهما.

– كيف حالك يا هيثم؟

– الحمد لله.

– لمَ لمْ نعد نراك يا رجل؟

– مشاغل يا أخي.

– بسيطة.

– هل من جديد؟

- لا أبداً...قالها وهو يغمز له...أي أن الوقت غير مناسب.
- تفضل وشاركني هذه الفطيرة.
- يا سلام...هذه من الأكلات المحببة عندي.
- بالهناء والشفاء.
- شكراً...وأنت خذ من يدي هذه...قالها وهو يناوله قطعة من الكبة المشوية مما تشتهر به تلك المنطقة.
- الله...كم هو لذيذ طعمها.
- هنيئاً لك.
- شكراً لك.

أثناء ذلك غادر الطاولة كل من كان قد شاركهم إياها، بحيث بقيا على انفراد...عندها بادره محسن قائلاً:

- اسمع يا هيثم نحن نريدك لأمر هام.
- متى؟
- في أقرب وقت، لذا اختر أنت ذلك.
- أنا تحت أمركم، وسأرتب ذلك قريباً.
- تمام...إذاً اتفقنا.
- نعم...قالها هيثم وهو يغادر قاصداً مكان عمله حيث انتابه شيء من القلق مما كان قد حدده مع محسن من قبل، إذ قال محدثاً نفسه:

– الآن بدأ الجد يا هيثم، عليك بالثبات والمثـــابرة، لأن التراجـــع مرفوض بل أكثر من ذلك فهو خطير جداً...قالها وهو يهز رأسه.

.....

- ١٩ -

بعد أن باع كل إنتاج بقراته من الحليب، قصد أبو أحمد مستودع الأعلاف القابع في إحدى حارات القرية المجاورة، والذي كان يشهد ازدحاماً كبيراً كالعادة في مثل هذا الوقت من النهار، كون المزارعين من أبناء القرى المجاورة قد أتوا قاصدين ذاك المستودع اليتيم.

ابتاع ما كان قد جاء من أجله بعد انتظار طويل حيث تم تحميل تلك الكمية من العلف على متن شاحنة كانت تقف بانتظار أمثاله من المزارعين.

وأثناء عودته مر بدربه على مزرعة كان صاحبها من رفاق طفولته وصباه حيث شاركه احتساء كأس من الشاي إبان تبادلهم أحاديث كانت تجلب لكليهما الراحة وقليلاً من المتعة، كونهما من أصحاب الطرفة والنكتة لأنهم كانوا يحولون مجرى أي حديث مهما كانت درجة جديته لطرفة محببة ولطيفة الوقع على المسامع.

بعد ذلك قام وامتطى دراجته النارية وقصد القرية التي لاحت له من بين خيوط الشمس المتساقطة على أسطح بيوتها المتلاصقة، والتي تم تحديث معظمها وبأشكال ومظاهر متقاربة لدرجة أنها بدت للذي ينظر إليها من بعيد كجسد هائل تمدد مستلقياً مستسلماً يسترد أنفاسه بعد عناء طال أمده

هزّ رأسه مغتبطاً بذاك المشهد الساحر، وقال محدثاً نفسه:

– لله درّك أيتها البقعة الساحرة يا ملعب الطفولة ومرتع الشباب وملاذ الكهولة، كم لمشهدك هذا من تأثير على النفس الساكنة الهادئة المتطلعة إلى أفق قد يلوح ذات يوم دون أية إشارة أو سابق إنذار.

وهو يجتاز حد القرية الجنوبي حيث دار ليتبع ذاك الدرب العتيق شعر بشيء يضغط على صدره كيد مارد امتدت لتمسّد جسده من أسفل صدره صاعدة بكل هدوء وثقل ظل حتى توقفت وبدون أية مقدمات أعلى رقبته لتزيد من ضيق نفسه الذي أجبره على التوقف ومن ثم الترجل كي يمسح عرقاً بارداً كان قد سال إبان منازلته غير المتكافئة تلك، محاولاً أثناء ذلك التقاط أنفاساً كانت تحاول جاهدة التملص من قبضة حواسه، وبالأخص إبان جلوسه على الأرض حيث اتكأ ماداً يده التي تسربت من بين أناملها آخر خيوط كانت توصل بين جوهر ذاته وهناك حيث سدرة المنتهى.

وجد بعد برهة متكأ كمن قرر استراق غفوة من لحظة شرود ساحرة.

– رحل أبو أحمد...قالها أبو ديب وهو يضرب كفاً بكف ويدور بمكانه كمن فقد بوصلته.

كيف حدث ذلك؟...قالها موجهاً كلامه لولده صابر الذي كان قد أتاه باكياً وهو يحمل ذاك النبأ المفجع.

– هيا بنا...قالها وهو يغادر مسرعاً نحو المكان الذي حطّ فيه ذاك المسافر رحاله.

وقع نبأ رحيل أبي أحمد على مسامع كل من تعامل معه وقع الصاعقة إذ تتالت الشهقات، وتدحرجت تلك الحبات اللامعة على وجنات الرجال الصامتين إجلالاً واحتراماً للحظة الفراق المضني هذه.

وبعد أن تمت عملية دفن ذاك الراحل وبالطقوس المعتادة عاد الجميع معارف وأصدقاء إلى حيث أقيم ذاك المجلس ليحتضنوا أولئك الذين كان الرحيل المفاجئ هذا لربان سفينتهم وقد أربكهم وقيد حركتهم مغلقاً منافذ عقلهم، بحيث بدو جميعاً كمن ضرب مؤخرة رأسه بعصاً غليظة.

مرت تلك الفترة رغم قسوتها بهدوء، لأن ما كان قد قام به وأقدم عليه أولئك المحبون هدّأ من روح ذويه وأدخل السكينة إلى قلوبهم ونفوسهم، الأمر الذي أدى بهم لأن يقبلوا ذاك الطارئ رغم ثقل ظله، وتابعوا حياتهم وبالأخص ذاك الحفيد المميز الذي اعتاد غياب جده القاسي هذا رغم جهله بما حدث في الواقع.

.....

- ٢٠ -

وبعد فترة من الزمن تم استدعاء هيثم إلى مقر تلك الإدارة على عجل، الأمر الذي أثار قلقه لبعض الوقت إلا أنه تخلص منه فور رؤيته لعمه أبي سالم الذي كان بانتظاره عند المدخل حيث قام باصطحابه إلى مكان لم يكن قد زاره قبل ذلك.

- لم أنت قلق يا هيثم؟

- بعد كل ذلك ولا تريد فيّ أن أقلق.

- لا عليك..اطمئن وكن هادئاً كونك سترى العجب بعد قليل...قالها أبو سالم وهو يربّت على كتفه بحنوّ كي يجلب الطمأنينة إلى نفسه.

وبعد أن مرّ وقت كان طويلاً جداً بالنسبة إلى هيثم رغم قصره بعض الشيء عاد عمه أبو سالم ليصطحبه إلى مكان أشبه ما يكون باستوديوهات تصوير الأفلام، حيث كان ذاك الممر التي بنيت جوانبه من زجاج غريب الشكل والتركيب.

أدخله قاعة صغيرة قليلة المساحة كانت جدرانها الثلاثة عادية أما الرابع فكان من ذاك الزجاج الغريب الشكل.

تلفت نحو عمه مستفسراً.

شدّ على يده بشيء من القوة كإشارة له بأن عليه أن يتحلّى بالصبر. وما هي إلا لحظات حتى أدخل إلى تلك القاعة مجموعة من الأشخاص كانت قد وضعت على رؤوسهم أكياس قماشية والتي ما أن

تم نزعها عن رؤوسهم الواحد تلو الآخر حتى كاد هيثم أن يخرَّ علـــى ركبتيه رعباً وفزعاً كونهم شاهدوه حيث يقف.

دقق النظر في وجوههم لفترة دون أن يلحظ أية إشارة تحدث على محياهم كونهم رأوه. استغرب الأمر أكثر بل حفّز نفسه والتفت ليـــسأل عمه عن ذلك..ما كان من أبي سالم إلا أن بادره قائلاً:

– أنت تراهم فقط فهم لا يرونك كون تركيبـــة ذاك الزجـــاج لا تسمح بذلك.

عندها هدأت ثورة شكه تلك، وبالأخص بعد أن شاهد كل من كان قد تعامل معهم من قبل بالإضافة لأشخاص آخرين في قبضة العدالة.

بعد كل ذلك قاده أبو سالم باتجاه مقر رئيسه الذي قام من خلـــف مكتبه مرحّباً بهما وبالأخص به شخصياً، حيث قام بمصافحته مثنياً على كل ما كان قد قام به ومكّن أجهزة الدولة من وضع يدها على هـــؤلاء المغرر بهم كما قال.

عاد إلى مكانه بعد أن طلب منهما الجلوس، وقام بقرع الجـــرس مستدعياً أحداً ما، عندها دخل شخص قدم نفسه بعـــد أن قـــام بالتحيـــة المعتادة لقائده ومن ثم التفت نحو أبي سالم غامزاً لهيثم بمكر وخبث.

شهق هيثم لمجرد أن رآه كونه كان معاون الحافلة الشهير.

– هذا الملازم أول أسعد قائد فصيل المداهمة لدينا.

– أهلاً بك يا هيثم...لي الشرف أن أتعرف عليك وأتعـــاون مـــع أمثالك.

– أهلاً سيد أسعد..كم أنا مندهش لما أراه وأسمعه.

– نحن هكذا عيننا ساهرة دائماً يا بني، فمسؤولية حفظ أمن وسلامة البلد تقع على عاتقنا نحن وغيرنا بالإضافة لمساعدة الشرفاء أمثالك.

– العفو سيدي فأنا ما قمت إلا بأقل من واجبي.

– بوركت...قالها وهو يقف ماداً يده فوق مكتبه مصافحاً ومودعاً لكل من هيثم وعمه أبا سالم الذي أدى التحية قبل مغادرته.

– ألم يترك ما حدث أثراً رجعياً عليّ؟

– كلا...لأننا قمنا بالقبض عليهم في الفترة التي كنت قد غادرت فيها لذا سنخرجك بطريقة بوليسية كي لا يلحظك من كان قد كلّف بالمراقبة.

– هل يقومون بالمراقبة؟

– بكل تأكيد...فهذا منطقي جداً.

– معك حق.

وبالفعل قام بضعة أشخاص باصطحاب هيثم إلى مكان كان أشبه بغرفة الملابس المرفقة بخشبات المسرح عادة حيث طلب منه اختيار الزي الذي يحبه ويفضله.

اختار زيّ مزارع بسيط، حيث قام بارتداء تلك الصدارة وذاك القميص والشروال التقليدي ومن ثم قام بوضع ملابسه في حقيبة بلاستيكية.

وأثناء خروجه تم تسليمه معولاً كي تكتمل الصورة، حيث بدا كمزارع كلف بعمل ضمن رحاب ذاك المكان وغادر بعد أن أتمه.

تابع طريقه حتى صار على ناصية ذاك الشارع، حيث ركب سيارة أجرة أقلته إلى محطة الانطلاق ومنها استقل حافلة أوصلته إلى أقرب نقطة من مفرق قريته.

وضع أبو ديب يده فوق عينيه ليتأكد من شخصية ذاك الفلاح القادم نحوه وكانت دهشته عندما تعرف عليه.

- هيثم...ما الذي ترتديه؟
- هذا الزي الرسمي خاصتي من الآن فصاعداً.
- هل قرت أن تعمل في الحقل وتترك عملك ذاك؟
- كلا لأني سأحتفظ بالعملين معاً.
- بارك الله فيك...هذا ما سمعه من والده وهو يغادر.

وعند المساء قام أبو سالم بسرد كل ما كان قد حدث طيلة ذاك اليوم وسط دهشة وفرحة أبي ديب للنتيجة المرضية تلك، حيث هزّ رأسه قائلاً:

- هكذا إذاً يا هيثم.

وبعد فترة وجيزة رزق مسعد بطفل ثان حمله اسم والده تخليداً لذكراه وكان ذلك القادم الجديد على النقيض من شقيقه الأكبر حيث كان عاقلاً وهادئاً.

وكان لقدومه أثرٌ إيجابيٌ على نفسية تلك الصابرة أم أحمد، حيث أولته كل اهتمامها وجلّ وقتها مبعدة إياه عن كل ما يقوم بع شقيقه الأكبر الشرس والذي فرض على والده بأن يصطحبه معه أينما ذهب، وبالأخص عندما كان يقوم بأعماله المعتادة في الحقل، وكان كل اهتمامه قد انصب على ما كان قد رآه ضمن زاوية نائية من الحقل والذي كان وكراً لثعلب أو ثعالب عدة. أثارت كل حفيظته وأشعلت خياله الطفولي الذي ألزم والده وكل من يحيط به بالرد على كل تساؤلاته، وبالأخص فيما يتعلق بذاك الحيوان الماكر.

خلال تلك لفترة تناقلت وسائل الإعلام وبالأخص تلك المرئية منها ما كانت تسمح بعرضه هيئة التحقيق فيما يتعلق بمجريات ومقتضيات تلك المحاكمة الشهيرة لذاك الرجل وأعوانه الذين تحكموا ولعقود عدة بمقدرات ذاك البلد العريق، وبشعبه الأصيل.

وكان أكثر ما يثير بالنفس الإحساس بالذل والمهانة، حيث كان ذاك الكاسر يفاوض ويحاور محاكميه بطريقة كلها مهانة، والتي أنزلت سيلاً من الإحباط على نفوس كل مؤيديه، حيث قام العديد منهم بكسر أجهزة التلفزة خاصتهم جراء ذلك.

– يا إلهي...إلى هذا الحد وصلت بك الأمور...قالها أبو ديب محدثاً نفسه أثناء استماعه لوقائع إحدى جلسات تلك المحاكمة، والتي كانت نتيجتها بأن حكم عليه وبعض من أعوانه المقرّبين بالإعدام.

– أوتظن أنهم سينفذون ذاك الحكم؟...قالها هيثم.

– لا أعتقد ذلك، إذ أنهم سيبقونه هكذا كفزاعة يرهبون به مناوئيهم.

– أيعقل ما تقول؟

– نعم، ولم لا؟

– لأنهم استنفذوا كل ما كان في جعبته من خدمات كان من الممكن أن يؤديها.

– أنا أظل أعتقد ما كنت قد ذكرت، كونهم وكعادتهم يحاولون الاستفادة من كل شيء حتى الرمق الأخير، ومن ثم يلقونه هكذا كعقب سيكارة امتصت عن آخرها.

– معك حق فيما قلت، ولكن مع ذاك الشخص فإني لا أرى ذلك، كونه استنفذ كل قواه، وأصبح كما وصفت سابقاً، وهو الآن ينتظر مصيره.

– بالنسبة لنا جميعاً هو كذلك كون ما كان بإمكانه القيام به هو وأتباعه قد تبخر تحت شمس تلك الحقيقة الساطعة.

– نعم صحيح...آه...بالمناسبة ما الذي ينقص المحل من الحاجيات؟ فالعيد قادم.

– نعم...أعاده الله علينا وعليكم بالخير.

– آمين.

– قم بعملية جرد واحصر كل النواقص كي نجلبها معنا بعد غـد من المدينة

- حاضر.

عندها حضر أبو حسن ليبتاع بضع حاجات...حيث بادره أبو ديب:

- كيف حالك يا أبا حسن؟...هل ما زلت تعتني بطيور البط كعادتك؟...عندها ضحك أبو حسن وقال:

- رحم الله أبا أحمد وولده الشقي منهل، لقد منعت كلّ تلك الفصيلة من دخول منزلي بعد تلك الحادثة.

- فليرحمهما الله جميعاً يا صاحبي.

- آمين، فهذا خير الكلام...قالها وهو يغادر الدكان بعد أن دفع ثمن ما كان قد اشتراه.

.....

- ٢١ -

الله أكبر...الله أكبر...لا إله إلا الله.

على هذا الابتهال استفاق الناس في كل مكان، وبالأخص أهل تلك القرية الوادعة، حيث قام الجميع بارتياد مقبرة القرية زائرين موتاهم قارئين على أرواحهم ما تيسّر من الذكر الحكيم.

وعندما عاد أبو ديب...توجه فوراً نحو دكانه كي يفتح أبوابه مستقبلاً جموع الأطفال المبتهجين للعيد.

استغل فترة هدوء قصيرة مرت ليقوم بتشغيل جهازه الشهير الذي كان حينها يبث نبأ تنفيذ حكم الإعدام بذاك الرجل الذي شغل الكون بأفعاله وتصرفاته لأكثر من عقدين من الزمن.

- يا إلهي...يا للعار...إلى هذا الدرك وصلت بهم الأمور...ألم يحترموا مشاعر الملايين من المحتفلين بهذه المناسبة...قالها وهو يتجه نحو الغرفة حيث شاهد بأم عينه تلك العملية الشنيعة.

عاد إلى دكانه وهمّ الكون يثقل على كل خلية من جسده، حيث توجه بالكلام لولده هيثم قائلاً:

- تولّ أنت زمام الأمور لأني سأكون أمام الباب لبعض الوقت.

- لا عليك، فأنا لها...خذ راحتك.

– تمام، وخرج حاملاً كرسيه راكناً إياه أمام الواجهة وجلس، ومن ثم قام بإخراج كيس دخانه ومشربه ونفخ فيه طارداً ما كان قد علق فيه من بقايا، لكنه لم يحقق النتيجة المرجوة.

تلفت حوله مفتشاً عن شيء ما، وإذ به يشاهد ريشة كبيرة ملقاة على قارعة الطريق. قام ليجلبها، وما أن صارت بيده تفقدها جيداً وقال:

– هذه الريشة الناعمة من جنح يمامة تامة التكوين.

أدخل طرفها في فوهة المشرب ليخرجها من لجهة الثانية منظفاً بذلك المشرب جيداً.

وهو منهمك بعمله هذا حضر أبو سالم معايداً.

– كل عام وأنت بخير يا بن العم.

– وأنت كذلك..أعاده الله علينا جميعاً باليمن والبركات.

– كيف كان صباحك؟

– أسوأ صباح مرّ عليّ حتى الآن.

– ما رأيك بالذي حدث؟

– مذلة ليس بعدها مذلة.

– معك حق فالأمر كما ذكرت.

– لكن يا صاحبي، وبالرغم من كل ما حدث حتى الآن، لم يكن مستغرباً حدوثه إلا أنه كان قاسياً، وبالأخص على ذاك الشعب الذي بقي يعاني طويلاً، فهذا درس لكل ذي لب، فويل لأمة يستمد حكامها شرعيتهم من وراء البحار.

– أصبت حيث صوبت.

– نعم، فحياة هذا الشخص لم تكن لتساوي ريشة من جنح اليمام كهذه...قالها وهو يلقي تلك الريشة أرضاً.

عندها أجفلت يمامة كانت تنقر حبوباً من على قارعة الطريــق، حيث طارت لتحط على لوحة إعلان كبيرة، قرأ ما كتــب فيهــا ولأول مرة بتمعن إذ كانت تحمل اسم ما كان قد حطَّ عليها قبل قليل.

" **نعم هكذا ينتهي المتهورون** "

تمت في ٢٠٠٧\١٢\١٧

.....

الفهرس

.....

الفصل الأول: " في المشفى ": ٥ – ١٠٨

الفصل الثاني: " ذكريات " ١٠٩ – ١٦٣

الفصل الثالث: " جنح اليمام " ١٦٤ – ٢٨٤